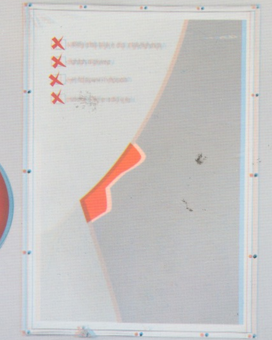
المراكز الثقافية الأجنبية والدور المفقود ■ حديث النفس بالغزو ■ قيادة القيادات



السنة الثالثة والعشرون . العدد ٢٤٦ . صفر ١٤٢٩ هـ . فبراير ٢٠٠٨ م



■ حوار مع أ. خالد مشعل

■ نحن الكبار..

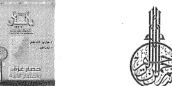


حصار غزة.. واختبار الأمة



الرياض	الدمام	مكة	جدة	القصيم	أبها
٠٥٠٢٢١٠٩٢٠	٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩	٠٥٠٧٢٦٦١٢٠	٠٥٠٦٤٦١٠٥٧	٠٥٠٢٢٢٠٦١٦	٠٥٠٦٤٦١٠٥٨



مجلة البيان

إسلامية شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي

المراسلات والإعلانات:

الدول العربية:

▫ السعودية:

ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦،

هاتف الاشتراكات مباشر: ٢٢٥١٩٦٢

هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٢٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني:

التحرير:

editors@albayan.co.uk

الاشتراكات:

sub@albayan-magazine.com

التسويق:

sales@albayan-magazine.com

عنوان المجلة على الشبكة العالمية: www.albayan-magazine.com

الموزعون:

- **الأردن:** الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٢٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٢٣٧٧٣٣.
- **الإمارات العربية المتحدة:** شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف: ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦.
- **سلطنة عُمان:** مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠.
- **البحرين:** مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
- **السعودية:** الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
- **السودان:** الخرطوم، دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع، هاتف ٧٩٢٢٨٢ – فاكس ٧٩٢٢٨٤ – ص.ب ١١١٦٦ الخرطوم.
- **قطر:** دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
- **الكويت:** شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع: ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
- **المغرب:** سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٢ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
- **اليمن:** دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء: ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
- طبعت بمطابع الأهرام التجارية – ٦ أكتوبر

■ افتتاحية العدد

■ دراسات في العقيدة والشريعة

■ السياسة الشرعية

■ قضايا دعوية

■ دراسات تربوية

■ تأملات تربوية

■ الإسلام لعصرنا

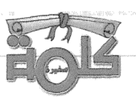
■ أفق أخضر

■ نص شعري

■ النجاح إدارة

الحسابات:

- السعودية: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة ـ شارع الأربعين ـ حساب مجلة البيان رقم ٧/٢١٠٠
- ـ مصرف فيصل الإسلامي ـ حساب رقم: ٠٠٢ ـ ٤٥١٤ ـ ٤٢ ـ ١٠٩
- ـ الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي ـ حساب رقم ٦٣٤٩٣٤
- الإمارات: بنك دبي الإسلامي ـ (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
- قطر: بنك قطر الدولي الإسلامي رقم: ١١١١٠٠٥٤٢٣٠٠١



المراكز الثقافية الأجنبية والدور المفقود

ما زال عالمنا الإسلامي في كثير من بلدانه أسيراً لبعض المراكز الأجنبية التي تؤدي رسالتها ضد أمتنا وديننا في غفلة منا، فالفاحص لأدوار تلك المراكز من جامعات ومراكز ثقافية وما يسمى بمدارس اللغات الأجنبية؛ يجد الكثير منها يُفسِد أكثر مما يُصلِح، ويهدم أكثر مما يبني، ويشوِّه عقليات طلابها بالشبهات بواسطة مناهجها وأعضاء هيئة التدريس فيها أحياناً.

وأبناؤنا - مع الأسف - هم المعنيّون والمقصودون؛ والأكثر أَسَفاً أن خرِّيجيها يُهَيَّؤون للقيادة في تلك البلدان! وما زال بعضهم بالفعل يحكمون تلك البلدان بعقليات أجنبية وبفكر مستورد يؤدي الأدوار عينها التي كان يقوم بها المستعمر القديم.

هذه الدُّور الأجنبية لم تأتِ حُباً لسواد عيوننا ولخدمة بلداننا بالاحتياجات الضرورية والمِلحّة من علوم الفيزياء والطاقة والطب مثلاً، بل تركِّز كما هو ملموس على العلوم الإنسانية والاجتماعية والفلسفات والآداب برؤى غربية تُشيع الشبهات والفكر المريض. ولما اعترض بعض المسلمين في الجامعة الأمريكية في بيروت على توجهاتها التنصيرية[1]؛ قال مديرها - آنذاك -: الجامعة جاءت لتؤدي دوراً معروفاً وخططاً مرسومة، وأهدافاً محددة وبأموالهم. هكذا يقول! وواجبنا أن نستسلم!

فلماذا لا تؤسلم سياسات التعليم في بلداننا، فيُحَدُّ من نشاط تلك الدُّور الأجنبية بحيث لا يجرؤ أي عضو فيها على مهاجمة ديننا أو السخرية منه، وعند حصول أي شيء من ذلك تحاسَب ثم تقفَل؛ ولا كرامة؟

لقد خطا التعليم الأجنبي في كثيرٍ من دولنا العربية خطوات بعيدة الأثر، عميقة الخطر. وإذا لم يتيقظ رعاة التعليم؛ فإن الاستهداف لن يكون على الهوية والثقافة فحسب، بل على الولاء والسيادة!

---

(١) انظر: كتاب (الاستعمار والتبشير)، تأليف د. عمر فروخ والخالدي.

سعر العدد: السعودية ١٠ ريالات — قطر ١٠ ريالات — الأردن ٧٥ قرشاً — الكويت ٨٠٠ فلس — اليمن ١٠٠ ريالاً — الإمارات العربية ١٠ دراهم — مصر ٤ جنيهات — السودان ٣٠٠ دينار — البحرين دينار واحد — المغرب ١٢ درهماً — سلطنة عُمان ٨٠٠ بيزة — فلسطين نصف دولار أمريكي

أوروبا وأمريكا ٢,٧٥ يورو أو ما يعادلها

الاشتراكات:

السعودية ودول الخليج	١٢٠ ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧ يورو
أوروبا	٥٥ يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥ يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥ يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠ يورو



من يعيد الحقوق المسلوبة؟

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فللمسلم مسلَّمات وثوابت أخذها من دينه لا يداخله فيها شك أو ارتياب؛ فمهما تداخلت القضايا وادلهمّت الأمور وتأثّرت الأوضاع، يبقى موقف المسلم المستند إلى تلك الثوابت لا يعتريه شك أو ارتياب أو تنازل، ومن خلال هذا يكون عمله منتجاً محققاً للمقصود الذي يحبه الله ورسوله ﷺ، وإن لم يحدث ذلك إلا بعد فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر حسب تقدير الله تعالى. وانطلاقاً من ذلك؛ فإنه يصر على مواقفه المبنية على الحق الذي جاء في كتاب ربه وسنة رسوله ﷺ مهما كلفه ذلك من مقابل، ولا يقدم تنازلاتٍ يأباها الشرع بحجة أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان.

لنا نحن - معاشرَ المسلمين - في العصر الحاضر عدد من القضايا المهمة، منها قضية فلسطين، البلد المسلم الذي اغتصبه مجموعات من اليهود تحت سمع العالم (المتمدن المحب للعدل والسلام!) وبصره، وبوعد من بريطانيا وبموافقة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي (روسيا حالياً) وغيرهم من البلدان غير المسلمة، وقد بدا لفريق من الناس أنه من الممكن حل هذه المعضلة بعيداً عن سُنة المدافعة بين أهل الحق وأهل الباطل - تلك السُّنّة التي لم تتغير على مر الزمن ولن تتغير - فراحوا يبحثون عن الحلول التفاوضية مع من اغتصبوا الأرض وقتلوا أهلها، وبرعاية مَنْ أعطاهم إياها ومن أمدّهم بأسباب البقاء فيها وشجعهم على ذلك بكل سبيل. وفي كل جولة تفاوضية تبرز المعادلة الواضحة التي لا يُستراب فيها؛ وهي أن من اغتصب الحقوق لم يكن ليعطيها أهلها مختاراً، وأن من أعانهم على الغصب والظلم ما يزال على موقفه مدافعاً ومُعيناً بل ومشاركاً، على الرغم مما يطلقه عليه التفاوضيون أنه الشريك والحليف، والراعي الأساس لحل هذه المشكلة ورجوع الحقوق إلى أهلها.

والذي لا شك فيه أنه لا رجوع للحقوق إلا من خلال ديننا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبسواعدنا نحن؛ فمهما ابتغينا العز في غيره أذلنا الله، ومهما وضعنا من آمال في غيرنا فلن يكونوا لنا إلا كما قال عنهم ربنا.

وقد اتبع الظَّلَمة والطغاة مع من يفاوضونهم سياسةَ الموافقة على الاقتطاع والهضم خطوة خطوة؛ فتبدأ المفاوضات وتنعقد، ثم تنفضُّ عن الموافقة على التخلي عن بعض الحق أملاً في تحصيل بقيته، وتمضي الأيام وتنعقد الجلسات ولا تنفك هذه الجلسات عن الاتفاق على شيء سوى الإقرار بما تُخُلِّيَ عنه ولا شيء في مقابل ذلك، ثم يُفتعل تعقُّد المسائل، وتحتاج بعد أمد إلى عودة أخرى لطاولة المفاوضات، وفيها يُتخلى عن جزء آخر، وهكذا تمتد المفاوضات ويكثر التخلي عنْ أجزاء من الحق حتى يصبح الباقي من الحقوق شيئاً هزيلاً لا قيمة له ولا مقدار. وهذا يفسره إصرار العدو على إطالة أمد المفاوضات، وعلى عدم الوصول إلى ما يسمونه (مفاوضات الحل النهائي)

إلا بعد إنهاك قوى التفاوضيين حتى يقبلوا ويُسلِّموا بما يُنبَذ إليهم من الفتات أو الحطام.

كما صار الحديث عن حل هذه المشكلة لدى السياسيين من الدول الكبرى وإسهامهم فيه وسيلةً فجّة لتمرير مشاريعهم التوسعية للسيطرة على أجزاء شاسعة من العالم، ونهب ثروات شعوبه، والنيل من حرياتهم وثقافاتهم؛ فمنذ ما يقارب من سبع سنوات عندما أرادت أمريكا محاربة الإسلام والنيل منه؛ لأنه هو العقبة الرئيسة التي تحول بينهم وبين طموحاتهم في الاستيلاء على البلاد الإسلامية، ونقْلِ خيراتها إلى بلادهم، وتغريب شعوبها وصبغهم بصبغة مخالفة لدينهم - جرى الإعلان عن ذلك تحت مسمى محاربة الإرهاب، والترويج له إعلامياً بصورة قلّ نظيرها. وفي سبيل ذلك ظهر الحديث بقوة عن ضرورة حل المشكلة الفلسطينية؛ لأن وجودها بدون حلّ يغذي - من وجهة نظرهم - الإرهاب، وجرى الكلام بتأكيد شديد لدرجة أنه قد تحدد موعد إعلان الدولة الفلسطينية وهو عام ٢٠٠٥م، وفرح التفاوضيون لذلك، وقدحوا فيمن شكك في نزاهة هذا الإعلان. واليوم وبعد مرور ما يقرب من سبع سنوات، وفي أوائل عام ٢٠٠٨م، أي بعد الموعد المحدد مسبقاً بثلاث سنوات؛ فوجئ الفلسطينيون بأهازيج إعلامية تصاحب زيارة رئيس أمريكا للمنطقة تعيدهم إلى مستويات سفلى أدنى بكثير مما يتخيله أكثر الناس معارضة للمسلك التفاوضي.

فعندما وطئت أقدامه أرض مطار (بن جورين) الأرض المغصوبة من أصحابها والتي ليست ملكاً للضيف، ولا ملكاً لمن استضافه، أُعلِن أنه ينبغي ضمان أمن (إسرائيل) دولةً يهودية. وهذا يعني أمرين: أولاً: إسقاط حق الفلسطينيين الذين أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم بقوة البطش والظلم من العودة إلى ديارهم. ثانياً: تهديد العرب الباقين في حدود ٤٨ في بقائهم على أرضهم، مما يحوّلهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية.

وذرّاً للرماد في العيون أعلن أنه ينبغي تعويض اللاجئين عن ديارهم وممتلكاتهم، أي: عليهم أن يبيعوا وطنهم وممتلكاتهم من أجل إقرار الغاصب على غصبه، وكأنه يرى أن الأوطان تباع بالدينار والدولار (ومن أين تأتي هذه التعويضات؟ لعلها تُجمع لهم من بعض الدول العربية، فيدفع العرب أموالهم للعرب ليفوز اليهود بفلسطين!)، وهذا ليس غريباً على أناس قامت دولتهم على أساس إبادة أهل البلد الأصليين.

ويتعجب المرء من ضعف رد بعض المسؤولين الفلسطينيين على ذلك؛ حيث يعلق أحدهم على اقتراح التعويض المادي والرضا بعدم العودة إلى البلاد وابتلاع اليهود لها إلى الأبد؛ بأن الموافقة على هذا العرض قرار فردي يرجع إلى كل لاجئ، وهو الذي يقرر ذلك بنفسه! بينما يقول بعضهم الآخر: إن هذا الاقتراح ربما يرمي لإقناع الصهاينة وجذبهم لمائدة المفاوضات (فبعدما كان العرب يرفضون التفاوض في عهد اللاءات الشهيرة: لا صلح، لا تنازل، لا تفاوض، لا اعتراف، صار الكثير يهرول للمائدة المستديرة ويصر على التفاوض ويطالب به!).

ولما كان إسقاط حق اللاجئين في العودة لديارهم التي أُخرِجوا منها بغير حق مخالفاً للقرارات الدولية[1]؛ كالقرار رقم (١٩٤) الصادر عن الأمم المتحدة في ١٩٤٨/١٢/١١م، الذي ينص على حق اللاجئين في العودة إلى ديارهم - نجد أن الضيف الزائر يصرح قائلاً: إن الأمم المتحدة أخفقت في إيجاد حل[2]، كما أن هذه القرارات قديمة وينبغي الاعتراف بما هو على الأرض[3]. وهذا الكلام يمثل استهانة كبرى بما يقال عنه: (المجتمع الدولي والقرارات الدولية)، بل إن مثل هذا الكلام هو من السخرية بمكان؛ إذ كيف يقول ذلك وهو يعلن أنه جاء لتحقيق اتفاق سلام - قبل انتهاء ولايته - يتيح إقامة الدولة الفلسطينية؟ كما أنه في الوقت نفسه استهانة بالعرب كافة وبحقوق الفلسطينيين خاصة؛ إذ كيف يطلق هذه التصريحات وهو قادم لزيارة كثير من البلاد العربية؟ فكأنه يقول: أُعلِنها وأنا في عقر داركم! وهذا مدعاة حقيقية لعدم الثقة في كل ما يصدر عن هؤلاء؛ فهم كما قال الله - تعالى - عنهم: ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ويعقب الله - تعالى - بعد هذا البيان بقوله: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ومما يبين أنه ماضٍ في طريقه، وأنه يعي ما يقول ويقصده، وأنه ليس مجرد سقطة كلام - كما حاول بعض الناس الاعتذار له بذلك عندما أعلن أنه سيشن حرباً صليبية - ما يبين ذلك أنه لا يُتوقع من (إسرائيل) أن

---

(١) التي يتشدق هؤلاء بالتمسك بها عندما تكون في صالحهم.

(٢) وهو يعلم أن الإخفاق راجع لما توليه دولتهم لليهود من حماية في هذه المؤسسة الدولية، حتى إنها احتاجت لاستخدام حقها في نقض القرارات الدولية (فيتو) لحماية اليهود عشرات المرات.

(٣) وهذا الكلام يفضح أهداف التسويف المتتالي في الوصول إلى اتفاق حتى يكون ما على الأرض بمرور الزمن كله لليهود، ولا يبقى منه إلا الفتات.

تتخلى عن الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧م كلها، وأن على الجانبين (اليهودي والفلسطيني) تقديم حلول وسط تعكس الواقع الحالي، بما في ذلك تعديل الحدود وعدم الالتزام بخط الهدنة. ويجعل ذلك التنازل والتغيير في خطوط الهدنة والإقرار بعدم أحقية اللاجئين في العودة إلى ديارهم هو المهر المقدم لإقامة الدولة الفلسطينية (الدولة الكرتونية التي لا حقيقة لها إلا في الأوراق)، وهو ما يعني الموافقة على ابتلاع اليهود لأجزاء أخرى من فلسطين، والتنكر لحقوق الفلسطينيين الثابتة أصلاً بامتلاكهم لأرضهم وديارهم والمؤكدة بالقرارات الدولية المؤيدة لذلك الحق.

فالرئيس يقول: إنه يجب اتخاذ قرارات صعبة وتقديم تنازلات مؤلمة من الجانبين. أما القرار الصعب والتنازل المؤلم من جانب اليهود - إن حدث في الواقع - فهو لا يعدو أن يكون تنازل السارق عن بعض ما سرقه. وأما القرار الصعب والتنازل المؤلم من جانب الفلسطينيين[1]؛ فهو التسليم للسارق بسرقته وللغاصب بما اغتصب.

وهو يطالب[2] في مقابل اللا شيء الذي يقدمه للفلسطينيين بالالتزام الصارم بمنع المقاومة، ومواجهة من سماهم (الإرهابيين) وتفكيك البنية التحتية لهم، ويدخل في كل هذه التعبيرات الفصائل الفلسطينية الرافضة للاستسلام، وعلى رأسها الفصائل الإسلامية. والالتزام الصارم معناه في هذه الحالة: قيام الاقتتال الداخلي بين الفلسطينيين.

والكل يعلم بما فيهم الأمريكان واليهود أن الإدارة الأمريكية أضعف من أن تكون قادرة على تحريك شيء على الأرض، فكأن الزيارة فيما يخص اليهود لم تكن إلا لتأكيد وتثبيت الأوضاع القائمة والبناء عليها فيما بعد، فكيف برئيس أمضى سبع سنوات في الحكم لم يتقدم خطوة في الاتجاه الصحيح، بينما هرول وقطع مسافات بعيدة في الاتجاه الخاطئ.. كيف به يزعم أن في الإمكان أن يحقق في السنة الباقية (والتي يطلق فيها على الرئيس بطة عرجاء لضعفه وعدم قدرته) ما لم يمكن تحقيقه في سبع سنوات؟!

ومن غريب ما تمخضت عنه الزيارة أن الرئيس الأمريكي قفز على كل مجهودات العرب؛ فبعد عقود من التحركات الحربية أو السلمية توصَّل العرب إلى ما يعدونه خياراً إستراتيجياً بالنسبة لهم، وأجمعوا عليه إجماعاً قلّ لهم نظيره، وهو المبادرة العربية التي انطلقت منذ ما يقارب عقدين من الزمان والتي ما يزال العرب يلتزمون بها، ومع ذلك لا نجد لها ذِكراً أيَّ ذكر في خطابات وتصريحات الرئيس الأمريكي، مما يعد تجاهلاً تاماً لأمة كاملة، فلا يعيرها اهتماماً ولا يلتفت إلى إجماعها ولو من باب المجاملة!

والشيء اللافت للنظر أن هذا المشهد سبق إخراجه أواخر أيام حكم (كلينتون) بحيث يصح أن يقال إنه (سيناريو) مكرر ومعاد. ولا اختلاف في المضمون، وإنما الاختلاف في أشخاص القائمين بالأدوار.

واليهود بدورهم ماضون في خططهم وسياساتهم لا يعتدُّون بما يقال هنا أو هناك، وليس عندهم أكثر من الكلام والتصريح الذي لا يؤخذ منه فائدة، بينما لا يوجد تغيير على الأرض؛ فبناء المستوطنات لم يتوقف، وهناك مناقصات تُطرح لبناء مستوطنات جديدة وتوسيع أخرى قائمة، وانتزاعُ الأراضي من أيدي أهلها الفلسطينيين مستمر، بل حتى المستوطنات التي قامت بالمخالفة لقانونهم (وهي التي يدعونها بالمستوطنات العشوائية) ما زالت قائمة لم تُزل.

هذا الكلام قد لا يكون جديداً، بل قد قيل من قِبَل كثير من الناس منذ زمن وأمد، لكن الذي ينبغي قوله والتأكيد عليه أن الحقوق المغتصبة لا يمكن أن يأتي بها مَنْ هو عون الظالمين وملاذهم والمدافع عنهم، والمتبني لكل تصرفاتهم وأقوالهم، ولن تعود هذه الديار إلا كما عادت يوم أن استعادها صلاح الدين ممن اغتصبوها منذ قرون مضت، والسبيل هو السبيل، والعمل هو العمل: الإيمان بالله والاستعانة به، والالتزام بشرعه، واجتماع الكلمة، وتوحّد الصفوف، وإعداد العدة اللازمة، وبناء القوة التي ينفع الله بها يوم النزال، وحفظ الأموال وإنفاقها في ذلك، فلا ينبغي إضاعة الزمان والأعمار والأولاد وإهدار الأموال في التعلق بسراب لا حقيقة له، وترك العمل على تحقيق ما وعد الله به؛ فوعد الله حق وتحقيقه حق. قال الله - تعالى -: **﴿ولينصُرن اللهُ من ينصُرُهُ إن اللَّه لقويٌّ عزيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]**، وقال - تعالى -: **﴿إن ينصُركُـم اللَّهُ فلا غالـب لكُم وإن يخذُلكُمْ فمن ذا الذي ينصُرُكُم من بعْده﴾ [آل عمران: ١٦٠]**.

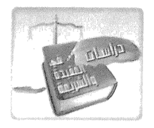
اللهم اجمع كلمة المسلمين على طاعتك وطاعة رسولك، والانتصار لدينك ولعبادك المستضعفين!

---

(١) وهو ما يحدث بالفعل؛ فمنذ بدأت المفاوضات والفلسطينيون يتخذون القرارات الصعبة ويقدمون التنازلات المؤلمة، ولكنها في الواقع بدون مقابل.

(٢) وكل ما يقدمه للفلسطينين في حقيقته هو طلبات وواجبات عليهم أن يفعلوها.


دجاج مكعبات
دجاج الوطنية متوفر بعدة اصناف تناسب أذواق الجميع.
الوطنية لذيذ، صحي وغذاوه ١٠٠٪ طبيعي - طبيعي يكون اختيار الأم الأول لعائلتها.
AL-WATANIA POULTRY
دواجن الوطنية
غذاؤكم ترعاه أيد أمينة
25
YEARS
SGS
ISO 9001-2000
www.al-watania.com • 800 124 4666



قاعدة ذهبية

أكرم مبارك عصبان الحضرمي

إن مــن أهم العلوم وأنفعها، وأعظم الفنــون وأجمعها، معرفة الأصول الكلية والقواعد الأساسية التي تُبنى عليها الفروع فتصِح، ويتبين من خلالها الحُكم ويتضح. وتعصم هذه الأصولُ المستنبطَةُ من النصوص من الانحراف في الأمور المستجدة حين لا يُنظر من زاويتها، وقد عُني العلماء بها كل العناية حتى جُرِّدت في بحثها الأسفار العظيمة، إذ الأهمية داعية إلى معرفتها لمن يتوخى النظر في الحوادث، ويقطع دابر الخلاف حين لم تراعَ.

ونريد أن نشد مطايا البحث إلى قاعدة مهمة ذات قيمة بالغة ونشفعها بمثال عمت به البلوى، نسأل الله التوفيق والسداد.

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية في الفتاوى (١٩/٢١٢): (ونحن نذكر قاعدة جامعة في هذا الباب لسائر الأمة فنقول: لا بد أن يكون مع الإنسان أصــول كلية تُرَدُّ إليها الجزئيات، ليتكلـم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيـف وقعت، وإلا فيبقى في كذب وجهل فــي الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات: فيتولّد فساد عظيم).



وقفات مع هذه القاعدة

أولاً: معرفة الأصول الكلية:

لقد ورد في هذه القاعدة أهمية معرفة الأصول التي تكمن في أمرين مهمين: أحدهما: رجوع الجزئيات المتولدة إليها؛ حيث إن الوقائع لا حصر لها. والثاني: كونها سبيلاً لتحقيق العلم والعدل.

إذ العلم شرط أساسي من الشروط التي يجب توفرها للناظر في الحوادث، قال - تعالى -: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وهو الذي يعصم من الخطأ الذي بابه الجهل، فلا بد أن يكون المتكلم عالماً بما يقوده إلى الحق: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، والعدل هو السبيل الذي يجب أن يعتمده مَنْ يتكلم في المسائل والأحكام، وحِلْيةٌ يجب أن يتدثّر بلباسها، وقد أمر الله نبيه ﷺ به فقال: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، فالعلم والعدل طريقان يقودان للحق، ونقيضهما الجهل والظلم في الإنسان. قال - تعالى -: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فكان عليه أن يدفعهما ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإلا عاد سيرتَه الأولى.

ثانياً: معرفة الجزئيات كيف وقعت:

لا بد من استصحاب هذه الضميمة المهمة من معرفة الجزئيات كيف وقعت، ويرعاها بالعلم حتى لا يتكلم عن مناط آخر. قال ابن القيم في كتابه القيّم (إعلام الموقعين ٨٧/١٢): (ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه منه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات التي يحيط بها علماً. والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع؛ وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر).

وقال الشاطبي في الموافقات (٤٥/٣): (لا يصح للعالم إذا سئل عن أمر كيف يحصل في الواقع، إلا أن يجيب بحسب الواقع؛ فإن أجاب على غير ذلك أخطأ في عدم اعتبار مناط المسؤول عن حكمه؛ لأنه سئل عن مناط معيّن فأجاب عن مناط غير معين).

ثالثاً: الفساد العظيم:

تُرشد هذه القاعدة إلى أن الفساد الذي ينتج لعدم مراعاة القواعد الكلية ومعرفة كيفية وقوع الجزئيات، يكمن في أمرين، هما:

- كذب وجهل في الجزئيات.
- ظلم وجهل في الكليات.

فالجهل مشترك بين الأمرين؛ ويزاد عليه الكذب في حكم الحادثة، والظلم في شأن الأصل.

مثال للقاعدة:

نواصل السير في شُعَب هذه القاعدة وواديها، وننزل على مثال جدير بالوقوف أمامه، ونستنبط من القاعدة ما يشرح مضامينه. والمثال: هو إدراج الحكم بغير ما أنزل الله في التشريع العام أو التبديل في الأصل الكلي في باب الإيمان؛ وهو (كفر دون كفر). وبيان ذلك ما يلي:

الأصل الكلي (كفر دون كفر):

هذا أصل أصيل عند السلف يقضي بتقسيم الكفر إلى قسمين، أطلقه ابن عباس، رضي الله عنهما، وقد ترجم له البخاري في صحيحه بقوله: (باب كفران العشير وكفر دون كفر)، ومن فروعه ما ورد في كثير من النصوص، منها: «قتال المسلم كفر»، «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»؛ فمن قام من المسلمين بشيء من هذه المعاصي؛ كقتل المسلم وكفران العشير، فكُفرُه كفرٌ أصغر، أي: أنه يعمل عمل الكفار، وهذا الأصل يَـرُدُّ على الخوارج في منهجهم الردي وهو التكفير بالكبيرة، ولكنه لا يؤيد مذهب المرجئة المردي الذين جعلوا الإيمانَ (التصديقَ بالقلب)، مجرداً من عمل الجوارح، وجعلوا الكفر هو (التكذيب بالقلب)، فأنتج حصرَ الكفر بكفر الجحود والتكذيب، ومنهجُ السلف بين إفراط الأولين وتفريط الآخرين.

ومن أفراد هذا الأصل أيضاً الحُكمُ بغير ما أنزل الله؛ كما قال شارح الطحاوية: (وإنْ اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعَلِمَه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق العقوبة؛ فهذا عاص).

قال - تعالى -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد نزلت في اليهود. قال ابن عباس: هي كفر دون كفر، وليس كفراً بالله وملائكته وكتبه ورسله، وذلك حين جعلها الخوارج أصلاً من أصولهم في كفر مرتكب الكبيرة، وقال البراء بن عازب بأنها في الكفار، كما عند الطبري.

وقال ابن حجر: (ظاهر صنيع البخاري أنه يرجّح أنها



عامة، ونقل الحافظ عن إسماعيل القاضي قوله: (ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعلوا واخترع حُكماً يخالف به حكم الله وجعله ديناً يعمل به، فقد لزمه مثل ما لزمه من الوعيد المذكور؛ حاكماً كان أو غيره) (١٢٠/١٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والحاكم إذا كان ديِّناً لكنه حَكَمَ بغير علم كان من أهل النار، وإن كان عالماً لكنه حَكَمَ بخلاف الحق الذي يعلمه كان من أهل النار.. هذا إذا حَكَمَ في قضية معينة لشخص، أما إذا حَكَمَ حُكماً عاماً في دين المسلمين فجعل الحق باطلاً، فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين) (٣٥/٣٥٧).

وقال ابن القيم في مدارج السالكين: (والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين: الأصغر والأكبر؛ بحسب حال الحاكم؛ فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق العقوبة؛ فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب أو أنه مخيَّر فيه مع تيقُّنه أنه حكمُ الله، فهذا كفر أكبر).

فأنت ترى أنه ليس من أفراده التشريع العام، بل إن احترازات هؤلاء العلماء تُخرِجُه من الكفر الأصغر لمن صوّب النظر فيها ودققه، فتأمل قول إسماعيل القاضي: (وجعله ديناً يعمل به)، وقول شيخ الإسلام: (هذا إذا حَكَمَ في قضية معينة)، وقول ابن القيم: (في هذه الواقعة)، ترى أنها تشير إلى جَوْر الحاكم عمّا أنزل الله مع التزامه به لهوى أو لغيره.

معرفة الجزئية كيف وقعت:

إن المسائل التي تعتبر تشريعاً عاماً لا يتأتّى فيها التقسيم السابق، ولا يقال: إنها من أفراد هذه القاعدة؛ لأن المناط مختلف تماماً في الحيدة بالتبديل والتشريع العام، ولذلك اشتد نكير اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في السعودية على من زعم في دعواه (إجماع أهل السنة على عدم كُفرِ مَنْ حَكَم بغير ما أنزل الله في التشريع العام؛ إلا بالاستحلال القلبي كسائر المعاصي التي دون الكفر)، وأضافت: وهذا محض افتراء على أهل السنة؛ منشؤه الجهل أو سوء القصد، نسأل الله السلامة والعافية)[1]. وزاد الشيخ صالح الفوزان بياناً في رده على المذكور في دعواه أن (التبديل في الحكم في اصطلاح العلماء: هو الحكم بغير ما أنزل الله على أنه من عند الله؛ كمن حكم بالقوانين الفرنسية وقال هي من عند الله أو من شرعه تعالى، ولا يخفى أن الحكام بغير ما أنزل الله اليوم لا يزعمون ذلك، بل هم يصرّحون أن هذه القوانين محض نتاج عقول البشر القاصرة. والتبديل - بهذا المعنى لا بالمعنى الذي يذهب إليه أهل الغلو - كفرٌ بإجماع المسلمين)، فرد عليه الشيخ الفوزان بقوله: (ونقول: هذا التبديل الذي ذكرت أنه كفر بإجماع المسلمين هو تبديل غير موجود، وإنما هو افتراضي من عندك لا يقول به أحد من الحكام اليوم ولا قبل اليوم، وإنما هناك استبدالٌ هو اختيار جعل القوانين الوضعية بديلة عن الشريعة الإسلامية وإلغاء المحاكم الشرعية، وهذا كفر أيضاً؛ لأنه يزيح تحكيم الشريعة الإسلامية وينحّيها نهائياً ويحل محلها القوانين الوضعية؛ فماذا يبقى للإسلام؟)[2]. فإذا حققت هذا تحقيقاً بالغاً وأمعنت النظر في هذه الحادثة، تبيّن لك غربتها عن الأصل المذكور حين تكلّم مَنْ لم يحقق فهمها، فجعل هذه الحادثة من فروعها. والمقصود هنا تطبيق القاعدة التي أجادها شيخ الإسلام على هذا المثال الذي مُنيت به الساحة، وليس من غرضنا في هذا المقام الاستقصاء.

الفساد العظيم:

إن الفساد العظيم ناشئ عن ذلك الخلط، وهو كما ورد في القاعدة على مقامين:

- كذب وجهل في الجزئية: أي أن التشريع العام ليس من الأصل القويم (كفر دون كفر)، وإلحاقُه به من الكذب والجهل عن المراد منه.

- ظلم وجهل في الكلية: أي في القول إنها تمثل هذا النوع الذي من آثاره فتحُ باب الانسلاخ من الدين، ومن آثاره كما في (درء الفتنة عن أهل السنة) للشيخ بكر أبي زيد ص ٩: (التهوينُ من تحكيم شريعة الله في عباده، ومساندة من يتحاكم إلى الطاغوت وقد أمره الله أن يكفر به).

هذا ما تم توضيحه في هذا المقام؛ فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان ثمة خطأ أو نقص فمن نفسي والشيطان، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

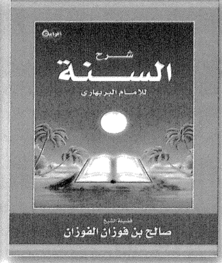
(١) برقم ٢١١٥٤، صدرت ٢٤/١٠/١٤٢٠هـ.

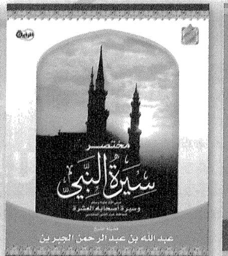
(٢) انظر صحيفة الجزيرة، العدد ١٠١٤٧، بتاريخ ١٠/٧/٢٠٠٠م.

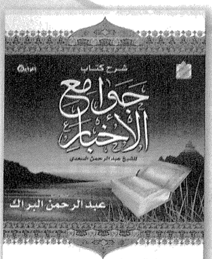
تسجيلات الراية الإسلامية

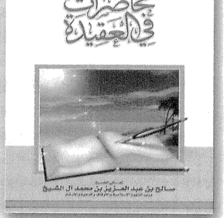
تعلن عن صدور الجديد من أشرطة

الدروس والمحاضرات العلمية

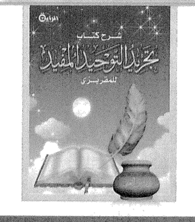


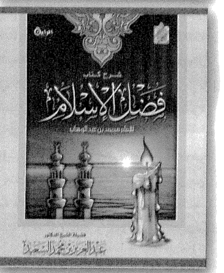


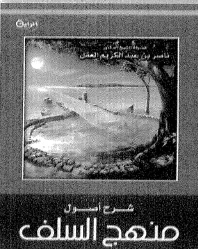


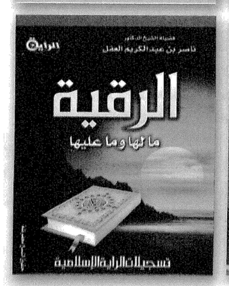














من شروط ولي أمر المسلمين

(٢ ـ ٢)

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

تحدثت في الحلقة الأولى من هذا المقال عن شرط إسلام ولي الأمر، وذكرت الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع على وجوب ذلك، ثم عرجت على أقوال المخالفين في ذلك من العصرانيين الذين يحتكمون لتصوراتهم وأهوائهم، فذكرت شبههم ورددت عليها. ونكمل في هذه الحلقة من المقال الحديث عن شرط الرجولة.

• **الرجولة:**

الشرط الثاني الذي **ينازع** فيه بعض المعاصرين هو رجولة ولي الأمر، فهم يجيزون أن تكون المرأة ولي أمر، وهذا القول في الحقيقة لم تدعُ إليه حاجة أو يدل عليه دليل عقلي سواء من نقص الرجال الأكفاء لتولي هذا المنصب، أو الكفاءة النادرة من المرأة.

كما لم يدلَّ على ذلك دليل شرعي من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة الذي يجب المصير إليه، وإنما هو من المسارعة التي يقع فيها بعض الناس بجهل أو سوء نية بزعم المساواة بين الجنسين وعدم التمييز ضد المرأة، لمجاراة الكافرين والهيئات والمؤسسات التي تدور في فلكهم لنشر ثقافاتهم وتغليبها على ما عُلِم من دين الإسلام.

إن الأدلة الشرعية على عدم جواز أن تكون المرأة ولي أمر ووجوب أن يكون ولي الأمر رجلاً، كثيرة، ونحن في هذا المقال لا نحصيها أو نستقصيها، وإنما فقط نعرِّج على بعضها.

إن من يطالع الأدلة المتكاثرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق بالأحكام المتعلقة بالمرأة يدرك - لا محالة - أنها كلها تراعي عدم بروز النساء في المجامع العامة أو اختلاطهن بالرجال، ليس لقلة علمهن أو كفاءتهن، وإنما لما يترتب على ذلك من مفاسد ومضار كثيرة للرجال وللنساء على السواء، ومَنْ كانت أحكامه تدور على هذا النحو فلا يقوم في الشرع ولا في العقل أن يكون ولياً على الرجال. ولننظر بعض الأدلة الواردة في ذلك:

• **فمن القرآن الكريم:**

١ - قوله ـ تعالى ـ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤]، فجنس الرجال قوامون على جنس النساء بنص القرآن. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «فيه إحدى عشرة مسألة: الأولى: قوله ـ تعالى ـ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، أي: يقومون بالنفقة عليهن والذب عنهن، وأيضاً فإن فيهم الحكام والأمراء ومن يغزو، وليس ذلك في النساء. يقال: قوَّام وقيِّم. الثانية: ودلت هذه الآية على تأديب الرجال نساءهم، فإذا حفظن حقوق الرجال فلا ينبغي أن يسيء الرجل عشرتها.

و (قوّام): فعّال للمبالغة، من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه وحفظه بالاجتهاد.

فقيام الرجال على النساء هو على هذا الحد، وهو أن يقوم بتدبيرها وتأديبها وإمساكها في بيتها ومنعها من البروز، وأن عليها طاعته وقبول أمره ما لم تكن معصية، وتعليل ذلك بالفضيلة والنفقة والعقل والقوة في أمر الجهاد



والميراث والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

وقال البغـــوي: «قوله ـ تعالـــى ـ: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامـــونَ على النّساء ﴾ أي: مســـلّطون على تأديبهن. والقوّام والقيِّم بمعنى واحد، والقوام أبلغ وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب. ﴿ بمـا فَضَّلَ اللـهُ بعضَهُم علَى بعْض ﴾ يعنـــي: فضّل الرجال على النســـاء بزيادة العقل والدين والولايـــة»[2]. وقال ابن كثير: «أي: الرجل قَيِّم على المرأة، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليهـــا ومؤدبها إذا اعوجَّت ﴿ بما فَضَّلَ اللـهُ بعضهم علَى بعض ﴾ أي: لأن الرجال أفضل من النســـاء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصـــة بالرجال وكذلك المُلْك الأعظم؛ لقوله ﷺ: «لن يُفلِح قومٌ وَلَّوْا أمْرَهُم امرأة» رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بـــن أبي بكرة عن أبيه[3]، وكذا منصب القضاء وغير ذلك.

﴿ وبمـا أنفقُوا من أموالهم ﴾ أي: من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهنَّ في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفســـه، وله الفضـــل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قَيِّماً عليها، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وللرّجال عليْهِـن درجةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبـــاس ـ رضي الله عنهمـــا ـ: ﴿ الرّجالُ قوَّامُون على النّســـاء ﴾ يعنـــي: أمراء عليها، أي: تطيعه فيمـــا أمرها به من طاعته، وطاعتُه: أن تكون محســـنة إلى أهله حافظة لماله. وكذا قال مقاتل، والسدي، والضحاك»[4].

وقال البيضاوي: «﴿ الرجال قوَّامُون علَى النســـاء ﴾ يقومون: عليهن قيام الولاة على الرعيـــة، وعلل ذلك بأمرين: وهبي، وكسبي، فقال: ﴿ بما فضَّلَ اللهُ بعضَهُم علَى بعْض ﴾ بسبب تفضيله ـ تعالى ـ الرجال على النســـاء بكمال العقل وحسن التدبير، ومزيد القوة في الأعمـــال والطاعات، ولذلك خُصّوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشـــعائر، والشـــهادة في مجامع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها»[5].

وقال الألوسي: «﴿ الرّجالُ قوَّامُون علَى النّساء ﴾، أي: شأنهم القيـــام عليهن قيام الولاة على الرعيـــة بالأمر والنهي ونحو ذلك. واختيار الجملة الاســـمية مع صيغـــة المبالغة للإيذان بعراقتهم ورسوخهم في الاتصاف بما أسند إليهم»[6]. وقال الطاهر ابن عاشور: «قوله: ﴿ الرّجالُ قوَّامُون علَى النّساء ﴾ أصل تشـــريعي كُلِّي تتفرّع عنه الأحكام التي في الآيات بعده، فهو كالمقدّمة... والحكم الذي فـــي هذه الآية حكم عامّ جيء به لتعليل شرع خاصّ... والكلام خبر مستعمل في الأمر كشأن الكثير من الأخبار الشرعية... والقوَّام: الذي يقوم على شأن شيء ويليه ويصلحه، يقال: قَوَّام وقَيَّام وقَيُّوم وقَيِّم... فموقع ﴿ الرِّجـالُ قوَّامُون علَى النّسـاء ﴾ موقـــعُ المقدّمة للحكم بتقديم دليله للاهتمام بالدليل؛ إذ قد يقع فيه ســـوء تأويل... وقيام الرجال على النساء هو قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي، ولذلك قال: ﴿ بما فضَّلَ اللّهُ بعضهم على بعْض وبما أنفقُوا من أموالهم ﴾[7]».

وبنحـــو ما تقدم قـــال كثير من المفســـرين؛ كالماوردي والنســـفي والشوكاني وأبي حيان والرازي والنيسابوري وأبي السعود والخازن، وغيرهم.

فكيف يصح بعدما تقدم نقله القول بجواز أن تكون المرأة ولياً للأمر على جنس الرجال كلهم بما فيهم زوجها؟

٢ ـ قولـــه ـ تعالى ـ: ﴿ وقرن فـي بيُوتكُن ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وهو أمر من الله ـ تعالى ـ للنســـاء بالقرار في بيوتهن. قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفســـيرها: «الْزَمْن بيوتكن فلا تخرجن بغير حاجـــة». والقرار في البيت منافٍ للخروج منـــه والاختلاط بالناس والالتقاء بهـــم، وهو أمر لا بد منه لولي الأمر؛ إذ طبيعـــة عمله تقتضي خروجه وتنقُّله وتفقُّده للأحـــوال والرعية، وانتقاله من بلـــد لبلد أخرى، واختلاطه بالنـــاس والخلـــوة ببعضهم. والخطاب في الآيـــة ـ وإن كان لنســـاء النبي ﷺ ـ لكن بقية نساء المســـلمين داخلات فيه. قـــال القرطبي: «معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنســـاء النبي ﷺ فقد دخل غيرهـــن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النســـاء، كيف والشـــريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منهـــا إلا لضـــرورة، على ما تقدم في غيـــر موضع؟»[8]. وقال ابن كثير: «هذه آداب أمر الله ـ تعالى ـ بها نساء النبي ﷺ، ونساءُ الأمة تَبَعٌ لهن في ذلك»[9].

ولمـــا كان أمر الله ـ تعالى ـ للنســـاء بالقرار في البيوت كانت كل التشـــريعات المتعلقة بالمرأة تصب في هذا الجانب، إذ لا تناقض بين أحكام الشـــريعة ولا تنافر، فلم يفرض الله عليها الخروج للجهاد، كما لم تجب عليها صلاة الجمعـــة أو الجماعة، كما بيّن الرسول ﷺ أن صلاتها في بيتها خير لها

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٥/١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) معالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٠٧.
(٣) أخرجه البخاري، رقم ٤٤٢٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٥) أنوار التنزيل للبيضاوي.
(٦) روح المعاني لمحمود الألوسي.
(٧) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.
(٨) تفسير القرطبي /٨٩
(٩) تفسير ابن كثير ٦/٤٠٨

من صلاة الجماعة في المسـجد، وأنها لا تخرج من البيت إلا بإذن زوجها، وأنها إذا خرجت فعليها بحافة الطـريق ولا تسلك وسـطه، وأن المرأة إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان (أي: تطلع إليها) وزينها في أعين الرجال ليغويها ويغويهم بها، ففي خروجها فتنة كما قال الرسول ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النسـاء»[1]، وقال: «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[2]، وقال: «إن المرأة تُقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان»[3]. قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: «قال العلماء: معناه الإشـارة إلـى الهوى والدعاء إلى الفتنة بهـا لما جعله الله ـ تعالى ـ في نفوس الرجال من الميل إلى النساء والالتذاذ بنظرهن وما يتعلق بهن؛ فهي شـبيهة بالشـيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له». ثم قال: «ويُستنبَـط من هـذا أنه ينبغي لهـا أن لا تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجال الغض عن ثيابها والإعراض عنها مطلقاً»[4].

فكل هـذه الأدلة مبنية على قرار المـرأة في بيتها وعدم خروجها إلا لحاجـة، والقول بجواز ولايتها فيه خرم لكل هذه النصوص المتقدمة.

٣ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] أي: يكففـن ويخفضن من أبصارهن، ولا ينظرن إلى الرجال من غير محارمهن. قال ابن كثير: «أي: عمَّا حَرَّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن». وكيف يستقيم هذا لشخص يراد منه أن يكون ولياً للأمر يحادث الناس ويستمع إليهم ويتفقد أحوالهم، ويجتمـع بمعاونيه ووزرائه ويتباحث معهـم في الأمور؟ ولا يعارض هذا قولـه ـ تعالى ـ في حق الرجال: ﴿ وقل للْمُؤمنات يغضُضن منْ أبصارهنَّ ﴾؛ لأن الأصل أن المرأة قارَّة في بيتها، فإن احتاج الرجل إلى كلامها غضّ بصره عنها، وكذلك إن احتاجت هي للخروج من بيتها غضّ الرجل عنها بصره. والمرأة بمقتضى الأحكام الشرعية قليلة الخروج مـن بيتها؛ فلا يمثل غض الرجل من بصره عن المرأة حرجاً ومشـقة في الاحتراز منه، بينما الأصل في الرجل الخروج والكدح والضرب في الأرض، ففي غض المرأة من نظرها عن الرجل حرج ومشـقة؛ لكثرة خروجه ووجوده في الطرقات. لذلك كان الأصل بالنسـبة لها ـ لدفع هذا الحرج والمشـقة ـ القرارَ في البيت، فلا تخرج منه إلا لحاجة مشـروعة، مع مراعاة ضوابط الخروج من التسـتر، وعدم مزاحمة الرجال أو الاختلاط بهم والنظر إليهم.

٤ ـ كما أمر الله ـ تعالى ـ ألا يكون تعامل الرجل الأجنبي مع المرأة إلا من وراء حجـاب، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وأمر المرأة أن تسـتر نفسـها عند الخروج، وأن تدنـي عليها من جلبابها كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. فإذا احتاج الرجل الحـديث إلـى المـرأة في حـاجة تَعرض لـه؛ فلا بد أن يكون ذلك من وراء حجاب. وكيف يمكن لشـخص أن يكون ولي أمر يدير بلداً من وراء حجاب فلا يقابل وزراءه، أو مديريه، أو قادة الجيش والشُّـرَط، أو القضاة إلا من وراء حجاب؟ أيمكن أن يستقيم هذا؟

وإذا كان هذا غير ممكن فعـلاً ـ وهو الواقع ـ فهذا مما يبـين أن كون المرأة ولي أمر لا يكـون إلا بمخالفة النصوص العديدة التي جاءت في شأن المرأة.

وأنت إذا تدبرت الآيـات كلها التي جاءت في كتاب ربنا في شـأن النساء بمنطوقها ومفهومها ومعناها؛ لا تجد فيها شـيئاً يمكن أن يدل على جواز توليتها الأمر في شريعة الله، بـل الرجل قوام على المرأة وهو مفضل عليها، وعليها أن تقر فـي بيتها، ولا تخرج منه إلا بـإذن زوجها. وإذا كانت هناك حاجة لحديث الرجل إليها فعليها أن تحتجب منه، وأن تتكلم معه بطريقة ليس فيهـا خضوع بالقول وإلانة له، ومثل هذا لا يصلـح أن يكون في ولاية الأمر التـي تحتاج إلى صفات وخصائص هي على الضد من ذلك.

• ومن السنة:

دلت السُّنَّة على مثل ما دل عليه القرآن، فمنعت المرأة من الاختلاط بالرجال أو الخلوة بهم، فقد قال ﷺ: «لا تسـافر المـرأة إلا مع ذي محـرم، ولا يدخل عليهـا رجل إلا ومعها محرم»؛[5] فمنعَ سـفرهن المنفرد أو مع غير المحرم، ونهاهن عن الاختـلاط بالرجال في الطرقات، وقال: «اسـتأخرن؛ فإنـه ليس لَكُـنَّ أن تحققن الطريـق»[6]، أي: تركبن حقَّها وهو وسـطها. كما منع دخول الرجال الأجانب على النساء والخلوة بهن، وقال: «إياكم والدخول على النساء!»[7]، وقال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشـيطان»[8]. وكيف

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠٩٦، ومسلم رقم ٢٧٤٠.
(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٧٤٢.
(٣) أخرجه مسلم رقم ١٤٠٣.
(٤) المنهاج شرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ٢٥٤.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٨٦٢ ، ومسلم رقم ١٣٤١.
(٦) أخرجه أبو داود رقم ٥٢٧٢، وقال الألباني: حسن.
(٧) أخرجه البخاري رقم ٥٢٣٢، ومسلم رقم ٢١٧٢.
(٨) أخرجه الترمذي رقم ٢١٦٥، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

يستقيم تطبيق هذه الأحكام الخاصة بالمرأة مع ولي أمر يريد أن يسوس رعيته ويشاور بعض مستشاريه، وقد يحتاج إلى الخلوة بأحدهم في بعض الأمور الهامة والتي تحتاج إلى المسارَّة بها؟

والذي يظهر من ذلك غاية الظهور أن الالتزام بتلك الأحكام والقيام بمهمات ولاية الأمر في حق المرأة هما أمران متناقضان لا يلتقيان أبداً.

كما دلت النصوص الشرعية على أن المرأة عليها أن تخفض صوتها ولا ترفعه في وجود الرجال، فليس لها أن تؤذن للصلاة أو تقيمها، ولا أن ترفع صوتها في الإهلال بالحج أو العمرة. قال ابن عبد البر: «وأجمع العلماء أن السُّنَّة في المرأة أن لا ترفع صوتها، وإنما عليها أن تُسمِع نفسها»[1]، وقال الجصاص الحنفي في تفسير قوله - تعالى -: ﴿ولا يضربْن بأرجلهنَّ ليعلَم ما يُخفين من زينتهنَّ﴾ [النور: ٣١]: «وفيه دلالة على أن المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الأجانب؛ إذ كان صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها؛ ولذلك كره أصحابنا أذان النساء؛ لأنه يُحتاج فيه إلى رفع الصوت والمرأة منهية عن ذلك». كما أن المرأة عند خطأ الإمام في الصلاة لا تسبِّح كالرجال بل تصفق بيدها. والإسرار بالصوت أو خفضه مما ينافي عمل ولي الأمر؛ فهو محتاج للحديث مع كثير من الناس في مهمات كثيرة في شكل دوري أو يومي بصوت قوي مرات كثيرة، إذ عمله قائم على الأمر والنهي والتوجيه والإرشاد.

وفيما توارد عليه القرآن والسنة وما اتفق عليه جمهور الفقهاء من أن المرأة لا تُنكح نفسها وأنها لا بد لها من ولي في ذلك؛ ما يدل على عدم جواز ولايتها للأمر؛ فإذا كانت الشريعة لم تملِّكها أمرَ نفسها، فكيف تملِّكها أمر عشرات الملايين من الرجال والنساء؟ قال القرطبي - رحمه الله تعالى -: «قد تعاضد الكتاب والسنة على أن لا نكاح إلا بولي، ونقل عن الطبري قوله: في حديث حفصة حين تأيَّمت وعقد عمر عليها النكاح ولم تعقده هي، إبطالُ قول من قال: إن للمرأة البالغة المالكة لنفسها تزويج نفسها وعقد النكاح دون وليها، ولو كان ذلك لها لم يكن رسول الله ﷺ ليدع خطبة حفصة لنفسها إذا كانت أَوْلى بنفسها من أبيها، وخطبها إلى من لا يملك أمرها ولا العقد عليها»[2].

ولو لم يرد في السنة من الأدلة غير ما تقدم لكفى، لكنه يوجد مع ذلك دليل خاص في المسألة؛ فعندما جعل الفُرس ابنة ملكهم ملكة عليهم وبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[3]. وهذا الحديث قد استدل به أهل العلم على عدم جواز أن تكون المرأة ولي أمر، وهو فهم الصحابة ومَنْ بعدَهم من أهل العلم، ولم يفرق أهل العلم في ذلك بين قوم وقوم أو امرأة وامرأة، بل النساء كلهن لا يصلحن لولاية الأمر ولو كانت من خيرة النساء علماً وفقهاً وتقى وورعاً. ولذلك عندما خرجت عائشة - رضي الله تعالى عنها - للإصلاح بين المسلمين في القتال الدائر بين معسكري علي ومعاوية - رضي الله تعالى عنهما - قال أبو بكرة صاحب رسول الله ﷺ: «لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام الجمل، بعدما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم» وذكر هذا الحديث.

وحديث الرسول ﷺ هذا ورد بصيغة العموم التي تعني عدم جواز قصره على حادثة ابنة كسرى؛ إذ لو كان المراد قصرَه عليها لجاء مثلاً بلفظ: «لن يفلحوا»، فيكون ذلك خاصاً بهم؛ فلما عدل عن لفظ وجيز مكوَّن من كلمتين «لن يفلحوا» وهو الذي أوتي جوامع الكلم إلى جملة من ست كلمات «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، واستعمل لفظاً عاماً فقال: «لقوم» يعني: أي قوم، وقال: «امرأة» يعني: أي امرأة؛ كان العموم مراداً؛ فإن لفظي «قوم»، و «امرأة» جاءا نكرتين في سياق النفي، والنكرةُ في سياق النفي تعم، كما يقوله أهل الأصول.

- **الإجماع:**

ليس في قول أحد من أهل العلم الذين يؤخذ بقولهم أنه يجوز للمرأة أن تلي رئاسة الدولة الإسلامية. حتى بعض من نازع في تولي المرأة القضاء أو بعض الوظائف العامة التي تكون المرأة صالحة لها ومؤهلة للقيام بها؛ لم ينازع في عدم جواز ولايتها لرئاسة الدولة. قال الماوردي في وزارة التنفيذ وهي أقل شأناً من وزارة التفويض: «ولا يجوز أن تقوم بذلك امرأة وإن كان خبرها مقبولاً، لما تضمنه معنى الولايات المصروفة عن النساء لقول النبي ﷺ: «ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة»[4]؛ ولأن فيها من طلب الرأي وثبات العزم ما تضعف عنه النساء، ومن الظهور في مباشرة الأمور ما هو عليهن محظور»[5]. وقال القلقشندي: «الفصل الثاني في شروط الإمامة: وقد اعتبر أصحابنا الشافعية - رضي الله عنهم - لصحة عقدها أربعة عشر شرطاً في الإمام: الأول:

(١) التمهيد لابن عبد البر ١٧/٢٤٢

(٢) تفسير القرطبي ٣/٧٣

(٣) أخرجه البخاري رقم ٤٤٢٥

(٤) أخرجه البخاري وغيره واللفظ لأحمد، رقم ٢٠٤٧٤.

(٥) الأحكام السلطانية للماوردي.



الذكـورة، فلا تنعقد إمامة المرأة، واحتجَّ له بما رواه البخاري مـن حديث أبي بكـرة ـ رضي الله عنه ـ أنـه قال: «نفعني الله بكلمة سـمعتها من رسـول الله ﷺ أيام الجمل، بعدما كدت أن ألحق بأصحـاب الجمل فأقاتل معهم» قال: «لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس ملّكوا بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»، زاد الترمذي والنسائي: «فلما قدمت عـائشة البصـرة؛ ذكرتُ قول رسول الله ﷺ فعصمني الله ـ تعالـى ـ به». والمعنـى في ذلك أن الإمام لا يسـتغني عن الاختلاط بالرجال والمشاورة معهم في الأمور، والمرأة ممنوعة من ذلـك؛ ولأن المـرأة ناقصة في أمر نفسـها حتى لا تملك النكاح فلا تُجعل إليها الولاية على غيرها»[1].

وقال الغزالي في بيان شـروط الإمامـة: «الـذكـورية: فلا تنعقـد الإمامة لامرأة وإن اتصفـت بجميع خلال الكمال وصفات الاسـتقلال، وكيف تترشح امرأة لمنصب الإمامة وليس لها منصب القضاء ولا منصب الشهادة في أكثر الحكومات؟»[2].

وقد ذكر هذا الشـرط كثير من أهل العلم، والنقولاتُ عنهم في ذلك كثيرة لا يتسـع المقال لإيرادها جميعاً، وقد حكى الإجماع على ذلك كثير من أهل العلم، فقال ابن حزم: «وجميع فِرَق أهل القبلة ليس منهم أحد يجيز إمامة امرأة»، وقال البغوي: «اتفقوا علـى أن المرأة لا تصلح أن تكون إمامـاً ولا قاضياً؛ لأن الإمام يحتاج إلى الخروج لإقامة أمر الجهاد والقيام بأمور المسـلمين، والقاضي يحتاج إلى البـروز لفصل الخصومات؛ والمـرأة عورة لا تصلـح للبروز، وتعجز لضعفها عند القيام بأكثر الأمور؛ ولأن المرأة ناقصة والإمامـة والقضاء من كمال الولايات؛ فلا يصلح لها إلا الكامل من الرجال»[3].

وقـال القرطبـي: «وأجمعوا على أن المـرأة لا يجوز أن تكـون إماماً وإن اختلفوا في جـواز كونها قاضية فيما تجوز شهادتها فيه»[4]، وقال الشنقيطي في أضواء البيان: «الثاني من شـروط الإمام الأعظم: كونُه ذكـراً، ولا خلاف في ذلك بـين العلماء، ويـدل له ما ثبت في صحيـح البخاري وغيره مـن حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ أن النَّبي ﷺ: لما بلغه أن فارساً ملّكوا ابنة كسـرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امـرأة »[5]. ويقول د. محمد بلتاجي حسـن ـ رحمه الله ـ: «اتفق العلماء في عصورهم المتتابعة على أن رئاسـة الدولة الإسلامية مخصوصة بالرجل دون المرأة»[6]. وهذه النقولات يوافقها ما درج عليه المسلمون زمن رسول ﷺ وزمن العصور المفضلـة بعده وما تلاها من عصور علـى عدم تولية المرأة؛ فقد وُجدت أفضل النسـاء بعد رسول الله ﷺ وهن أزواجه والصحابيات فما تطلعت منهن واحدة لذلك الأمر، ولا جرى على لسـان أحد من الصحابة إمـكان توليتهن، مع إقرارهم بفضلهن وعلمهن وجَوْدة رأيهن.

• شبهة واعتراض:

لا يعني عدم جواز تولية النساء التقليل من شأنها أو ازدراءها كما يروِّج لذلـك العلمانيون وأضرابهم، وإنما هو من قبيل توزيع التخصصات وتكليف كل امرئ بما هو أنسب له وأليق به.

وكان الـذي ينبغـي صـدوره ممن يزعمـون تقدير التخصصـات وتقديم المتخصص في فـن أو علم على غير المتخصص فيه، ووضع الشخص المناسب في المكان المناسب له؛ أن يُقِروا بذلك ويقبلوه حتى يكونوا منطقيين مع أنفسهم؛ لأن هذا الحكم ليس مـن تصورات الرجال ورغباتهم، وإنما هو ما دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة وأرشدت إليه، وربُّ العباد وخالقهم هو أعلم بهم، وليسـت بينه ـ سبحانه ـ وبين الناس نسب حتى يميّز به بعضهم عن بعض، إنما ميزهم بما خلقهم له وطلبه منهم، سبحانه هو الواحد القهار.

ومـن غريب ما يقف عليه المرء مـن كلام المخالفين أن يزعم بعضهم أن حديث: «لـن يفلح قوم ...» هو واقعة عين خاصة بأهل فارس ولا يتعـدى الحكم غيرهم. وهذا القول لا تدل عليه لغة ولا جاء به نقل؛ فأما النقل فإن هذا الحمل للحديث لم يقل به أحد من أهل العلم على مدى قرون عديدة من قرون الإسـلام، فالقول به مخالف لإجماع أهل العلم في تفسـير ذلك الحديث. وأما قواعد اللغة؛ فإنها تأبى أن يكون الحديث خاصـاً بواقعة معينة؛ فإن ألفاظه التي جاء بها هي من ألفاظ العموم، وما كان مخالفاً لقواعد اللغة ولفهم العلماء السابقين فلا يجوز قبوله ولا الالتفات إليه؛ ولا كرامة.

ولولي الأمر صفات أخرى يجـب أن تتحقق فيه، وليس المراد من المقال ذكر الصفـات جميعها، وإنما المقصود الرد على مـن يحاول أن يغير في أحكام الشـريعة لتوافق أهواء ورغبات الكارهين لدين الله. قال الله ـ تعالى ـ لرسـوله ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ – ١٩].

---

(١) مآثر الإنافة للقلقشندي، ١/١٦

(٢) فضائح الباطنية، ص٨٠

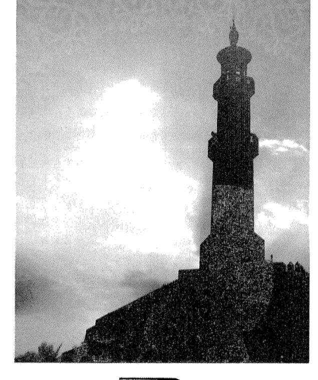
(٣) شرح السنة /٧٧. وكأنه لم يعتد بخلاف من خالف في ولاية القضاء، فجعله كالقول الشاذ الذي لا يُخرم به الاتفاق.

(٤) تفسير القرطبي، /٢٧٠

(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، ١/٢٧

(٦) مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ص٢٤٥





مداراة الأعداء

أسلوب نبوي غُفل عنه

الأمين الحاج محمد أحمد(*)

حاجة الناس عامة وأتباع الرسل خاصة إلى المداراة لا تدانيها حاجة، فهي من أخلاق المؤمنين الصالحين، ومن أقوى أسباب الألفة بين المسلمين، وأنجح وسيلة لدفع شر أعداء الملة والدين.

فالمرء مطلوب منه مداراة الأعداء والأصدقاء على حد سواء.

الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وظيفة الأنبياء والرسل وأتباعهم، لذا لا بد لأتباع الرسل من سلوك سبيلهم، واقتفاء نهجهم في الدعوة، فإذا احتاج الرسل والأنبياء إلى سلوك سبيل المداراة مع أعدائهم فمن باب أَوْلى، وبالأحرى أتباعهم، فها هو شعيب ـ عليه السلام ـ يداري ويلاطف قومه قائلاً: ﴿ ... يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٦].

وإبراهيم أبو الأنبياء ـ عليه السلام ـ عندما قال له أبوه: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦]، قال: ﴿ .. سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧].

وقال الله ـ عز وجل ـ موصياً موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ عندما أرسلهما إلى الطاغية فرعون: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

وعلى هذا المنهاج سار رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام والسلف الصالح، فدفعوا بذلك كثيراً من الشرور، ونالوا مقصودهم بأقل مجهود، وفازوا برضى الله ـ عز وجل ـ وحازوا ثوابه، وكُفُوا مؤونة أعدائهم، واتقوا مكرهم، وتخلصوا من لَجاجهم: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

فما للخَلَف عن الصراط ناكبون، ولمنهج رسولهم وسلفهم مجانبون؟!

وبعد: فهذا بحث عن المداراة: عن معناها ودليلها، وعن الفرق بينها وبين المداهنة، وعمن تجب مداراتهم، وعن أهميتها وحاجة الدعاة إليها في هذا العصر أكثر من ذي قبل، وما إلى ذلك.

• تعريف المداراة:

قال ابن منظور في لسان العرب: المداراة في حسن الخُلُق والمعاشرة؛ فإن ابن الأحمر يقول فيه: إنه يُهمَز ولا يهمز



(*) رئيس الرابطة الشرعية للعلماء والدعاة بالسودان.

يقال: دارأته مدارأة وداريته إذا اتقيته ولاينته[1].

قال ابن بطال: المداراة خفض الجناح للناس، ولين الكلام، وترك الإغلاظ لهم في القول. وقال ابن حجر: الدفع برفق[2].

• أدلة مشروعيتها:

- من الكتاب:

قوله - تعالى -: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وقوله على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وقوله: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

- من السنة:

عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّا نكشِّر في وجوه قوم وإنَّ قلوبنا لتلعنهم»[3].

وعن السائب - رضي الله عنه - قال: أتيت النبي ﷺ، فجعلوا يثنون عليَّ ويذكرونني[4]، فقال رسول الله ﷺ: «أنا أعلمكم به»، قلت: صدق - بأبي وأمي - كنت شريكي، كنت لا تداري ولا تماري[5].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مداراة الناس صدقة»[6].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[7].

- من الآثار:

أما الآثار التي وردت في فضل المداراة وحاجة الناس إليها مع الأعداء والأصدقاء فكثيرة، ولكن نذكر منها ما تيسر[8]:

قال أبو الدرداء لأم الدرداء - رضي الله عنهما -: «إذا غضبتُ فرضِّني، وإذا غضبتِ رضَّيتك، فإذا لم نكن هكذا ما أسرع ما نفترق».

لو سلك الأزواج هذا السلوك لما افترق زوجان، ولتماسكت الأسر، وحلَّ الوئام مكان الخصام.

وقال معاوية - رضي الله عنه -: «لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت؛ قيل: وكيف؟ قال: لأنهم إن مدوها خلّيتها، وإن خلَّوْا مددتها».

وقال الحسن البصري - رحمه الله -: «كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول: هي العقل كله».

وقال محمد بن الحنفية - رحمه الله -: «ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً، حتى يجعل اللهُ له فرجاً»، أو قال: «مخرجاً».

وقال الشافعي - رحمه الله -:

لما عفوتُ ولم أحقد على أحدٍ
أرحت نفسيَ من همِّ العداواتِ
إني أحيِّي عدوي عند رؤيته
لأدفع الشر عني بالتحياتِ
وأُظهِرُ البِشْرَ للإنسان أُبغضه
كأنما قد حشا قلبي محباتِ
الناس داء، وداء الناس قربُهُمُ
وفي اعتزالِهُمُ قطعُ الموداتِ

وقال ابن حبان - رحمه الله -: «من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يُدرك، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بداً، وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها، واستقباح أشياء كان يستحسنها، ما لم يكن إثماً؛ فإن ذلك من المداراة، وما أكثر من دارى فلم يسلم، فكيف توجد السلامة لمن لا يداري؟!».

---

(١) ج ٣، مادة: درأ.

(٢) الفتح: ١٠/ ٥٢٨.

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً ووصله غيره، وقال الحافظ في الفتح ١٠/ ٥٤٤: إما حسن أو صحيح.

(٤) يعني: بخير.

(٥) أبو داود رقم (٤٨٣٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة: ٣/ ٩١٧.

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه: ٢/ ٢١٦، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية ٣/ ٤٥١: وهو حديث حسن، وقال الحافظ في الفتح ١٠/ ٥٤٥: رواه الطبراني في الأوسط وفي سنده يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفوه، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وروي بسند أحسن منه.

(٧) الترمذي رقم (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد: ٢/ ٤٣، وقال محقق الآداب الشرعية: وإسناده صحيح.

(٨) الآداب الشرعية: ٣/ ٢٥٤. وبهجة المجالس، المجلد الثاني من القسم الأول، ص ٦٦١ والصفحات التي تليها. وموسوعة نضرة النعيم: ٨/ ٣٣٦٣ والصفحات التي تليها.

وقال الخطابي - رحمه الله -:

ما دمتَ حياً فدارِ الناسَ كلَّهُمُ
فإنما أنت في دارِ المداراةِ

من يَدْرِ دارى ومن لم يَدْرِ سوف يُرى
عمَّا قليلٍ نديماً للنداماتِ

وقال ابن بطال المالكي - رحمه الله -: (المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي من أقوى أسباب الألفة بينهم، فإن قال بعضهم: إن المداراة هي المداهنة، فهذا غلط؛ لأن المداراة مندوبٌ إليها، والمداهنة محرَّمة).

وقال الماوردي في «أدب الدنيا والدين»[1]: (إن الإنسان إن كان مأموراً بتألُّف الأعداء، ومندوباً إلى مقاربتهم، فإنه لا ينبغي له أن يكون لهم راكناً، وبهم واثقاً، بل يكون منهم على حذر، ومن مكرهم على تحرُّز، فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعاً لا يستحيل، وجِبِلَّة لا تزول، وإنما يستكفي[2] ويستدفع بها أضرارها كالنار يستدفع بالماء إحراقها، ويستفيد به إنضاجها، وإن كانت محرقة متأججة في يابس الحطب لا يقربها إلا تالف، ولا يدنو منها إلا هالك).

وقال بعض العلماء: «رأس المداراة ترك المماراة».

وقال أبو الطيب:

ومِنْ نَكَدِ الدنيا على الحُرِّ أن يرى
عدواً له ما من صداقته بُدُّ

وقد قيل: «اتسعت دار من يداري، وضاقت أسباب من يماري».

• بين المداراة والمداهنة:

المداراة مندوبة مع الناس، سيما مع الأعداء، ومن يُخشى شره أو ضُره، والمداهنة محرمة منهي عنها؛ فما الفرق بينهما؟

الفرق الأساس بينهما أن المداهنة تكون على حساب الدين، والمداراة تكون على أمر دنيوي، فالمداهنة مرادفة للنفاق.

قال ابن بطال المالكي[3]: (والفرق أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، لا سيما إذا احتيج إلى تأليفه ونحو ذلك).

وقال ابن القيم - رحمه الله -: (المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق، أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله، ويتركه على هواه؛ فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق)[4].

• بين المداراة - التقيَّة - عند أهل السنة، والتقيَّة عند الشيعة:

المداراة عند أهل السنة - وهي التَّقِيَّة - هي الرفق والتلطُّف لدفع شر الأعداء، والصبر على هدايتهم وإرشادهم؛ عملاً بقوله - تعالى -: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، بعد أن نهاهم عن موالاة الكافرين رخص لهم في مداراتهم إلى حينٍ في حال الضعف والعجز.

أما التَّقِيَّة[5] عند الرافضة فهي أن يُظهروا ولا سيما للسني ما لا يبطنون؛ فهي دينهم الذي يدينون به وعقيدتهم التي عليها يعتمدون، وبسبب ذلك استجازوا الكذب على أهل السنة وعلى أئمتهم من قبل، حيث زعم الكليني أن أبا عبد الله - جعفر الصادق - قال: (تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية في كل شيء إلا في النبيذ والمسح على الخفين).

وينسب الشيعة لبعض آل البيت - كذباً -: (من صلى وراء سني تقية فكأنما صلى وراء نبي).

لقد فسر الشيعة جُلَّ تصرفات أئمتهم على ضوء هذه الفِرْية؛ فسكوت عليٍّ مثلاً على أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم جميعاً - ومبايعته لهم تقية، ومصالحة الحسن لمعاوية - رضي الله عنهما - كان تقية، مما جعل المستشرق المجري «جولد زيهر» يسخر منهم قائلاً: (من اليسير أن تتصور أي مدرسة للمخاتلة والغدر تنطوي عليها تعليم مبدأ التقية الذي أصبح ركناً من أركان المذهب الشيعي)[6].

---

(١) ص ٢٢٣.

(٢) من قولهم «كفأ القِدْر» أي: غطاه.

(٣) الفتح: ١٠/ ٥٢٨-٥٢٩.

(٤) الروح لابن القيم، ص ٢٠٨.

(٥) انظر: ضحى الإسلام لأحمد أمين: ٣/ ٢٤٧-٢٤٩، ومنهاج السنة لابن تيمية: ١/ ١٣٠، بتحقيق: محمد رشاد سالم.

(٦) منهاج السنة نقلاً عن كتاب العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٨١.

ومما يدل على تمكُّن هذه العقيدة عند أئمة الشيعة وعامتهم ما أكده الخميني من أن التقية أمر عَقَدي، حيث قال: (إن كل من له أقل قدر من التعقُّل يدرك أن حكم التقية من أحكام الإله المؤكدة، فقد جاء أنَّ من لا تقية له لا دين له)[1].

• من ينبغي مداراتهم:

المداراة مندوب إليها، وتستحب مع جميع الخلق، سيما مع من يلي:

١ ـ الكافر.

٢ ـ الحاكم الجبار المتسلط.

٣ ـ المؤلفة قلوبهم.

٤ ـ الزنديق والمبتدع المتبوع.

٥ ـ المقلد المتعصب.

٦ ـ العالم للاستفادة من علمه.

٧ ـ الصَّديق.

٨ ـ العدو.

٩ ـ الزوج.

١٠ ـ المريض.

١١ ـ الجاهل.

قال القاضي أبو يوسف ـ رحمه الله ـ: (خمسة يجب على الناس مداراتهم: الملك المتسلط، والقاضي المتأول، والمريض، والمرأة، والعالم ليقبس من علمه)[2]، وقد استحسن ذلك الإمام أحمد منه.

• نماذج من مداراة الرسل وأتباعهم للأعداء من الكفار ومن يُخشى شرهم:

لقد سلك الرسل والأنبياء ـ عليهم السلام ـ هذا المسلك مع أعدائهم، ودفعوا به كثيراً من الشرور عن أنفسهم وعن أتباعهم، سيما في بدايات أمر دعوتهم.

بل إن الله ـ عز وجل ـ لم يأذن لنبيه محمد ﷺ في جهاد الدفع إلا بعد أن قويت شوكة المسلمين وقامت دولتهم، وما الأمر بعدم الجهر بالدعوة في السنوات الثلاث الأولى من البعثة إلا لكفِّ الأذى ودفع الشر ومداراة حزب الشيطان، وإلا فإنه لو جهر بدعوته من أول يوم لقضي عليها، ولكُبِتَتْ في مهدها؛ فسبحان من شرع المداراة لمدافعة شر الأعداء، وصلى الله على رسولنا الذي أنزل فيه: ﴿ومن أحسَنُ قولا ممن دعا إلى الله وعملَ صالحا وقال إنَّني من المسلمين﴾ [فصلت: ٣٣].

سنشير إلى بعض النماذج من مداراة الرسل وأتباعهم الأعداءَ؛ درءاً لشرهم، ورغبة في هدايتهم، وحفاظاً على أتباعهم، لعل الله ينفع بها في هذا العصر؛ عصر الغربة عن الإسلام: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»[3]، وتذكيراً وتنبيهاً لأمر مهم وقاعدة أساسية: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

أ ـ نبينا محمد ﷺ:

كانت المداراة السِّمَة المميزة لسلوك نبينا محمد ﷺ مع أعداء الدعوة المتربصين بها الدوائر من اليهود، والمنافقين، والحمقى من المشركين، والمؤلَّفة قلوبهم، وأجلاف الأعراب، سيما في أول الأمر؛ ويدل على ذلك:

١ ـ عدم قتله ابن الصياد وقد ادعى النبوة؛ خوفاً من أن يثير على أتباعه شر اليهود.

٢ ـ عدم قتله إمام الكفر والنفاق عبدَ الله بنَ أُبَيِّ بنِ سلول وتلطُّفه به؛ حتى لا يثير عليه قومه وعشيرته.

٣ ـ حبه موافقة أهل الكتاب عندما هاجر إلى المدينة؛ ظناً منه أنهم أقرب إليه من المشركين وتألُّفاً لهم.

٤ ـ عدم قتله مَنْ سحرَه ـ اليهودي لبيد بن الأعصم ـ واكتفى باستخراج السحر وغسله.

٥ ـ عدم قتله اليهودية زينب أخت مرحب التي قدمت له الشاة المسمومة بخيبر وركزت السم في كتفها عندما علمت أنه يفضِّل من الشاة الكتف.

٦ ـ عدم إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد أن عزم عليه؛ تألفاً لقريش ورحمة بهم حتى لا يظنوا به ظن السوء، فقال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: «يا عائشة! لولا أن قومك حديثو عهد بشِرْك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين: باباً شرقياً وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر؛ فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة[4]».

٧ ـ إعطاؤه المؤلَّفة قلوبهم في غزوة حُنين وغيرها لكل واحد منهم مائة من الإبل؛ تألفاً لهم وحرصاً على أن يدخل الإيمان في قلوبهم، بل أعطى صفوان بن أمية وادياً من الإبل

١) كشف الأسرار للخميني، ص ١٤٨.

٢) الآداب الشرعية: ٢/ ٤٥٩.

(٣) قال في مجمع الزوائد: ٧/ ٢٨٠: رواه أحمد، والبزار، وأبو يعلى، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح.

(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث ١٣٣٣)

ووادياً من الغنم حتى أسلم وحسن إسلامه ودعا قومه إلى الإسلام قائلاً: إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر؛ بعد أن قال: جئتكم من عند خير الناس.

٨ ـ تحرُّجه من زواج زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ بعد أن طلقها ابنه بالتبنّي زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ خشية أن يتحدث الناس أن محمداً تزوج زوجة ابنه بالتبنّي، ولكنَّ ربه أمره بذلك إبطالاً لهذه العادة.

٩ ـ أمره ﷺ بالصبر على أمراء الجور وبالصلاة خلفهم وإن أخَّروها.

وأدلة كل ذلك صحيحة ومتوفرة.

١٠ ـ تبسُّمه وانبساطه في وجه عيينة بن حصن؛ اتقاء شره وخشية أن يؤلب عليه قومه وعشيرته، بعد قوله: «ائذنوا له! بئس أخو العشيرة»، مبرراً ذلك بقوله: «إنا نهشُّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم».

خرَّج البخاري في صحيحه[1] عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أخبرته أنه[2] استأذن فقال ﷺ: «ائذنوا له؛ فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة»، فلما دخل ألانَ له الكلام، فقلت له: يا رسول الله! قلتَ ما قلتَ، ثم ألنت له في القول؟ فقال: «يا عائشة! إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه».

١١ ـ خصَّ مخرمة والد المِسْوَر بقباء؛ لحِدَّة في لسانه: خرَّج البخاري في صحيحه[3] عن ابن أبي مليكة: أن النبي ﷺ أهديت له أقبية[4] من ديباج مزررة بالذهب، فقسمها في أناس من أصحابه، وعزل منها واحدة لمخرمة، فلما جاء قال: «خبأت هذا لك». قال أيوب: وكان في خُلُقه شيء.

قال الحافظ ابن حجر معلقاً على هذين الحديثين ومعللاً مداراته ﷺ لهما: (إنما قيل في مخرمة ما قيل لما كان في خُلُقه من الشدة، فكان لذلك في لسانه بذاءة، وأما عيينة فكان إسلامه ضعيفاً، وكان مع ذلك أهوج فكان مطاعاً في قومه)[5].

(١) البخاري، رقم (٦١٣١).
(٢) أي: عيينة بن حصن.
(٣) رقم (٦١٣٢).
(٤) جمع قباء من حرير.
(٥) الفتح: ١/ ٥٢٩.

هذا قليل من كثير، إذ لم يكن هدفنا الإحاطة بكل من داراهم الرسول ﷺ، ولكن قصدنا الإشارة والتنبيه إلى ذلك.

ب ـ إبراهيم، عليه السلام:

تتجلى مداراة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الأعداءَ في ثلاثة أمور، هي:

١ ـ قوله لقومه: ﴿إني سقيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩].

٢ ـ وقوله لقومه كذلك: ﴿قَالَ بل فعلَهُ كبيرُهُم هذا﴾ [الأنبياء: ٦٣].

٣ ـ وقوله لطاغية مصر عندما أراد أن يأخذ زوجه سارة: «إنها أختي».

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب[6] إبراهيم النبي ـ عليه السلام ـ قط إلا ثلاث كذبات: ثِنتين في ذات الله، قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وواحدة في شأن سارة[7]، فإنه قدم أرض جَبَّار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إنْ يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك...» الحديث.

ج ـ شعيب، عليه السلام:

وقد سبق ما قاله شعيب ـ عليه السلام ـ مداراة لقومه: ﴿ومَا أُرِيدُ أن أُخالِفَكُم إلى ما أنهاكُم عنهُ إن أُرِيدُ إلاَّ الإصلاح ما استطعت﴾ [هود: ٨٨].

د ـ مداراة بعض الصحابة بعضَ أئمة الجور بالصلاة خلفهم:

كان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يصلي خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكذلك صلى أنس بن مالك وعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ خلف الحجاج بن يوسف، مع فضلهم وسابقتهم، وتفاوت ما بين هؤلاء وبينهم.

هـ ـ مداراة بعض أئمة أهل السنة أئمةَ أهل البدع في مسألة خَلْق القرآن[8]:

لقد دارى وورَّى بعض أئمة أهل السنة أمثال يحيى ابن معين وعلي بن المديني وغيرهما في فتنة خلق القرآن التي ابتدعها أهل الأهواء من المعتزلة وهما: أحمد بن دؤاد

(٦) لقد عرَّض إبراهيم. ويطلق الكذب على التعريض مجازاً.
(٧) وهي في ذات الله.
(٨) انظر: البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، المجلد ٥ ج ١/ ٣ ٣-٣٤٢.

وبشـــر المريســـي ـ عليهما من الله ما يستحقانه ـ وغررا بها بعـــض خلفاء بني العباس: المأمون، والمعتصم، والواثق، وثبت في ذلك من ثبت من أمثـــال: الإمام أحمد، وأحمد بن نصر الخزاعي، والبويطي تلميذ الإمام الشـــافعي، وغيرهم كثير، انتصاراً لمذهب أهل الســـنة ولعقيدة أهل الإسلام، حتى رفع الله الفتنة على يد الخليفة العباســـي المتوكل ـ رحمه الله ـ كما ذكر ذلك مؤرخو الإسلام: الطبري، وابن كثير، والذهبي، وغيرهم.

و ـ مـداراة بعـض العلماء والفقهـاء الذين خرجوا مع ابن الأشعث على الحجاج:

قال ابن كثير: (قال ابن جرير: ولما قدمت الأسارى على الحجـــاج قتل أكثرهم وعفـــا عـــن بعضهم، وقد كان الحجاج يـــوم ظهر على ابن الأشـــعث نادى مناديه فـــي الناس: من رجع فهو آمن، ومن لحق بمســـلم بـــن قتيبة بالري فهو آمن، فلحق بمســـلم خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث، فأمنهم الحجاج.

إلى أن قـــال: وكان الشـــعبي من جملـــة من صار إلى مســـلم ابن قتيبة، فذكره الحجاج يومـــاً، فقيل له: إنه سار إلى مســـلم ابـــن قتيبـة، فكتب إلـى مســـلم أن ابعث إليَّ بالشعبي.

قال الشـــعبي: فلما دخلت عليه سلمت عليه بالإمرة، ثم قلت: أيها الأمير! إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم اللـه! لا أقـــول في هـــذا المقـــام إلا الحق كائنـــاً في ذلك ما كان، وقـــد والله تمردنا عليك، وخرجنـــا وجهدنـــا كل الجهد فما ألونا، فمـــا كنا بالأقوياء الفجرة، ولا بالأتقياء البررة، وقد نصرك الله علينا، وأظفرك بنا، فإن ســـطوتنا فبذنوبنا وما جرَّت إليه أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد ذلك فالحجة علينا.

فقال الحجاج: أنت والله يا شعبي أحب إليَّ ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلتُ ولا شهدتُ، قد أمِنْتَ عندنا يا شعبي!

قال: فانصرفت، فمشـــيت قليلاً، فقال: هلمَّ يا شعبي! قال: فوجل لذلك قلبي، ثم ذكرت قوله: قد أمنت يا شـــعبي! فاطمأنت نفســـي. قال: كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي؟ قـــال: وكان لي مُكرماً قبل الخـــروج عليه، فقلت: أصلح الله الأمير، قد اكتحلتُ بعدك الســـهرَ، واســـتوعرتُ الســـهلَ، واستوخمتُ الجناب، واستخلصتُ الخوف، واستحليتُ الهم، وفقدتُ صالح الإخـــوان، ولم أجد من الأميـــر خَلَفاً. قال: انصرف يا شعبي! فانصرفت)[1].

• الخلاصة:

الذي يخالط الناس ويصبر علـــى أذاهم خير من الذي يعتزلهم ويعتزل تعليمهم وأمرهم ونهيهم كما أخبر الصادق، ولا بد لمن يخالط الناس أن يداريهم ليدفع شـــرهم ويتمكن من هدايتهم؛ فلولا مداراة الرســـول ﷺ الأعداءَ من اليهود والمنافقين، وصبره على الأعراب الغلاظ الجفاة؛ لما تمكن من نشر دعوته، وتأمين أصحابه، سيما في بداية أمره، ولهذا كان ينهاهم عن مواجهة الأعداء، ويأمرهم بالصبر والاحتســـاب، ويذكرهـــم بما لاقاه أتباع الرســـل من قبـــل، ويحذرهم من الاستعجال، وينهاهم عن التهور والارتجال.

عـــن خباب بـــن الأرت ـ رضي الله عنه ـ قال: شـــكونا إلى رســـول الله ﷺ وهو متوســـد بردة له فـــي ظل الكعبة، قلنا: ألا تســـتنصر لنا، ألا تدعو الله لنـــا! قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر في الأرض فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشـــار، فيوضع على رأسه، فيُشَق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشـــاط الحـــديد مـــا دون لحمه من عظـــم أو عصـــب، وما يصده ذلك عـــن ديـنـــه، واللـه ليتمَّـنَّ الله هذا الأمر حتى يســـير الراكب مـــن صنعاء إلى حضـرموت لا يخـــاف إلا الـلـه ـ عـــز وجـل ـ أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[2].

لم يتمكن الكفار من الوصول إلى ما أرادوا إلا بالتخطيط والتدبيـــر، وبالنَّفَـــس الطويل، وبوضع الخطـــط ومرحلتها، وباستغلال الفرص وانتهازها.

وأخيـــراً: ينبغي على المـــرء أن يؤمن بالله ثم يســـتقيم على الصـــراط المســـتقيم، وأن يحذر الركون إلى أســـلوب التنازلات والمساومات، وأن يعمل لإعلاء كلمة الدين والتمكين للمسلمين، وليس عليه إدراك النجاح: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

والله الموفق للخيرات، وصلـــى الله على محمد الداعي إلى جميع المكرمات، وعلـــى آله وأصحابه ومن والاهم حتى الممات.

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، مجلد ٥ ج٩/ ٤٩-٥٠.

(٢) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، للزبيدي، رقم (٥٠٨).



حديث النفس بالغزو

إبراهيم بن صالح الدحيم
eedd@gawab.com

حديثي اليوم لا تجده في مسند الجبناء، ولا في معجم القاعدين، ولا في صحف المنافقين. إنه حديث رواه الثقات الأثبات، وسطَّرته يراع أهل الشجاعة والثبات، وضمّته بين جنباتها كتب الصحاح، حديث أخرجه الإمام مسلم عن محمد ابن عبد الرحمن بن سهم الأنطاكي قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك عن وُهَيب المكي عن عمر بن محمد بن المنكدر عن سُمَيٍّ عن أبي صالح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغزُ ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق»[1].

وإذا كان الحديث إلى النفس بالجهاد والغزو لا يعني المجازفة والتهور واستجلاب البلاء واستباق الخطوات؛ فإنه لا يعني أبداً إمرار الحديث على النفس كمر السحاب مرة في العمر؟ وربما كان ذلك في المنام لا اليقظة؛ ثم يركن إلى الدنيا وملذاتها لينسى حديث النفس عند أول غمسة فيها.

إن حديث النفس بالغزو - الذي ينجِّي صاحبه من النفاق - يعني أموراً عملية ودلائل حالية تدل عليه، تبقى معها النفس في حالة من التأهب واليقظة والتذكر الدائم، مع استعداد تظهر مقدماته للبذل والتضحية متى لَحِمَ السيف بالقنا، وشبَّت نار الملحمة، واشتعل وطيس المعركة. يقول أحد الدعاة - رحمه الله -: (أستطيع أن أتصور المجاهد: شخصاً قد أعد عُدَّته، وأخذ أهبَّته، وملك عليه الفكرُ فيما هو فيه نواصي نفسه وجوانب قلبه؛ فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبداً، إن دعي أجاب، أو نودي لبَّى، غُدوُّه ورواحه وحديثه وكلامه وجِدُّه ولعبه لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له). ويقول: (المجاهد الذي ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه، ويقضي وقته لاهياً لاعباً عابثاً؛ فهيهات أن يكون من الفائزين أو يُكتَب في عِداد المجاهدين)[2].

والدعاوى والأماني الزائفة التي لم تُبنَ على أساس ثابت ولم يسبق لها إعداد كافٍ؛ تتبخر يوم تغلي القدور. ويوم تشب نار الحرب تخف أقدام اللاهين اللاعبين للهرب لا للإقدام. (إن الاستعمار لا يكترث بالمسلم الذي يعتبر العبادة «عادة»، ويكتفي بأداء العبادات وتلاوة الأوراد، ثم ينصرف إلى أهله ليأكل وينام، ولا يغزو ولا يحدث نفسه بالغزو ولا يهمه أمر المسلمين؛ فهذا النوع من المسلمين يهادن الاستعمار ويهادنه الاستعمار، ولا يشكل خطراً على المستعمرين)[3].

لقد جاء بنو إسرائيل إلى نبيهم وقد خرجوا في مظاهرة حاشدة، وارتفعت منهم الأصوات بالتنديدات شديدة اللهجة، مطالبين بالجهاد ومدافعة الظلم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فأجابهم نبيهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة: ٢٤٦] فجاء الرد منهم تملؤه الحرقة ويشعله الألم: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]؟ لقد أخرجتهم الحماسة الثائرة، والعواطف الجياشة التي لم تخضع يوماً ما لاختبار، ولم تكن نتاج تربية جادة؛ فخرجت نبرات الصوت المنددة غير المتناغمة مع نبضات القلب المتردد وخلجات الضمير الوجل: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، أين الحماسة؟ أين الأصوات الثائرة والخطابات النارية؟ لقد ذهبت كلها أدراج الرياح حين لم يكن لها رصيد يدعمها في الداخل. ومن ضعُف قلبه أعياه المسير، فإنما السير سير القلب؛ كما يوصي الكيلاني - رحمه الله - بذلك فيقول: «يا غلام! فِقْهُ اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة، إنما السير سير القلب»[4]، هذا مع فقه اللسان؛ فكيف بصياح الجاهل دون فقه؟

---

١) مسلم، ١٩١.
٢) الفتور، جاسم الياسين، ص ٤٠ - ٤١
٣) الوسيط في رسالة المسجد العسكرية، محمود شيت خطاب، ص ٥٤
٤) العوائق للراشد، ١٢٣

وحتى نسلَم من النفاق ويصحَّ فينا الحديث إلى النفس بالغزو؛ لا بد من الإعداد المسبق وخوض المعركة الداخلية - معركة التغيير في النفس - قبل أن نخوض معركتنا مع العدو الخارجي. قال بعض الصحابة لمن سأله عن الغزو: (ابدأ بنفسك فاغزُها، وابدأ بنفسك فجاهدها)(1). ونحن هنا نعرض لبعض جوانب الإعداد الذي يجب أن تؤسَّس عليه النفس المؤمنة وتُبنى عليه الأمة المسلمة؛ حتى تكون قادرة على الجهاد ومدافعة الأعداء، وجملة منها قد أشار الله إليها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١ - ١١٢]، ونأتي بشيء من البيان على جوانب الإعداد:

أولاً: التوبة ومفارقة الذنب:

هذه أول صفة لجيل النصر (التَّائِبُونَ). إن النفوس المحمّلة بالذنوب لا تستطيع رفع السلاح ولا الصمود في الساح. لَمَّا وجَّه عمرُ بن الخطاب سعدَ بن أبي وقاص - رضي الله عنهما - إلى الفرس لحقه يودعه ويوصيه، فكان مما قال له: «فإن الله - عز وجل - لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن؛ فإن الله ليس بينه وبين أحد إلا طاعته»(2). وقدم وفد على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بالفتح، فقال: متى لقيتم عدوكم؟ قالوا: أول النهار. قال: فمتى انهزموا؟ قالوا: آخر النهار، فقال: إنا لله! أوَ قام الشرك للإيمان من أول النهار إلى آخره؟ والله إنْ كان هذا إلا عن ذنب أحدثتموه بعدي، أو أحدثته بعدكم(3). ولا يكون ترك الذنب إلا بمجاهدة النفس والهوى ومدافعتها عن شهواتها. يقول ابن القيم - رحمه الله -: وسمعت شيخنا - يعني ابن تيمية - روَّح الله روحه يقول: (جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم، فمن قهر هواه عزّ وساد، ومن قهره هواه ذلَّ وهان وهلك وباد) (4) اهـ.

(1) لطائف المعارف، ص ٤٠٣.

(2) تاريخ الطبري، ٢/ ٣٨٢.

(3) بهجة المجالس، لابن عبد البر، القسم الأول ص٤٦٨.

(4) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، للسفاريني، ٢/ ٣٥٨.

وفي قمع أهواء النفوس اعتزازُها
وفي نَيْلها ما تشتهي ذلُّ سرمدِ

إن الجيل الذي يعبُّ من الشهوات والمنكرات جيلٌ محطَّمٌ من الداخل، (بالله عليك: هل ترى مثل هذا الجيل الذي وقع في الدنس فلم يستطع انتشال نفسه منه؛ هل يستطيع أن يقف أمام العدو للدفاع عن نفسه فضلاً عن قيامه بالدعوة إلى الله وإبلاغ العالم هذا الدين والجهاد لرفع راية الإسلام؟ كلاَّ، وألف كلاَّ!)(5). ورحم الله اللواء الركن محمود شيت خطاب، حين تكلم بصراحة الناصح لأمته وهو يتحدث عن تجربة عقود أمضاها في الجيش؛ فيقول: (إني لأعلم علم اليقين أن القائد الملوَّث جنسياً أو الملوث جيبياً؛ لا يمكن أن يقود إلى النصر. وأعلم علم اليقين أن الجندي الملوث جنسياً أو الملوث جيبياً؛ لا يمكن أن يقاتل كما تقاتل الرجال)(6).

يعجز المنافقون أن يخرجوا للجهاد؛ لأن نفوسهم قد أقعدتها الذنوب والمعاصي، إذ كانوا في الرخاء لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم كسالى، ولا يذكرون الله إلا قليلاً، فتوطّنت نفوسهم على الكسل وارتضت القعود، فكره الله جهادهم، وسلبهم الرغبة في الخروج: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]. وحين تقرأ سورة التوبة بتمعن ترى الأعذار المقعدة عن الغزو، والتي تنبئ عن عدم تحديث النفس بالغزو - أصلاً - عند المنافقين، وضعف ذلك عند بعض المسلمين.

ثانياً: العبادة والعمل الصالح:

بوّب البخاري - رحمه الله - في كتاب الجهاد (باب: عمل صالح قبل القتال)، وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم(7). لقد وصف الله عباده المجاهدين الذين عقد معهم صفقة الشراء بأنهم: ﴿الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، والعبادة والعمل الصالح يصنعان شيئاً عظيماً في صياغة النفس وإعدادها لتحمُّل المشاق والمصاعب؛ فإن الله لما ابتدأ تكليف نبيه ﷺ بالرسالة كان من أول ما أمره به أن يتزود بزاد الليل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ١ - ٤]، لماذا هذا الجهد الكبير في قيام الليل؟ يأتي الجواب من الله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٥ - ٦]. إنه إعداد النبي ﷺ ليتهيأ للدعوة والجهاد وتحمُّل

(5) الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، للقادري، ١/ ٣٠١، نقله عن كتاب: حصوننا مهددة من الداخل، ص ٨١.

(6) بين العقيدة والقيادة، محمود شيت خطاب، ص ٥٥١.

(7) الفتح ٦/ ٣١، ط دار السلام.

الأعباء. إن الذي لا يكون في الصف الأول في الصلاة لن يكون في الصف الأول في الجهاد، والذي لا يصلي الفجر مع الجماعة لن يحمل راية النصر يوم الملحمة، ومن صام جوفه عن الحرام صمدت جوارحه.

مـن قـال: حـيَّ عـلـى الـصـلاةِ

يـقـول: حـيَّ عـلـى الـكـفـاح

إن (الذين تربوا على الذكر الحكيم لم ينهزموا أمام اليهود وأعوانهم في كل زمان. وفي الوقت الذي يتربى فيه العرب على القرآن؛ فحطَّ اليهود أمامهم الذلة. ولكنْ حاربهم الذين استووا في جنديّة الشيطان مع عدوهم؛ فكانت الغلبة للقوة المادية والمكر السياسي أو الحربي)[1].

ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

من صفات المؤمنين الذين اشترى الله نفوسهم أنهم: ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]. إن الفساد إذا ظهر واستشرى في المجتمع أحدث من الآفات ما أقعد عن الصالحات، وأُخِذ عقاباً لذلك الصالح والطالح، ووقع البلاء، وعمت اللعنة، ونُزعت منا الهيبة، ولحقنا الذل والهوان، وصرنا فريسة للذئاب العاوية العادية. قال أبو عبد الرحمن العمري الزاهد: (من ترك الأمر بالمعروف خوف المخلوقين؛ نُزعت منه الهيبة، فلو أمر ولده لاستخف به) [2].

وإذا كان من يمد طرفه إلى الحرام يصاب بالعجز والجبن عن الصدع بالحق وإنكار المنكر عقوبةً له على فعله؛ فكيف به في وجه العدو؟!

مَن مدَّ طَرْفاً لفرْطِ الجهل نحو هوىً

أغضى على الحق يوماً وهو خزيانُ

(وكيف يقف الصف المخلخل الذي يبتعد أفراده عن الله بترك طاعته والولوغ في مستنقع معاصيه، ولا يوجد فيه من يغضب لله؛ فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كيف يقف هذا الصف في وجه عدوه مجاهداً في سبيل ربه؟)[3].

رابعاً: الدعوة والتعليم والتربية الجادة:

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. إن من أعظم ما تُحفَظ به حدود الله تعلُّمَ الدين وتعليمه، والدعوة إليه، والتربية على منهاجه، وإلا غابت معالمه واندرست حدوده. إن الدعوة والتعليم والتربية الجادة هي خط الإمداد الأول للجهاد؛ إذ (إن من أعظم أصول الإصلاح والجهاد التربيةَ الدينية، والاهتمامَ التام والاعتناء الكامل بشباب الأمة؛ فإنهم محل رجائها، وموضع أملها، ومادة قوتها وعزها، وبإصلاح تربيتهم تصلح الأحوال، ويكون المستقبل خيراً مما قبله. فعليهم أن يربوهم تربية عالية، ويبثوا فيهم روح الدين وأخلاقه الجميلة، والحزم والعزم، وجميع مبادئ الرجولة والفتوة والمروءة، وأن يدرّبوهم على الصبر وتحمُّل المشاق الذي يفضي إلى النجاح والمثابرة في كل عمل نافع، ويحذروهم من الجبن والكسل، والسير وراء الطمع والمادة، والانطلاق في المجون والهزل والدَّعة؛ فإن ذلك مدعاة للتأخر الخطير)[4].

إن المناهج الهشة والتربية الرخوة لا يمكن أن تخرج من بين أروقتها شخصيات جادة ذات مواقف قوية، فالحياة المترفة لا تلد إلا الأجِنَّة الرخوة. يقول أفلاطون: «الشدائد تُصلح من النفس بمقدار ما تُفسده من العيش، والترف - أي الترف والرفاهية - يفسد من النفس بمقدار ما يصلح من العيش»[5]. لقد امتنع بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة؛ لأن نفوسهم قد ألفت الذل والهوان، فكتب الله عليهم التيه في الصحراء وحرَّم دخول بيت المقدس (على هذا الجيل منهم؛ حتى تنبت نابتة جديدة، وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل؛ جيل يعتبر بالدرس، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها؛ صلب العود، جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل)[6].

لقد تفطّن نور الدين، ثم من بعده صلاح الدين - رحمهما الله - لضرورة إصلاح التعليم، وتقوية التربية في النفوس، ونقل الأمة من حياة الترف والدعة إلى حياة الجد والعزم والتصميم، فكان لجهودهم المباركة أكبر الأثر في قوة دين الأمة وصحة عقيدتها، حتى كان ذلك بمثابة الإعداد والتهيئة للنصر القادم والفتح المبين، لقد استبدلت مناهج التصوف[7]

---

(١) تربية الإسلام وادعاءات التحرر، عبد الرحمن الدوسري، ص ١٨٨.

(٢) صفحات مضيئة من حياة السابقين، للعلي، ١/٨٣.

(٣) الجهاد في سبيل الله: حقيقته وغايته، للقادري، ١/٣٤٤.

(٤) وجوب التعاون بين المسلمين وموضوع الجهاد الديني، عبد الرحمن السعدي، ص ١٧.

(٥) لا تحزن، د. عائض القرني، ص ١٧١.

(٦) الظلال، ٢/٨٧١.

(٧) لم يكن التصوف الذي اجتاح العالم الإسلامي على موقف واحد من الجهاد ومجابهة المستعمر؛ فإن الطوائف التي تبنت جهاد المستعمر لم تكن قادرة على الدفاع عن الأمة لاختلاط المنهج عندها. أما الطوائف التي مالأت المستعمر ومكّنته من بلاد المسلمين؛ فشيءٌ يندى له الجبين من الإعاقة للجهاد؛ فقد كان شيوخ الطُرق الخائنون في الجزائر - في الوقت الذي ارتفعت فيه رايات الجهاد لمقاومة الاستعمار - يقومون بكتابة عرائض بتوقيعاتهم يملؤونها بالشكر والثناء لفرنسا بوصفهم ممثلين للشعب، حتى قال الحاكم الفرنسي في الجزائر: إن الحكومة الفرنسية تعظِّم زاوية من زوايا الطرق، أكثر من تعظيمها لثكنة جنودها وقوادها، وأن الذي يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا!

انظر لمزيد من التفصيل: كتاب الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين ١٣-١٤ الهجري، لعلي الزهراني، ١/٥٣٧ - ٥٤٦.

(المقعدة) والمواعظ (الباردة) [1] بمناهج تزيد من حرارة الأمة وحركتها؛ فأقيمت المدارس، وانتشرت دروس أهل العلم تغرس في النـاس عقيدة التوحيد الصافية، وارتفع سـوق الدليل، وانزوى التقليد جانباً، وعاد ثوب الاجتهاد للأمة.

واليـوم كم هو اللَّوْث في العلوم والمعارف، وكم لانتشـار الخرافة في البلدان الإسلامية من أثر في ركود سوق الجهاد! وكم هو التقصير في بيان أصول الدين انشغالاً بالجزئيات، حتـى لتجد من أهل العلم من يتجاوز (كتاب الجهاد) إذا مرَّ به بحجة عـدم الحاجة إليه، وأنه من فضـول العلوم حتى يأتي وقته[2]، ونسـي أنه لا يراد من دراسته معرفة أحكامه فحسـب؛ بل يراد مع ذلك بعث الـروح الجهادية في الأمة وتحديث النفس بالغزو على أقل تقدير.

خامساً: الزهد في الدنيا ومتعها:

إن من تعلّقت نفسـه بالدنيا وزخرفها واستحوذت عليه بحديثها؛ عجز عن مفارقتها، وصار أسـيراً لها يصعب عليه الفكاك منها. ولا يصلح للغزو رجلٌ قد تعلقت نفسـه بدنيا. في الصحيح أن نبياً مـن الأنبياء غـزا بقـومـه فقال لهم: (لا يتبعني رجـل مَلك بُضْعَ امرأة وهـو يريد أن يبني بها ولـَّـا يبنِ بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سـقفها، ولا أحد اشـترى غنماً أو خَلِفات وهو ينتظـر ولادها. فغزوا؛ فدنا من القريـة التي يريد وقتَ صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا! فحُبِسـت حتى فتـح الله عليه)[3]. فحين يكـون عند الأمة اسـتعداد للتخلي عن الدنيا وزخارفها وملذاتها، والتضحية بذلك كله في سبيل الله، عندها نكون قادرين على أن نواجه عدونا ونستعيد أمجادنا وعزتنا وتاريخنا.

ولما كانت الدنيا تشكل شيئاً كبيراً عند اليهود كان الموت من أكره الأمور وأشدها عندهم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦].

(١) والتي تجعل اهتمام المسلم محصوراً بما فوق الارض (الجنة) وما تحتها (القبر)، دون أن يكون له شغل بما فوق الارض، لتبقى الخلافة في الارض وكأنها ليس شغلاً للمسلم. وإنما أوتي هؤلاء من نقص الفهم لشمول هذا الدين لجميع جوانب الحياة.

(٢) هذا إن صح التعليل، وإلا فالواقع يشهد انتشار الجهاد في المعمورة، مما يُحتم على أهل العلم والحكمة أن يكون لهم دور في توجيه الجهاد، ونشر ثقافته المستمدة من الكتاب والسنة وتحرير المسائل في ذلك؛ وإلا قام به ناقص العلم قليل الدراية. يقول ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ : كنا نستهون كتاب الجهاد، فكنا نتساءل: أين الجهاد؟ وما حاجتنا في أن نبحث في الجهاد؟ وسبب ذلك أنه لا يوجد جهاد، ثم لمَّا حصل الجهاد في الوقت الأخير عرفنا أننا مفرِّطون، وأنه كان ينبغي أن نعرف أحكام الجهاد تماماً!

شرح العقيدة السفَّارينية، ص ٦٦١، ط مدار الوطن.

(٣) البخاري (٣١٢٤) ومسلم (١٧٤٧).

إن من يعمر قصراً فينشـغل بتزويقه وتجميله ليس كمن يبنـي بيتاً يسـتره ويكنُّه عن حر الشـمس ويحميه من برد الشتاء. وواقع الحال شـاهد على ما نقول؛ فكم رأينا ممن فتَـح الله عليهم في الدنيا انشـغلوا بها عـن جهاد الدعوة والبـلاغ! فالزاهد في الدنيا الآخـذ منها بنصيب هو الذي يتركهـا متى أحْـوَجَ الأمرُ. والزهد لا يعنـي اعتزال الناس والقعـود في البيت، وإنما يعني مزيد الجهد والعمل، وهكذا كان ﷺ؛ فقد كان أزهد الناس، ومع ذلك كان أحرصهم على الدعوة والبر والجهاد. علّق الإمام الذهبي على قول شـقيق البلخي في الزهد، فقال: (وقد ذُكِر عن شـقيق مع انقطاعه وزهده أنه من كبار المجاهدين في سبيل الله، وكذلك فليكن زهد الأولياء)[4].

ومن الزهد في الدنيا أن تبذلها رخيصة في الرخاء؛ فإن الذي يعجز عن ديناره في الرخاء سيعجز عن دمه في الشدة، والذي يعجز عن بذل وقته للدعوة سيعجز عن بذله في ساح الجهاد، (فالشـح يبذر الهلع في القلب بحيث يجعل صاحبه فقير القلب مهما كان عنده من الغنى والثروة) [5]. قال أحمد ابـن خالد الأحول الكاتب: (من لم يقدِر على نفسـه بالبذل لـم يقدِر على عدوه بالقتل)، علّق الذهبي فقال: الشـجاعة والسخاء أَخَوان؛ فمن لم يجُد بماله فلن يجود بنفسه[6].

وحُـب المال كما أنـه يُقعِد عـن الجهاد فإنـه يوقِف اسـتمرار مشـروعه المبارك؛ فحين أكثرَ المسـلمون الغلولَ بعد فتح الأندلس[7] تراجع الفتح الإسـلامي؛ فإنه (من سنة مئة الهجرية حتى أواخر القرن التاسـع عشر وأوائل القرن العشـرين الذي اسـتُعمرت فيه أكثر البلاد العربية، جرت معارك دفاعيـة عدا فتح «صقلية» وفتح «القسـطنطينية» وبعض الأقطار الأوروبية)[8].

لقد هُزم المسـلمون في أُحد لَـمَّا مالت نفوسـهم إلى الغنائم فأنزل الله قوله: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيـدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، كنوعٍ من العتب وبيان سبب الضعف والهزيمة.

والله – تعالى – أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

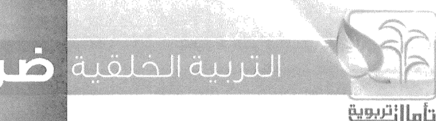
(٤) تاريخ الإسلام وفيات (١٩١–٢٠٠هـ)، ص ٢٢٩.

(٥) تربية الإسلام وادعاءات التحرر، عبد الرحمن الدوسري، ص ٢١٤.

(٦) سير أعلام النبلاء، ١٠/٢٥٦.

(٧) انظر: تاريخ ابن الأثير: أحداث سنة اثنتين وتسعين للهجرة.

(٨) الوسيط في رسالة المسجد العسكرية، محمد شيت خطاب، ص١٤٦.



ضرورة التربية الخلقية

د. محمد بن عبد الله الدويش
dweesh@dweesh.com

مما يندر الخلاف حول أصله أننا نعاني من قصور في ميدان الأخلاق والسلوك في بيئتنا الدعوية؛ والخلاف إنما يتركز في حجم الظاهرة وتفاصيلها وأسبابها.

ويمكن تفسير هذا الخلل من خلال عوامل عدة، لعل من أهمها ما يلي:

- التقسيم والتبويب الاصطلاحي لمجالات العلوم الشرعية إلى: عقائد، وعبادات، وأخلاق، وسلوك؛ أدى إلى أن يأخذ باب الأخلاق والسلوك - جملةً - حيزاً أقل أهمية.

- منهجية التعلم والتفقه، والتي انطلقت من التقسيم التخصصي للعلوم، والاعتناء أكثر بقضايا الخلاف والجدل، مما جعل باب الأخلاق والسلوك عند فئة كبيرة خارج مجال العلم الشرعي؛ فهو من شأن الوعاظ والمذكِّرين ونحوهم، أو مما يقرأ فيه طالب العلم حال فراغه واستجمامه.

- طبيعة الأخلاق والسلوك وأن الأبرز فيها الجانب العملي التطبيقي أكثر من المعرفي، وسبيل بنائها هو القدوة والنموذج وهذا أكثر من المعرفة، ومن ثم حين ينشأ لدى القدوات قصور في السلوك والأخلاق فإن أثره يمتد إلى الأتباع.

- تأثُّر الأخلاق والسلوك بالبيئات والمجتمعات؛ فمن ينشأ في بيئة جافية يكتسب قدراً من الجفاء والغلظة.

- ما استقر لدى كثيرين من أن النبي ﷺ إنما بدأ دعوته في أمور العقيدة، وأنه في الفترة المكية كان لا يعتني إلا بالتوحيد، وأن أمور التشريع والآداب ونحوها إنما جاءت متأخرة.

إن الاصطلاح، ومنهجية التفقه والتعلم، وتقسيم العلوم؛ أمور بشرية لا اعتراض عليها، لكن حين نختار اصطلاحاً أو منهجيةً مَّا فلا بد من الوعي بالآثار الموضوعية لذلك ومعالجتها.

وأما القول بأن دعوة النبي ﷺ إنما كانت قاصرة في مبدئها على أمور التوحيد والعقيدة؛ فهو أمر يحتاج إلى مراجعة.

لقد قال ﷺ حين سأله عمرو بن عبسة - رضي الله عنه - وهو لَـمَّا يَزَل في مكة: بمَ أرسلك الله؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكَسْرِ الأوثان، وأن يُوحَّد اللهُ ولا يُشرَك به شيء»[1].

وحين كان المشركون يُسألون عن دعوته كانوا يجيبون: يأمرنا بالصدقة والصلة. وفي حديث أبي ذر - رضي الله عنه - وهو في مبدأ الدعوة: «رأيته يأمر بمكارم الأخلاق»[2].

بل إنه ﷺ جعل البناء الخُلُقي من مقاصد بعثته: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»[3].

وربط ﷺ الأخلاق بالإيمان في أكثر من حديث، وجعل أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً.

ومن تأمل القرآن المكي وجد العناية بجانب الأخلاق والسلوك، كما في سورة المطففين، وكما في سورتي الإسراء ويوسف وغيرهما.

إن أول خطوة في البناء الخُلُقي هي إعادة النظر في منزلة الأخلاق والسلوك من الدين، وتصحيح المفاهيم الملتبسة التي توحي بأن الأهم هو مسائل الاعتقاد الخبرية ثم لا يضر الإنسان بعد ذلك أن يكون طعّاناً لعَّاناً، لا يَسْلَمُ المسلمون من لسانه ويده، ولا يأمن إخوانه بوائقَه!

إن الدين كُلٌّ متكامل، وهو إنما يؤخذ من نصوص القرآن والسنة؛ فخروج باب الأخلاق والسلوك عن مسمى العلم عند بعضنا، أو أهمية جانب من الجوانب؛ لا يسوِّغ أن يقودنا إلى تجاهل النصوص الشرعية التي تؤكد على هذا الجانب وتربطه بالإيمان، وتتوعد من أخلَّ به.

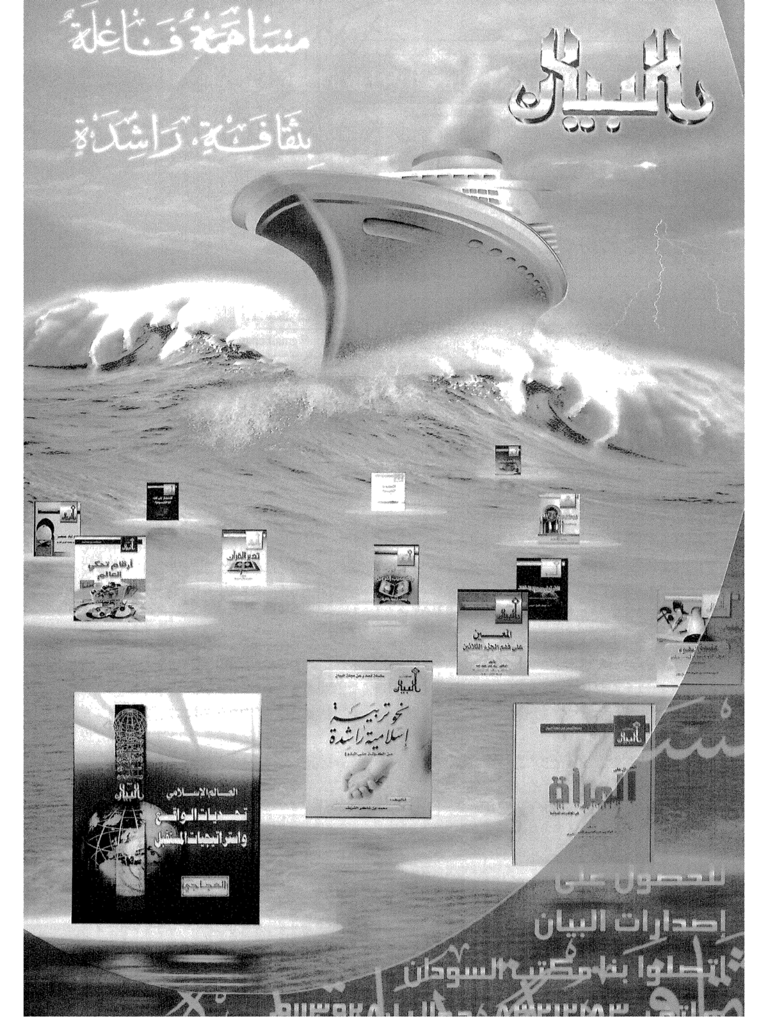
إن الاكتفاء بالتأكيد على الأخلاق وأهميتها بين مناسبة وأخرى، أو تناولها في خطبة جمعة، أو علاج موقفٍ مَّا؛ لن يكون كافياً ما لم تأخذ حقها وحيِّزها من الاهتمام، ووضعها في الموضوع الشرعي دون غلو أو جفاء.

---

(1) أخرجه مسلم (٨٣٢).

(2) أخرجه البخاري (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤).

(3) أخرجه أحمد (٨٧٢٩).


البيان
مساهمة فاعلة
بثقافة راشدة
أرقام تحكي العالم
تدبر القرآن
المعين على فهم الجزء الثلاثين
نحو تربية إسلامية راشدة
المرأة
العالم الإسلامي
تحديات الواقع
واستراتيجيات المستقبل
للحصول على
إصدارات البيان
اتصلوا بنا في مكتب السودان

لماذا هذا الهلع الغربي من الإسلام؟



أ. د. جعفر شيخ إدريس
jsidris@gmail.com

عدد المنتسبين إلى الإسلام أقل بكثير من عدد غير المسلمين، بل هو كما يقولون أقل من عدد المنتسبين إلى النصرانية. وعدد الملتزمين من هؤلاء بدينهم توحيداً وصلاة وصياماً وحجاً وزكاةً أقل بكثير من المنتسبين إليه، والمهتمون من هؤلاء بأمر الدعوة إلى الإسلام ولا سيما في البلاد الغربية إنما هم طائفة قليلة. وقوة المسلمين الاقتصادية والعلمية والقتالية لا تكاد تساوي شيئاً بالنسبة لما عند الغربيين من قوة. وبين المنتسبين إلى الإسلام أعداد كبيرة صارت موالية للغرب فكراً وسياسةً وواقعاً عملياً.

لكن الغرب على الرغم من ذلك يتحدث عن الإسلام وكأنه عدو على الأبواب، ويصفونه بأنه أكبر خطر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. ولذلك تراهم لا يزالون يقومون بالدراسات بعد الدراسات، ويعقدون المؤتمرات عقِب المؤتمرات، ويُصدرون الكتب تِلو الكتب والمجلات تلو المجلات، ويقدمون البرامج المسموعة والمشهودة للدعاية ضد الإسلام وبيان خطر المسلمين.

هل لهذا الهلع من تفسير؟

نعم! إن الحضارات تقوم على دعامتين: دعامة من المعتقدات والقيم التي صارت تسمى الآن بالدعامة الثقافية، ودعامة من المنجزات المادية. وإذا تحطمت المنجزات المادية أو احتلها عدو وبقي الأساس الثقافي؛ فربما استطاعت الحضارة أن تبني نفسها من جديد. وأما إذا ما تحطم الأساس الثقافي فقد تحطمت الحضارة مهما سلِمت منجزاتها المادية.

والغربيون يعلمون أنه ليس في مقدور المسلمين اليوم ولا في نيتهم تحطيمُ الجانب المادي من حضارتهم، لكنهم يخشون على جانبها الثقافي. ولهذا الخوف أسباب كثيرة؛ فهم لا يزالون يذكرون كيف انتشرت جيوش المسلمين في العالم كله بما فيه العالم الغربي حتى وصلت إلى مشارف فرنسا، وما يزال بعضهم من أمثال (برنارد لويس) المعروف بعدائه للإسلام يذكِّر الغربيين بأن للمسلمين ذاكرة تاريخية عجيبة، وأنهم لم ينسوا أبداً ما أصابهم بعد ذلك من هزائم أمام الغربيين. وما يزالون يعترفون بأن للإسلام - حتى باعتباره عقائد ونظماً اجتماعية - ميزةً على ما يعرفون من أديان.

استمع إلى لويس هذا يقول في كتاب له أخير:

«لمدة أكثر من ألف عام؛ قدَّم الإسلام المجموعة الوحيدة من القواعد والمبادئ المقبولة عالمياً لتنظيم الحياة الاجتماعية. وحتى في الفترة التي بلغ فيها النفوذ الأوروبي الغاية في البلاد التي سيطر عليها أو حكمتها القوات الأوروبية الإمبريالية، أو تلك التي ظلت مستقلة؛ فإن الأفكار والاتجاهات الإسلامية السياسية بقيت ذات أثر عميق وشامل»[1].

ثم إنهم بدؤوا يلاحظون أن هذا التأثير الإسلامي على ثقافتهم وقيمهم بدأ يزداد. فماذا يفعلون؟

إنهم في حيرة عظيمة سببها أن مِن أكثر ما يعتزون به في ثقافتهم ويجعلونه معيار فضلها على الثقافات الأخرى؛ هو قضية الحرية التي عمَّقتها الفلسفة الليبرالية: حرية التعبير، والاجتماع، والاعتقاد، والدين، وغير ذلك. فإذا حاربوا الإسلام بأن منعوا المسلمين من حرية التعبير أو حرية التدين؛ كان هذا أمراً متناقضاً مع إحدى مقومات حضارتهم التي يعتزون بها، بل ربما كان هو نفسه سبباً في إعراض بعض أهلها عنها.

إن كونهم يعتقدون أن هذه الحرية من مصلحة مجتمعاتهم أمر لا يتفطن إليه بعض إخواننا؛ فكثيراً ما يقول لي بعض الشباب: إننا لا نسمح لهم بالدعوة إلى دينهم في بعض بلادنا؛ أفليس من حقهم أن يعاملونا بالمثل فيمنعونا من الدعوة إلى الإسلام في بلادهم ومن إنشاء المساجد ومن نشر الكتب؟

فأقول لهم: إنهم لا يسمحون لنا بذلك تفضُّلاً منهم علينا، وإنما يسمحون به لأنهم يعتقدون أن هذه الحرية من مصلحتهم؛ فسَماحهم لنا ليس مبنياً على معاملة بالمثل وإنما

(1) Bernard Lewis, The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror, Random House Trade Paperbacks, New York, 2004, p.13

هو مبني على مبدأ يعتقدونه، أو هكذا يقولون. وأما نحن فلا نرى أن الدعوة إلى الكفر من مصلحة شعوبنا ولذلك لا نسمح بها إن استطعنا، سواء سمحوا هم أم لم يسمحوا.

نرجع إلى موضوعنا لنقول: وأما إذا سمحوا بالدعوة إلى الإسلام حسبما تقتضيه حرية التعبير والتدين؛ فالسماح أيضاً قد يكون خطراً على حضارتهم؛ لأنه ربما أدى إلى اعتناق أعداد منهم للإسلام، أو على الأقل إلى تأثير الإسلام في قيمهم التي يؤمنون بها الآن، وهذا يعني أنهم إن لم يسمحوا فتلك مصيبة، أو سمحوا فالمصيبة أعظم.

فماذا يفعلون إذن؟

هذا بعض ما نراهم يفعلونه الآن:

١ - أن يعاقبوا بصرامة وربما بقسوة شديدة كلَّ من يقع تحت طائلة قوانينهم المطبقة الآن؛ لأنه ليس في هذا خروج على مبادئهم، بل ربما كان رادعاً لآخرين ممن يسمون بالإرهابيين، وربما كان أيضاً من أحسن الوسائل للدعاية ضد الإسلام في داخل بلادهم وخارجها. فالذين يقومون بمثل هذه الأعمال لا يُضعِفون الحضارة الغربية، بل ربما كانوا من حيث لا يشعرون ممن يعطيها سبباً للدفاع عن نفسها دفاعاً مشروعاً. ولذلك فإنه يبدو لي أن أمثال هؤلاء «الإرهابيين» هم من أحب المسلمين إلى الغربيين.

٢ - أن يربطوا بين هؤلاء وبين كل مسلم يُعرَف بنقده للغرب أو قوة استمساكه بدينه؛ حتى ينفر الناس في بلادهم منهم بسبب ما يسمونه «الإجرام بالاقتران». ومما لا شك فيه أن هذا النوع من الدعاية ضد المسلمين قد نجح إلى حد كبير؛ لأنه شوّه صورة المسلم في أذهان عامة المواطنين وجعلهم يخافون منه.

٣ - أن يعيدوا تفسير مبادئهم وقوانينهم ليجدوا فيها مسوِّغاً لعقوبات يفرضونها على المسلمين، أو حقوقاً يمنعونهم منها.

٤ - أن يشرِّعوا قوانين جديدة القصدُ منها محاربة المسلمين والتضييق عليهم، لكنها كثيراً ما تكون متناقضة مع مبادئ الحرية. وما تزال أمثال هذه القوانين تثير جدلاً في الولايات المتحدة لاعتقاد بعضهم بأنه لا مسوِّغ لها، وأن الحكومات إنما تستغل رغبة الناس في الأمن لتسلبهم بعض حرياتهم لأسباب سياسية عارضة.

٥ - من أهم ما أحدثته الرغبة في درء الخطر الإسلامي الرجوعُ إلى ما يسمى بالمجتمع المتجانس. لقد كان الحديث في الغرب قبل ذلك، وبسبب طغيان الليبرالية عن التعددية ولا سيما التعددية الثقافية. لكن الكثيرين منهم بدؤوا الآن يرجعون إلى أفكار قديمة تقول إنه لا يمكن للديمقراطية أن تنجح إلا في مجتمع متجانس في قيمه؛ وبما أن المسلمين ذوو قيم غير موافقة للقيم السائدة في المجتمعات الغربية؛ لذلك كان من الواجب عليهم ليعيشوا في الغرب: إما أن يغيروا من مبادئهم، أو يفسروا الإسلام تفسيراً يتماشى مع الوطن الذي يعيشون فيه، أو يرحلوا عن الغرب.

٦ - كان من أحسن آثار خوفهم من الإسلام أن جعل بعضهم يعيد النظر في حضارتهم ليحاولوا تخليصها من الجوانب التي تضعفها وتجعل الإسلام بديلاً عنها. بعض المتدينين يذكرون أن أهم جوانب الضعف هذه هو انتشار الفحش، لكن مفكرين آخرين يذكرون شيئاً أعم وأخطر، ومن هؤلاء المفكر الأمريكي المشهور (فوكوياما) الذي يقول: «إن مشكلة هجرة المسلمين إلى أوروبا تفرض علينا أن نحدد هويتنا، لكن المشكلة هي أن رجلَ ما بعد الحداثة لم يعد يؤمن بهوية تعتمد على دين أو وطن، بل إن النسبية جعلت الناس - ولا سيما في أوروبا - عاجزين عن أن يتفقوا على شيء مشترك بينهم يقولون إنه يمثل هويتهم».

ثم يقول: «إذا أرادت مجتمعات ما بعد الحداثة أن تتحرك نحو مناقشة جادة للهوية؛ فإن عليهم أن يكشفوا عن تلك الفضائل الإيجابية التي تحدد ما معنى أن تكون عضواً في جماعة أكبر. وإذا لم يستطيعوا فمما لا شك فيه أنه سيسيطر عليهم قوم هم على يقينٍ من هويتهم»(١).

لكن شيئاً من هذه الجهود سواء في البلاد الغربية أو في غيرها التي تحاول أن تطفئ نور الله - تعالى - لن يكتب لها النجاح أبداً إذا ما استمر الدعاة إلى الدين الحق (كتاباً وسنة وتأسِّياً بالقرون الخيرة) في دعوتهم وصبروا عليها؛ ذلك لأن من سُنة الله - تعالى - ألا يضيع مثل هذا العمل هباء، بل لا بد أن يكون له تأثير في كل مكان ينتشر فيه ويُعرف. فإما أن يستجيب له المدعوون فيصلح حالهم، وإما أن يعرضوا عنه ويحاربوه فيعاقبهم ربهم.

قال - تعالى - عن قوم استجابوا: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٧ - ١٤٨].

وقال عن قوم أعرضوا وحاربوا: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت: ١٧ - ١٨].

(١) Francis Fukuyama, Identity, Immigration and Liberal Democracy, Journal of Democracy, April 2006, Vol 17, No. 2.



دعوة إلى التركيز

(٢-٢)

د. عبد الكريم بكار
www.islamtoday.net/bakkar

كل المعارف والفنون والمؤسسات والمهن وكثير من الأشياء تبدأ عامة وشاملة، ثم تتجه نحو التخصص والتركيز. وذلك يعود إلى اتساع دوائر الحياة وتراكم وتضخم المعارف والخبرات، وتكاثر أعداد الناس وتنوع احتياجاتهم، وأسباب أخرى... لكن هذا الميل إلى التفريع مع أنه شيء طبيعي وبدهي؛ إلا أنه في شدته ونوعيته مرتبط بالتقدم الحضاري لكل أمة. وعلى سبيل المثال: فإنك لو ذهبت إلى بعض الدول الفقيرة والمتخلِّفة، فستجد القليل من الأطباء العامِّين، وستجد عدداً محدوداً جداً من الأطباء المتخصصين. أما الأطباء الاستشاريون والممتازون جداً، فقد لا تجد منهم أحداً. ومن هنا يمكن القول: إننا إذا أردنا النهوض بأي جانب من جوانب الحياة فإن علينا أن نوفر له عدداً كبيراً من الباحثين والمهتمين؛ فالشيء في الغالب يرتقي إذا كثر المهتمون والمشتغلون به، ويتراجع ويذبل إذا أعرض الناس عنه.

وهذه بعض الملاحظات في مسألة التركيز:

١ ـ لا بد لمن يريد أن يختار تخصصاً من التخصصات أن يفكِّر ملياً قبل الإقدام على ذلك في مدى حاجة بلاده وجماعته إلى ما يريد أن يكرِّس حياته من أجله، وذلك لأن الحاجة إلى شيء من الأشياء تولِّد طاقة كبيرة محفِّزة على العمل. كما أن المجتمع حين يحتاج حاجة فعليَّة إلى تخصص من التخصصات أو مهارة من المهارات أو مهنة من المهن، يوفر له الوظائف والأموال. وهذا يعني تمكُّن الباحثين والمتخصصين من الاستمرار بعملهم؛ لأنه صار مرتبطاً برزقهم ومعيشتهم، وأعتقد أن هذا المفهوم يشكل أهمية بالغة لنا جميعاً. وقد كان الارتباط بين العلم والرزق واهياً في الماضي، وكان الغالب على طلاب العلم والباحثين في معظم التخصصات هو الفقر والقلة، وقد كانوا يقولون: فلان أدركته حرفة الأدب؛ حيث كانوا ينظرون إلى الاشتغال بالآداب على أنه مظنة للعدم والمسكنة.

ومما يلاحظ في هذا الإطار أن كثيراً من الشباب ركّزوا جهدهم في تخصصات قد تكون جيدة ومفيدة، لكن مجتمعاتهم ليست بحاجة إليها. وقد رأينا مَنْ تخصص في الفيزياء النووية وليس في بلاده أي منشآت أو برامج نووية، وهناك من تخصص في برمجة الألعاب الإلكترونية في إحدى الجامعات الغربية، وحين عاد إلى بلاده لم يجد أي شركة أو مؤسسة متخصصة في ذلك، ونجد من الشباب من تخصص في إدارة تقنية المعلومات وبلده متخلف يحتاج إلى عشر سنوات على الأقل حتى يوظّف متخصصين في هذا الفرع من المعرفة.

إن جميع هؤلاء يجدون أنفسهم مضطرين للعمل في غير ما يُحسنونه، وبذلك لا يجدون كفايتهم، ولا ينفعون بلادهم على النحو المطلوب والمأمول.

٢ ـ لا يكفي للتركيز على تخصص أو مشروع أو عمل معين أن يكون الناس في حاجة إليه، بل لا بد أن يكون من يريد القيام بذلك مؤهلاً له، أو نقول: أن يملك الرغبة القوية في الاهتمام به، وأن يملك الموهبة والقدرة على إنجازه. وأعتقد أن كثيراً من الشباب لديهم مشكلة كبيرة في التعامل مع هذا الشرط؛ فقد وجدت أن منهم من يدرس تخصصاً على غير دراية بمضامينه وبمدى ملاءمته له أو قدرته على النجاح فيه، والذي دفعه إلى ذلك هو وجود عدد من الأعلام الكبار المعروفين بدراسته والاهتمام به، فيظن أنه إذا درسه صار مثلهم.

ومن الشباب من يفعل ذلك لأنه قرأ كتاباً جميلاً فيه، أو سمع من يتحدث حديثاً بارعاً في بعض قضاياه، فينجذب إليه، فإذا بدأ بالدراسة (الأكاديمية) وجد ما لا يجذب وما لا يسر، وقد حدث هذا في كثير من التخصصات، ولا سيما تخصصات علم النفس وأصول التربية وإدارة الأعمال.

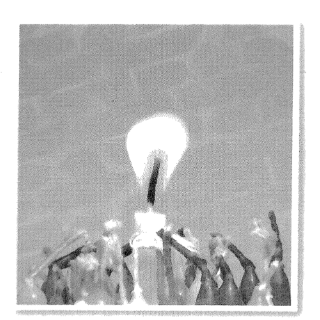
حين تتوفر الرغبة والقدرة في تخصص ما، ويبذل الإنسان جهداً فائقاً على مدار خمس عشرة سنة أو عشرين سنة، فإنه يستطيع بحول الله أن يخدم الأمة من خلاله على نحو ممتاز، مهما يكن التصنيف الشعبي لذلك التخصص وأصحابه؛ إذ إن المرء حين يكون واحداً من الثلاثة أو الخمسة الأوائل في علم من العلوم على مستوى القُطر أو الإقليم، فإنه يكون قد تجاوز قنطرة نوعية التخصص؛ لأن الأمة ستظل بحاجة إلى المبرِّزين والمبدعين الأفذاذ في كل جانب من جوانب الحياة، فالمقاعد في الصف الأمامي لا تمتلئ حتى تَفرَغ من جديد!

٣ ـ نحن لا نريد متخصصين وحَمَلة شهادات فحسب، فالحقيقة أن لدينا عشرات الألوف منهم، وهم يشكلون القاعدة الأساسية لتطوير العلوم والمعارف لدينا، لكن الأمة تعاني من علة قديمة ربما مسَّت كل جوانب حياتها، وتلك العلة هي أنه ربما كانت لا تفعل الأسوأ ولا ترتكب الأشنع، لكنها أيضاً لا تفعل الأفضل والأعظم. وهذا واضح جداً فيما نحن فيه بصدده؛ فمع أن الأمة تشكل نحواً من (٢٠٪) من سكان الأرض؛ إلا أنها لا تحتل في التعليم الجامعي المتفوق وفي مجال الفكر والبحث العلمي والإبداع في التخصصات كافة من المقاعد الأمامية ما يقارب (١٪)، وهذا شيء يدعو إلى الأسى!

نحن نريد نماذج عالمية؛ نريد المؤلف الذي تترجم كتبه إلى عشرين لغة، ونريد الجراح الذي يسهم في تطوير أدوات الجراحة، ونريد الداعية الذي يتابعه عشرات الملايين. نريد هؤلاء وأمثالهم؛ لأنهم هم الذين يرفعون السقف الحضاري، ويستطيع كثيرون منا أن يكونوا منهم بشرط النظر إلى كل ما سوى التقدم في التخصص على أنه شيء هامشي لا يستحق أن نتوقف عنده.

والله المستعان.





ثورة الشموع!

عبد الرحمن إبراهيم سالم الطقي
altaggi@hotmail.com

أضاؤوا ليلَ غزَّةَ بالشموعِ … وليلَ القهرِ بالعزِّ المنيعِ

وما رفعوا شِكايتَهم بذلٍّ … لغيرِ اللهِ ذي العرشِ السميعِ

بني صُهيونَ! أسديتم جميلاً … جليلاً، تُشكرون على الصنيعِ!

أردتم محنةً ببني قطاعٍ … فصارت منحةً لذوي الشموعِ!

وإنَّ الثورةَ اندلعت لهيباً … يُشبُّ لظاهُ من تلك الرُّبوعِ

ربوعٍ دأبُها ردعُ الأعادي … ودحرُ الباطشِ الباغي المَنوعِ

أما اندحرت جحافلُكم قريباً … تُجرجِرُ ذيلَ خِزيٍ في خنوعٍ؟

تُطاردُها قذائفُ من شُواظٍ … فتُحرقُ كِبْرَ باطلِها الخَدوعِ

حسبتم أهلَ غزةَ، من غرورٍ، … لدى الغاراتِ كالحَمَلِ الوديعِ

فإما تُطفِئوا الأنوارَ عنهم … فنورُ يقينِهم بين الضلوعِ

وإما تحبسوا الأمواهَ عنهم … فماءُ حياتِهم عند البقيعِ

وإما تُوقِفوا البترولَ عنهم … فزيتُهمُ المباركُ في الزُّروعِ

وأطفالُ الحجارة قد تنادَوْا … ومنها استدفؤوا يومَ الصقيعِ

وشعبُ جنينَ لم يُخلقْ جَنيناً ... بلِ العملاقُ يرفُلُ في النُّجوعِ!

وشارونُ ابتلاه فلم يجِدْه ... سوى الجبارِ والسُّمِّ النقيعِ

فأردى الأحمقَ الباغي صريعاً ... يُعاني سكرةَ الموتِ الشنيعِ

فما حنَقُ الغُزاةِ على حماسٍ ... سوى حِقدٍ وإخفاقٍ مُريعِ

لِيَهْنِكَ يا هنيَّةُ من رئيسٍ ... - عشيَّةَ أظلمتْ - هدّرُ الجُموعِ!

تُريدُك للجهادِ؛ فسِرْ أماماً ... إماماً للأُباةِ بلا خضوعِ!

فهم من معشرٍ قالوا قديماً: ... (نسيرُ ولا نُؤمِّلُ في الرجوعِ)

فإن شيوخَ شعبِك لم يهُمُّوا ... لغيرِ الله قبلاً بالركوعِ!

ونسوتُه العفائفُ والصبايا ... جعلْن الجيلَ في حُصنٍ منيعِ

وغِزّةُ للغزاةِ غدت كرُمحٍ ... ليغْرِزَ في الحنايا والضلوعِ

كأن دماءَ فِتيتِها الغيارى ... زهورُ الآسِ بالروضِ المَريعِ

يذودون العِدا عن كُلِّ قُدْسٍ ... شريفٍ، أو عنِ الشرفِ الرفيعِ

وهل يُجدي سلامُ الذُّلِّ نفعاً ... سوى التنكيلِ والفَتكِ الذريعِ؟

وها قد أفصحت لغةُ الشظايا ... وغَيَّتْ قبلَ ذا لغةُ الدموعِ!

ألا يا شعبُ في البأساءِ: صبراً! ... كأهلِ الشِّعْبِ في عُدمٍ وجوعِ

فما وهنَ النبيُّ وناصروه ... ولم يُعطوا الدنيَّةَ للبُيوعِ

وليس الحُرُّ مِنْ بأسٍ وضُرٍّ ... لدى النَّكَبات بالخَنِعِ الجَزوعِ

وما طوقُ الحصار سوى إسارٍ ... يلُفُّ رقابَ أربابِ الخنوعِ

فلا ترجوا من الجلّادِ رُحمى ... على شيخٍ وطفلٍ أو رضيعِ!

يَسيمُ الشعبَ تقتيلاً وخسْفاً ... ويسبِقُ بالصُّراخِ وبالدُّموعِ!

ولوذوا بالمهيمنِ في عُلاهُ ... تعالى الله ذو الخَلْقِ البديعِ!

وإن خذل الرؤوسُ فلا تُبالوا، ... فدأبُ القومِ في ركضٍ وضِيعِ!

وفي كُلِّ الدُّنا إخوانُ صدقٍ ... لكم، يدعون من قلبٍ صَديعِ

وها قد هلَّ بالبُشرى هلالٌ! ... وفجرُ العزِّ آذَنَ بالطلوعِ



قيادة القيادات

إبراهيم الحيدري

عندما تلتقط صورة ذهنية من زاوية إدارية لعصر النبوة الكريمة تجد بجلاء أنه عصر مجتمع يتكون من قيادات يقودهم قائد فذ وهو الرسول ﷺ، ومع أنهم كانوا فريق عمل لا يكِلّ وخلية نحل لا تمَلّ؛ غير أننا لم نسمع أن واحداً منهم استقل عن المجموعة أو ذهب مغاضباً من سوء قيادة الرسول ﷺ له، وحاشا أن يكون ذلك.

كيف استطاع الرسول ﷺ أن يقود هذه المجموعة الفذة من القادة بلا منازعات على الصلاحيات أو تواكل في المسؤوليات، أو حتى مشاحنات نفسية؟

هذا هو السؤال الذي تؤلَّف فيه الكتب ويشار إليه في مثل هذه المقالات القصيرة.

لا شك أن للرسول ﷺ شخصية قيادية استثنائية، إلا أنه قدوة ولنا فيه أسوة حسنة. وحريٌّ بالمنظمات الخيرية والدعوية على وجه الخصوص أن تغوص في دراسة النمط القيادي للرسول ﷺ وهي التي تزدحم أروقتها بالقيادات الدعوية والتربوية والإدارية.

فبالإضافة إلى أنه ﷺ لم يتعامل مع أصحابه كـ «قادة تحت التدريب»، ولم يكن ينافسهم في صلاحياتهم؛ فقد أدرك - عليه أفضل الصلاة والسلام - أن القيادات لا ترتبط بالأشخاص، وتأبى عليهم شيمهم القيادية أن يتعلقوا بالأفراد؛ فكان أن ربطهم - عليه السلام - برؤية مستقبلية جذابة، وأفصح عنها بكل قوة ووضوح.

وكان ﷺ يدرك أن القادة لا يعملون في جو منغلق ومركزي؛ فهيأ لهم بيئة منفتحة مفعمة بالثقة والتفويض؛ فوجد الصحابة أنفسَهم من حوله، وحققوا ذواتهم بالعمل معه.

لا يتبوأ القادة هذه المكانة إلا بما يحملونه من مهارات وإمكانيات، ولقد كان الحبيب - عليه أفضل الصلاة السلام - دقيقاً في تقديرها والاحتفاء بها؛ أوَ لم يطلق الرسول ﷺ على كثير من أصحابه كنى مختلفة لا نحتاج إلى عناء كثير لندرك مدى مناسبتها لقدرات كل شخص منهم؟

فريق المهارات، هو الشعور الذي غرسه ﷺ في نفوس أصحابه، وهو من أفضل وسائل قادة العمل الخيري لتجنب التناحر أو التواكل الذي قد يحدث بين القيادات التي تعمل معاً. هذا هو الشعور الذي يزرع في النفوس الحاجة للآخر لتحقيق الرؤى المشتركة.

هل نريد أن نعرف أحد أهم الأسباب الرئيسة لانفضاض القيادات عن المنظمة الإدارية؟

عندما تخلو المسؤوليات من التحدي يختنق القائد، ويبحث عن مكان آخر يستطيع أن يتنفس فيه.

وهل نورد أمثلة عن ذلك من سيرة الرسول ﷺ؟

لا أظن؛ فهي واضحة وأكثر من أن تحصى!



حصار غزة.. واختبار الأمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله، وصحابته ومن والاه وبعد:

يا لله للأحبة في فلسطين بعامة، وفي غزة بخاصة! كم عانوا من الاحتلال والعدوان غير الإنساني الذي ما زالوا تحت ضغوطه يعانون الأمرّين. ومما يؤسَف له أننا أمام إخوةٍ ممثَّلين في جناح فتح الذي استمرأ الاحتلال والتعاون معه، والسقوط في ألاعيبه المستمرة، وجناح حماس المعتز بمبادئه وإن غُلب على أمره، والذي اضطر تحت ضغوط الواقع الكئيب إلى استلام (غزة هاشم)، وقام بكل جدارة بإعادة الأمور إلى نصابها، فأعاد الأمن والاستقرار لأهلها، وهذا ما قال به أهل غزة، على الرغم من الحصار والضرب بآلة الحرب الصهيونية التي لا تكاد تنقطع، حتى أصبح العيش في ذلك الرباط من الصعوبة بمكان.

وبعد نفاد الأطعمة والأدوية، وقطع الكهرباء، وقطع إمدادت المحروقات؛ اتجه الشعب الصابر إلى إخوانهم في مصر الكنانة، حيث قاموا بالواجب مشكورين، بعدما وجدت مصر نفسها في موقفٍ حرجٍ لا يمكن معه الاستجابة لمطالبة العدو الصهيوني باستمرار الحصار. وتنفّس الغزاويون بعضاً من نسيم الحرية. وما زالت المؤامرات تُحاك في الظلام بأهواء المغرضين من الجانب الآخر، الذين يفضّلون الاستجابة للعدو، ويرفضون الاستجابة والتعاون مع إخوانهم؛ فإلى الله المشتكى!

وإننا لنرجو لإخواننا في مصر أن يصبروا ويصابروا على تدفق إخوانهم، وألا يركنوا لضغوط الصهاينة وأذنابهم.

ولقد قمنا في البيان بطرح هذا الملف الذي جاء وليد الواقع المعاش ووليد أحداث الساعة الساخنة، وعمِلْنا على أن يحوي محاور مهمة تراها أمامك.

وقد حاولنا أن ننطلق في رصدنا من المعطيات التالية:

١ - الرصد الدقيق للأحداث ومعاناة المحاصَرين.

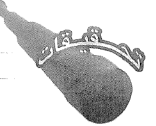
٢ - الرؤية الموضوعية لمعالجة هذه المحنة.

٣ - كشف الحقيقة بعيداً عن ضغوط الواقع وتزييف كثير من وسائل الإعلام المأجور.

٤ - الرؤية الإسلامية المستنيرة على ضوء الوحيَين لمعالجة الحدث.

والله نسأل أن يحفظ فلسطين وشعبها وأن يدحر العدو وأتباعه.

إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.





حصار شعب فلسطين في شِعب غزَّة

إعداد:

مكتب مجلة البيان في الرياض

مكتب الجيل للصحافة (غزة) (مصطفى الصواف ومحمد الصواف وفادي الحسني وآخرون).

مكتب مجلة البيان في الضفة الغربية.

مراسلي مجلة البيان في مصر: (عمرو توفيق- أسامة الهتيمي).

يتفق معظم المراقبين على أن الحصار الذي فُرض على قطاع غزة قد فشل فشلاً ذريعاً، من خلال التطورات التي شهدتها ساحة القطاع قبل عدَّة أيام.

فمع خروج مئات الآلاف من سكان قطاع غزة إلى معبر رفح وهدم الجدار الحديدي الذي يبلغ ارتفاعه ١٢ م وسُمك ٥ سم، والذي يفصل بين الأراضي الفلسطينية والمصرية، والذي شبهه بعض المحللين بأنَّه أشبه بهدم جدار برلين، بل أشد؛ فلم تكن الوفود التي جاءت لاكتشاف ما وراء جدران برلين بعددها وكثرتها خلال أربعة أيام كما كانت الوفود التي خرجت حين انكسر الجدار الحديدي؛ حيث بلغ أكثر من ٨٠٠ ألف مواطن في غزة بشكل عفوي وعشوائي، وهو ما يدل على على فظاعة السجن الكبير الذي كان يعيشه أهالي القطاع في الشهور السبعة السابقة!

كان تدفُّق هذه السيول البشرية الفلسطينية على مدن مصرية حدودية بهذا الشكل العفوي نتيجةَ آلام وعذابات حصار دام طويلاً، فأراد الأحرار أن يستنشقوا نسيم الحريَّة، كما يؤكد أن الحصار الاقتصادي الخانق الذي فُرض على قطاع غزة باتت أوصاله تتقطَّع، باعتراف العدو الصهيوني!

وعودة إلى الوراء، فما زال الكثير من الشعب الفلسطيني (بالآلاف) في غزة لم يستلموا رواتبهم منذ شهور، وما زالت الحكومة الفلسطينية في غزة محاصَرة، وما زال مئات المرضى في المستشفيات بلا دواء. كل هذا يدعونا للتطرق لكيفية بداية الحصار، وآثاره، والصور المتعددة له ولأوجهه، وكيفية



ـسـر هذا الحصار. في هذا التحقيق الموسـع الذي شارك يه مكتب مجلة البيان في الرياض، وعدد من مراسلينا في ضفـة الغربيّة وقطاع غزة، ومصـر الكنانة، لوضع القارئ كـريم أمام الصورة والحدث الذي لازم الفلسـطينيين في ـهور الحصار، ولا زال هذا الحصـار يضغط بكَلْكله على موع المحاصَرين في قطاع غزة الصمود.

• حكاية الحصار منذ البدايات:

غـزة هادئة، والأمـن يطرق بابها ويُزيِّن شوارعها، وليلها ادرته الفوضى، وصباحها يُودع تباريح ألـم الاقتتال، غيـر ن هذا المشـهد الذي اسـتيقظت على وقع تفاصيله المدينة عد أشـهـر من المعاناة وأصوات الرصاص ودويِّ الانفجار؛ ان ثمـنه غالياً وضريبته كبيـرة؛ إذ داهم الحُلمَ كابوس هدد قاءه وجماله.

وبدت مقدمات كارثة إنسانية تطل برأسها على القطـاع، امتدت ألسـنـة الـلاءات: «لا لفتح المعابـر، لا لإمدادات لوقـود، والغـذاء بالقطّارة، الماء والكهرباء بالتقسيط..».

١٦ يونيو /حزيـران من العام الماضي، هذا اليـوم خطّته اكـرة التاريـخ بدايةً للحصار الخانق المفروض على القطـاع، إن كان الحصـار بثقـل حـروفه وتبِعاته قـد طارد غـزة سكانها منذ سنوات وسنـوات؛ فلا حياتهم حيـاة ولا أيامهم يـام.

ومنذ ذلك التاريخ، وسـكان غزة يدفعون فاتورة باهظة بدأت مع هطول (أمطار الحصار) من أكثر من جهة، لتغرس نيابها بقسـوة وتُحيـل الـورود إلى أشـواك.

• منطقـة كـوارث:

غيـوم الحصـار لم يقذفها الاحتـلال في وجـه غـزة وحسـب، بل فاجأتها غيـوم أشـد مضاضةً؛ فبمُجرد اكتمال الحقائـب الوزاريَّة الجديدة قامت حكومـة (فياض) بقطع رواتب آلاف الموظفين الذين قرروا التعامل مع حكومة (هنية)، بذريعة عدم قانونية عقودهم، وقامت بتهديد كل عسـكري يتجـه إلى الدوام في موقعه؛ مما اضطر المئات إلى الجلوس فـي منازلهم خوفاً من ذلك، لتخرج بعد أيام التحذيرات من حكومة فياض لكافة العاملين في الدوائر والوزارات الحكومية بعدم التعاطي والتعامل مع حكومة هنية!

ويوماً بعد يوم، وشهراً بعد آخـر؛ ازدادت المعاناة وألـوان الحصار على غـزة وأهلها، وغُلّقت أمامهم كل الأبواب. وبعـد سبعة أشهـر من اشتداد الحصار الصهيوني الشامل أُغلقت كافة المعابر التجارية والبرية. وقد أصـدرت اللجنة الشعبية لمواجهة الحصار تقريراً مُفصلاً (وصل البيان نسـخةٌ منه)، واسـتعرضت اللجنة ما خلّفه الحصار علـى كافة النواحي والقطاعات لـ «مليون ونصف مليون فلسـطيني» يقطنون القطاع.

فالخسائر الشهرية المباشرة تقدر بحوالي ٤٥ مليون دولار شهرياً، و تتوزع على قطاع الصناعة بنسبة ٣٢٪، وعلى قطاع الزراعة بنسـبة ٢٢ ٪، وعلى القطاعـات الأخرى (التجارة، والإنشـاءات، والخدمات، والصيد) بمعدل ٢٠ مليون دولار شهرياً بنسبة ٤٥٪. كما بلغت نسبة البطالة في القطاع ٦٠٪، في حين أن خسائر الزراعة تقدَّر بـ (١٥٠) ألف دولار يومياً، إلى جانب ستة آلاف مواطن عالق بسبب إغلاق المعابر البرية، كما أدى الحصار إلى ارتفاع نسـبة المواطنين الذين يعيشون تحت خط الفقر إلى ٨٥٪ من سـكان القطـاع؛ وهو الأمر الذي حدَّ من قدرة المواطنين الغزاويين على تلبية احتياجاتهم الإنسانية الأساسـية، إلى جانب انخفاض حاد في مستوى دخل المواطن ليصل إلى ما دون ٦٥٠ دولاراً سـنوياً. وحذّر التقرير الذي أصدره مكتب الأمم المتحدة لتنسـيق الشؤون الإنسانية في الأراضي الفلسطينية من أن استمرار عزل غزة عن العالم الخارجي «سيؤدي إلى نقص خطير في إمدادات حليب الأطفال والأدوية وزيت الطبخ، وإفلاس مئات المشاريع التجارية بسـبب منع الاسـتيراد والتصـدير، ولا سيما أن آلاف العمال فقدوا عملهم بسـبب انهيار قطاع البناء وتعليق تنفيذ مشاريع بناء بقيمة ٣٧٠ مليون دولار أمريكي».

وأكد التقرير الأممي أن ١٧٪ من المرضى الذين يحملون تحويلاً للعلاج في الخارج؛ مُنِعوا من مغادرة غزة للعلاج في القدس المحتلة أو في الخارج.

وتوقـع تقرير الأمم المتحدة أنه فـي حال عدم تخفيف الإغلاق والحصار عن قطاع غزة؛ فإنه سيكون هناك ارتفاع

كبير في الحاجة إلى الغذاء والمساعدات المباشرة بنسَبٍ تفوق النسبة الحالية التي وصلت إلى ٨٠٪ من السكان.

• تحريك القضية رغم الألم:

على الرغم من الصعاب والحصار المؤلم وتدهور الأوضاع المعيشية إلى درجة خطيرة في غزة؛ غير أن حكومة هنية استطاعت تحقيق مجموعة من الإنجازات، أهمها: تعزيز ثقافة التكافل بين أفراد المجتمع الفلسطيني من خلال اقتطاع ٥٪ من رواتب الموظفين المدنيين والعسكريين لصالح المتعطلين، إلى جانب البدء بزراعة المحررات واستغلالها للمساهمة في رفع الحصار.



وأفاد (زياد الظاظا) وزير الاقتصاد في حكومة هنية في حديث لـ «البيان» أن الحصار ولّد أفكاراً إبداعية لمواجهته، من خلال عملية التفكير في الابتكارات عبر معامل الجامعة الإسلامية في غزة، من أجل الاستفادة من الطاقات العقلية والإمكانيات والخبرات، وفقاً لمقتضى الحال الذي يعيش فيه قطاع غزة في ظل الحصار.

وذكر بأن الحكومة استطاعت أن تتغلب على صعوبات الحصار من خلال تعزيز العلاقة والتواصل مع رجال الأعمال والتجار والمستوردين والصناع داخل قطاع غزة، لتصبح الحكومة والقطاع الخاص وحدة واحدة، مشيراً إلى أن هذه التحديات حققت نجاحاً ملموساً على الأرض.

وبيّن أن الحكومة استطاعت أن تتعامل مع بعض أسعار السلع الأساسية، مثل: الطحين والخبز والأرز والسكر في اتجاهات معينة؛ حتى تكون في متناول المواطن الفلسطيني، مؤكداً أن وزارة الاقتصاد أعدت خطة إستراتيجية للتعامل مع هذه القضية.

مناشدة العالم وحثه على التحرك كان من أبرز الخطوات التي اتخذتها غزة لجلب مزيد من الهواء لفضائها؛ لكي تنعم بالهواء النقي. ولأن المعابر مغلقة ولا يمكن لأحد الدخول إليها أو الخروج منها؛ قامت عدة جهات فلسطينية بتبني حملات عبر الإنترنت.

(جمال الخضري) الذي يرأس اللجنة الشعبية لمواجهة الحصار؛ أكد في حديثٍ للبيان أن على أهالي قطاع غزة التحرك في اتجاه إنشاء حملات إعلامية لمخاطبة العالم بأسْره، وإطلاعهم على خطورة الوضع الإنساني في القطاع وعواقب ما يجري، ودعوتهم لاتخاذ خطوات عاجلة لوقف التدهور الحاد.

وللّجنة موقع على الإنترنت، وتفتح المجال أمام شرائح المجتمع الفلسطيني للانضمام إليها. وإلى جانب اللجنة؛ نظمت العديد من المواقع والمنتديات الفلسطينية والعربية وحتى الدولية، موجات تضامن وصفحات لإبراز معاناة غزة والعمل على تخفيف ألمها.

وأعلنت اللجنة الشعبية لمواجهة الحصار استعدادَها للقيام بدور الوسيط بين الأطراف المعنية من خلال بذل كل الجهود في الاتصال بالأطراف ذات العلاقة بما يضمن الوصول إلى صيغة توافقية؛ تضمن إعادة تشغيل معابر قطاع غزة وضمان استمرارية عملها بما في ذلك معبر رفح الحدودي.

• مشاهد من قلب الحصار:

البيان رصدت صُوَراً من معاناة أهالي قطاع غزة؛ فللدواء عندهم حكاية مغموسة بالقهر والوجع، وللموت حكاية مكسوّة بالفقد واليُتم، وللقبر ألف حكاية وحكاية مغلّفة بالعجز والآهات. أما السفر فهو سيد المعاناة؛ فالبحر

من خلفهم، وغربان الاحتلال من أمامهم!

الدواء سؤال بلا إجابة لمرضى غزة: «للأسف.. لا يوجد!».. هذه هي الإجابة الوحيدة التي يتلقاها المرضى في قطاع غزة من الصيدليات ومخازن الأدوية في المستشفيات؛ إذا سألوا عن الأدوية والعقاقير اللازمة لعلاجهم.

و يقول (أبو أحمد) المُصاب بفشلٍ كلوي: كلما توجهت من أجل الحصول على الأدوية الخاصة بعلاجي أصطدم بعبارة «للأسف.. لا يوجد دواء!».

مصير أبي أحمد يشابه مصير آلاف المرضى الذين لم تشفع صرخات ألمهم لرفع حصارٍ مفروض على القطاع، وإغلاقٍ مُحكم لمعابره؛ لا يسمح للدواء بالدخول.

الشاب الغزاوي نائل الكردي الذي رحل بهدوء بعد أن ملَّ مناشدة العرب والمسلمين وأصحاب الضمائر السماحَ له بمغادرة القطاع المحاصَر لكي يتمكن من تلقِّي علاج مرض السرطان الذي كان يعاني منه؛ حيث استطاعت روحه أن تفكَّ الحصار وتصعد إلى بارئها لتشكو ظلم الظالمين وتقاعس المتقاعسين!

الشاب أُعلِن عن وفاته جرّاءَ عدم السماح له من قِبَل (العدو) بالسفر لتلقي العلاج، وانضم إلى قافلة مَنْ توفي خلال الأيام العشرة بسبب الحصار المفروض على القطاع.

وقبل موته ظهر نائل على شاشات التلفزيون المحلية والعربية يناشد العالم كله ولا سيما الدول العربية، بالضغط على الصهاينة بهدف فتح المعابر، لكي يتمكن من السفر للعلاج من مرض السرطان الذي كان يعاني منه.

قال حينها قبل أسبوع من وفاته: «أنا أعاني من مرض السرطان، وأناشد العالم التدخُّلَ لفتح المعابر؛ فأنا حصلت على تحويلة ثلاث مرات وكانوا يمنعونني من مغادرة معبر إيريز (بيت حانون)، أريد الذهاب للعلاج، لا لأحارب».

وجلست والدة نائل بجواره في حينها، وقد بدا عليها علامات الحزن والأسى وهي تشاهد فِلْذة كبدها وهو يموت على فراشه دون أدنى بصيص أملٍ يخرجه من غزة إلى أي مكان آخر للعلاج من مرضه العضال.

وقالت أم نائل في حديثها لوسائل الإعلام وهي تذرف الدموع بحسرة ومرارة: «أناشد العالم وزعماء الدول العربية أن يأتوا لمشاهدة المريض في غزة وهو يموت على فراشه ولا يجد العلاج ولا متنفَّساً للخروج من غزة لكي يعالَج».

وهو يحمل الرقم (٦٢) - حتى كتابة هذه السطور - من الذين توفّوا بسبب الحصار ومنعهم من السفر وعدم توفر الدواء. ويهدد خطر الموت قائمةً كبيرة من المرضى من أصحاب الأمراض الخطيرة والمزمنة جرّاءَ عدم تلقِّيهم العلاج؛ بسبب عدم توفر الأدوية، وبسبب منعهم من مغادرة القطاع للحصار المطبق.

وشرح (جون جينج) مدير الأونروا بقطاع غزة، الوضعَ بقوله: «لقد اضطررنا إلى وقف مشروعاتنا الإنشائية التي يبلغ إجمالي قيمتها حوالي ٩٣ مليون دولار؛ لعدم توفر الإسمنت وغيره من مواد البناء».

• المنع من الزيارة:

«أهالي غزة محرومون من زيارة أسْراهم حتى إشعارٍ آخر»؛ تلك اللافتة رفعتها الحكومة الصهيونية في وجه أهالي الأسرى في قطاع غزة لتضعهم على أجندة الحصار المفروض على قطاع غزة.

«ممنوعون من الزيارة، أخبار ولدي مقطوعة عنا، لا اتصال ولا حديث، الخوف يقتلنا، وقلق الانتظار أصابنا بالإعياء والألم». بصوت مخنوق وبعيون باكية؛ اشتكت والدة الأسير الفلسطيني لدى الصهاينة (أحمد أبو عودة) استمرارَ تعليق الدولة العبرية برنامج الزيارات لأهالي وذوي أسرى قطاع غزة منذ نحو شهرين.

وتساءلت الأم بحرقة: «ألا تكفي عذابات المعتقلين داخل السجون وموتهم هناك في اليوم ألف مرة؟ لماذا نُمنع من رؤية أولادنا؟ أين منظمات حقوق الإنسان والضمائر الحية؟!».

رائحة الحزن الذي خلّفته أم أحمد بتساؤلها ارتسمَ على شفاه العشرات من أهالي وذوي أسرى القطاع الذين أعربوا عن بالغ ألمهم لتعليق برنامج الزيارات.

وتتذرّع السلطات الصهيونيَّة بعدم وجود تنسيق بين الفلسطينيين من أجل الزيارة والإشراف على المعابر وتأمين دخول الأهالي.

وبصوت مخنوق استنكرت والدة الأسير (عبد الحليم عبد الله) وقفَ برنامج الزيارات، داعيةً (الصليب الأحمر) الدولي إلى الضغط بجدية لاستئناف الزيارة. وأردفت تقول: «لا نسمع عنهم خبراً ولا ندري ما أحوالهم؛ فإلى متى سنبقى على هذا الحال؟!».

والد الأسير (موسى بدوي) طالَب هو الآخر (الصليب الأحمر) باستخدام صلاحياته الدولية للضغط على الجانب الصهيوني لاستئناف برنامج الزيارات لأهالي الأسرى.

وأضاف: «مهما يكن حجم الأحداث الدائرة في غزة؛ فإن الزيارات يجب ألا تُعَلَّق، وعلى الصليب تحمُّل مسؤولياته تجاه الأسرى وذويهم».

زوجة الأسير (أيمن الشوا) انتقدت (هذا الدور)، واصفةً إياه بالسلبي، وقالت: «إن سيطرة حماس ليست حجة أو مبرراً، وتحت أي ظرف كان يجب ألا تتوقف زياراتنا للأسرى».

(موفّق حميد) مدير جمعية (حسام) لشؤون الأسرى والمحرَّرين؛ أكد في تصريح لـ «البيان» أن الجمعية، وبحضور عدد من أعضاء لجنة أهالي الأسرى؛ زارت مقر اللجنة الدولية (للصليب الأحمر) للمطالبة باستئناف برنامج الزيارات المتوقف بذرائع أمنية.

وأشار حميد إلى أن (الصليب الأحمر) من جهته أكد محاولته الحثيثة للضغط على الجانب الصهيوني لاستئناف البرنامج؛ حيث بعث برسالة احتجاج إلى إدارة السجون، لكن الصهاينة لم يردّوا على الرسالة.

واعتبر أن ربط الجانب الصهيوني برنامجَ الزيارات بالأحداث الجارية في غزة بمثابة «عقاب جماعي لا منطقي، ويجب إعادة برنامج الزيارات لأسرى غزة؛ فلا دخل للبرنامج بالخلافات السياسية».

• مجلة «البيان» تعيش الساعات الأخيرة للعالقين الفلسطينيين في مصر:

شاء الله - عز وجل - أن تكون رحلة مجلة «البيان» إلى مدينة العريش المصرية للقاء الفلسطينيين العالقين منذ شهر مايو من العام الماضي - متزامنةً مع تكثيف الاحتلال الصهيوني لقصفه الصاروخي لأهالي قطاع غزة، والتصعيد ضدهم عبر قطعه الكهرباء والغاز؛ مما صعّب من حياة أهل القطاع الذين توقفت حياتهم تماماً وأضحت ضرباً من المستحيل، مما دَفَعهم إلى البحث عن منفَذٍ لكسر الحصار المفروض عليهم، فالتجؤوا إلى معبر رفح الحدودي للدخول إلى مصر من أجل التزود بالغذاء والأدوية والوقود، وسط رفض أمني مصري لاعتبارات سياسية؛ استشعر الفلسطينيون تهافتها أمام مأساة أكثر من مليون ونصف المليون من سكان غزة الذين يعانون الظلام والجوع والموت.

وكان لتوتر الأحداث على المعابر بين مصر وقطاع غزة؛ أثرُه على حركة الانتقال من القاهرة إلى مدينة العريش؛ حيث قامت الأجهزة الأمنية بتشديد إجراءاتها بحثاً عن أي من الفلسطينيين العالقين المقيمين في القاهرة أو غيرها من المدن والذين يعتزمون التوجه إلى مدينة رفح؛ سعياً وراء الدخول إلى غزة لإنهاء أزمتهم التي تجاهلتها أغلب الجهات الرسمية، وأضحى مئات الفلسطينيين من العالقين في عالم النسيان يعيشون مأساة أخرى، غير أنها هذه المرة على أرض مصرية.

بعد أربع نقاط تفتيش، تمكنّا من الوصول إلى رياض المصري (أبو نضال) رئيس لجنة العالقين في المدينة، الذي يتخذ (شاليهاً) على البحر مقراً للجنته، بالقرب من مكان إقامة أغلب العالقين الذين فضلوا الإقامة في هذه الشاليهات على الرغم من انخفاض درجات الحرارة فيها لوقوعها على البحر مباشرة ولحلول فصل الشتاء، غير أنها تتميز بانخفاض أسعارها التي يمكن أن تتناسب مع العالقين أو الجهات الداعمة لهم.

حفاوة كبيرة وابتسامة عريضة على الوجوه استقبلنا بها (أبو نضال) ومن معه من أعضاء اللجنة الناشطين وغيرهم من الرجال الفلسطينيين؛ الذين يجدون في لقاءاتهم بمقر اللجنة فرصةً للتنفيس عمّا بهم، ومحاولةً للتخفيف من آلام الاغتراب عن الأهل والوطن، بعد أن قست عليهم أقدارهم وجنى عليهم العدو والحبيب. سهلت علينا هذه الحفاوة مهمتنا في أن نستنطق العالقين لوصف معاناتهم، وأن

نحاول الكشف عن مكنوناتهم وتقييمهم للمواقف المتباينة من قِبَل الحكومات، أو الشعوب، أو المنظمات الإغاثية العربية والإسلامية.



• مَنِ العالقون؟

تعود أزمة العالقين الفلسطينيين إلى قبيل منتصف عام ٢٠٠٧م، عندما تجمّع ما يزيد على ستة آلاف من الفلسطينيين المُحتجَزين على (بوابة) رفح بعد منع جنود الاحتلال الصهيوني أبناءَ غزة من الوصول إلى مدنهم وقراهم، وهو ما عرّضهم للكثير من المخاطر أسفرت عن وفاة العشرات منهم؛ نتيجةَ عدم تلقيهم العناية الطبية اللازمة، فضلاً عن تشردهم في شوارع وطرقات مدينة رفح المصرية، وسط حالةٍ من التجاهل الإعلامي والصمت العربي والدولي الذي لم يتحرك لوقف هذه المأساة.

أما عن مصطلح (العالقين)؛ فقد قُصِد به هؤلاء الذين مُنِعوا من دخول بلادهم ولم يُمنَحوا تأشيرات الإقامة في غيرها، وذلك بفعل الكيان الصهيوني الذي لم يكتفِ بممارساته وانتهاكاته اليومية بحق الفلسطينيين، وأراد الإمعان في استذلالهم وحرمانهم من أوطانهم. غير أنه، ووسط ضغوط متزايدة من قِبَل الفلسطينيين والحركات الشعبية العربية؛ تمكّنت أعداد كبيرة من هؤلاء العالقين من دخول غزة عبر منفذي (العوجا) و (كرْم أبو سالم) اللذين تسيطر عليهما قوات الاحتلال الصهيوني، بينما بقيت أعداد أخرى أصرّت على عبور منفذ رفح الذي يخضع لسلطة حكومة حماس، فضلاً عن خشية الكثير من العالقين التعرضَ للاعتقال من قِبَل الاحتلال باعتبارهم مطلوبين أمنياً لديه.

• العمل الإغاثي:

بالنسبة للعمل الإغاثي المقدَّم للعالقين؛ فقد اقتصر بحسب ما أكد رئيس اللجنة رياض المصري على جهتين فقط هما اللتان تكفلتا بتقديم الدعم والإعانة للعالقين الفلسطينيين، وهما: اتحاد الأطباء العرب ومعه نقابة الأطباء المصريين عبر ممثلهما في العريش حسام الشوربجي، ولجنة أخرى تابعة للجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة في مصر ويمثلها الشيخ حمدي عبد العزيز.

قال أبو نضال: لقد حمل اتحاد الأطباء العرب ونقابة أطباء مصر على عاتقهما، ومنذ تصاعدت حدة مأساة العالقين في شهر سبتمبر الماضي؛ تقديمَ التموين اللازم للعالقين بشكل أسبوعي حتى يمكن التخفيف من حدة ما يتعرضون له خلال إقامتهم في مصر، دون أن يتوفر لديهم مصدر مالي للنفقات أو المعيشة؛ فحرصت اللجنة الخاصة بهما على تقديم تموين أسبوعي لكل فرد من العالقين (رجل، امرأة، طفل) والتي تمثلت في إعطاء كل فرد ما مقداره كيلو جرام من اللحم والسكر والأرز والمكرونة والشعيرية فضلاً عن (باكيت صلصة) و (باكيت شاي)، وهو التموين الذي وفّر الكثير من احتياجات العالقين.

وأضاف (أبو نضال): أما اللجنة التابعة للجمعية الشرعية؛ فقد تحملت ومنذ بداية شهر يناير الجاري، دفعَ إيجارات الشاليهات التي يسكنها العالقون بعد أن انتقلوا إليها من مخيمات «النُّزُل» التي ظلوا بها لعدة شهور قبل الانتقال «للشاليهات»؛ حيث يبلغ إيجار «الشاليه» في الليلة الواحدة ما مقداره ٢٥ جنيهاً، أي تصل قيمة الإيجار الشهري إلى ما يقرب من ٧٥٠ جنيهاً مصرياً، وهو ما لا يمكن أن يتحمله العالقون. مشيراً إلى أن لجنة الجمعية الشرعية قامت بتقديم غطاءين شتويين (بطانيتين) لكل عالق مع بدء فصل الشتاء، كما تقدِّم في بعض الأوقات أيضاً وجبة إفطار يومية.

وأوضح أبو نضال أن العمل الإغاثي يتم بالتنسيق مع لجنة العالقين التي شُكِّلت في مدينة العريش، وتضم ثلاثة من العالقين؛ حيث اتخذت اللجنة مقراً لها بالقرب من إقامتهم لتوزيع ما تقدمه اللجان الإغاثية عبر «كشوفات» أُعِدَّت من واقع الحال، مع تحديثها كلما أُلحِق بالعالقين فرد أو أسرة جديدة. مضيفاً أن اللجنة أيضاً تجتهد في توفير العلاج اللازم للمرضى العالقين من خلال الاتصال بالجمعية الشرعية واتحاد الأطباء؛ الذين يحرصون على توفير الاحتياجات كاملة؛ حيث يأتي إلى اللجنة يومياً ولمدة ثلاث ساعات طبيب مصري متطوع وصيدلي مصري أيضاً؛ للكشف على المرضى وإعطائهم الدواء اللازم، أو توفيره من الجهات الداعمة في حالة عدم وجوده لديهما، فضلاً عن تحويل الحالات الحرجة أو المستعصية – إذا لزم الأمر – إلى المستشفيات الحكومية التي تقبل العالقين لديها.

كما كشف «أبو نضال» أن هناك حالات صحية تحتاج إلى رعاية طبية؛ حيث يوجد بين العالقين مرضى بالسرطان والقلب والكبد وهشاشة العظام والسكر والضغط، وأن هناك عدة حالات اضطررنا إلى تحويلها للقاهرة لتلقي العلاج، مثل حالتي: «دينا عطا الله عابد» المصابة بالسرطان وهشاشة العظام وتُعالج في معهد ناصر، وحالة الحاج «نظمي يوسف فياض» الذي يعاني من آلام الظهر والمرارة والكبد، وهي الأمراض التي أصيب بها خلال وجوده في مصر ويعالَج في إحدى مستشفيات القاهرة.

• أيام سوداء:

لا ينسى «أبو نضال» يومي الثاني والثالث من يناير الجاري عندما أُخبر العالقون بأن معبر رفح سيُفتح لدخول الحجاج الفلسطينيين القادمين من المملكة العربية السعودية، وهو ما دفع العالقين إلى ترْك مساكنهم بعد أن جهزوا أمتعتهم وحملوها في سيارات خاصة للتوجه إلى رفح المصرية، غير أن السلطات المصرية لم تسمح لغير الحجاج بالعبور، سواء للنساء منهم أو الرجال، حتى إن الكثير من أمتعة العالقين ضاعت وسط الفوضى التي كانت أمام المعبر.

وأمام تلك المعاناة والمتاعب التي لا تطاق؛ عاد العالقون مجدّداً إلى العريش وإلى أماكن إقامتهم، غير أنهم لم يستطيعوا الدخول مرة أخرى إلى «الشاليهات» بعد أن تركوها لأصحابها، فاضطروا إلى الإقامة في أحد شوارع العريش وسط طقس شديد البرودة دون أغطية؛ وهو المشهد الذي كان كفيلاً بأن يحرِّك هذا العالم الصامت. وظل الأمر هكذا حتى تدخلت الجمعية الشرعية التي أعادت تسكينهم بعد دفع إيجارات «الشاليهات» وعودة العالقين إليها، فجزاهم الله خير الجزاء.

• الوحدة والاغتراب:

أما العالق سلامة خليل محمد (٥٥ عاماً من سكان غزة) وكان يعمل مديراً لأحد البنوك؛ فيقول: لقد كنت في زيارة أنا وزوجتي لأبنائي في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم عدنا إلى مصر في شهر أكتوبر الماضي من أجل العبور إلى غزة، لكننا لم نستطع العبور. ومنذ ذلك الوقت وأنا وزوجتي من العالقين، غير أنها استطاعت العبور عبر معبر (كرْم أبو سالم) خلال حل أزمة الحجاج في الثالث من يناير، فأصبحت وحيداً بعد ذلك، محروماً من الزوجة والأولاد والأهل؛ فكل منهم في مكان، وهو ما دفعني إلى أن أقيم في مقر لجنة العالقين، وأن أعطي كل جهدي لخدمتهم تطوُّعاً وتعاوناً مع الإخوة المسؤولين عن اللجنة، على الرغم من أنني لا أرى إلا بعين واحدة؛ نتيجةَ إصابة في رأسي وأحتاج إلى عناية طبية خاصة.

• بلادي العزيزة:

عدنان محمد الباز (٦٠ عاماً من سكان غزة الرمال) يقول: كنت أعمل في ليبيا منذ عام ١٩٧٦م بعد أن أنهيت دراستي للحقوق مباشرة؛ حيث عملت كاتباً في النيابة العامة الليبية. وبعد أن أنهيت تعاقدي مع ليبيا؛ قررت العودة لغزة، وبالفعل جئت إلى العريش في سبتمبر الماضي لألحق أنا وأسرتي المكونة من زوجتي وثلاث أولاد بالعالقين.

أضاف قائلاً: إن لديَّ ابنتين (راما وهبة) أنهيا دراستهما الجامعية، وقد كان من أهداف عودتي هو زواجهما حيث الأهل والأقارب ومن يعرفوننا ونعرفهم؛ فعملية ارتباط بناتي

في ليبيا شـيء صعب، لكنني اليوم أصبحت أنا وأسـرتي عالقين، فضـلاً عن فقـدان ولدي أحمـد (الصف الأول الإعدادي) العام الدراسـي، والذي تحـاول معه أخته هبة استذكار بعض الدروس السابقة، وتعيش في حالةٍ لا تُحسد عليها، مردِّداً قول الشاعر:

بـلادي وإنْ جـارت عليَّ، عزيزةٌ

وأهـلي وإنْ ضـنّوا عـليَّ، كـرامُ

• زعيمة «الشاليه»:

الحديث إلى الفلسـطينيات العالقات حزين إلى حد أن الألم له طعـم الجرح؛ فالكلمات مثخنـة، والزفرات تغلفها الدموع.

روحية عليوة فياض (أم مصعب، ٥٤ عاماً) فلسـطينية؛ نموذج آخر للمرأة المجاهدة، تحاول بكل جهدها التخفيف من معاناة أسرتها الكبيرة التي تتكون من ١٣ فرداً. تقول: عدنا من السعودية في شهر أغسطس الماضي، والتحقنا بالعالقين بعد فشلنا في العبور لغزة. وكما ترى؛ فإن الأسرة كبيرة؛ إذ إن لزوجـي زوجة أخرى، ومعنا أربعة من أولادها وأربعة من أولادي، فضلاً عن زوجة يوسـف أخي زوجـي وابنتهـا رنا (٤ أعوام)، ومع ذلك نعيش جميعاً في «شـاليه» واحد مكون من غرفتين، على الرغم من أن الأسرة تضم أولاداً من البنين والبنات. كما أن الزوج (نظمي يوسف فياض) يعاني من عدة أمراض شديدة اضطرته للسفر إلى القاهرة للعلاج، وعاشت الأسرة الكبيرة معاناة لا توصف.

تؤكد «أم مصعب» أن مما يحزنها حالة أولادها النفسية؛ حيث ضاع عليهم العام الدراسي؛ فأغلبهم في سنوات دراسية مختلفة، حيـث يبكي الأولاد عندما يرون أندادهم المصريين صباح كل يوم وهم متجهون إلى مدارسهم، وأقصى ما يمكننا فعله معهم وهم محرومون من ذلك هو مراجعة ما يحفظونه من القرآن الكريم. فالحمد لله على كل حال.

• الألم المكتوم:

فتاة فلسطينية، تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً؛ تبدو حزينة صامتة منكسرة. عندما سـألت عنها؛ أجابني أهلها أنها متألمة بعض الشـيء؛ لأنها بحاجة إلى العلاج، وتحدث الجميع عن مشكلاته وأحزانه إلا (هناء)؛ فقد ظلت صامتة، وعلى وجهها تبدو جميع مشـاعر الأسى، وفي عينيها تبدو جميـع أحزان الحياة. وأخيراً سـألتها: مـن أي الأمراض تعانـين يا هناء؟ حاولتْ التهرب من الـرد. وبعد إلحاح في السـؤال أجابت أختها بدلاً عنها قائلة: إن (هناء) تسـتحي من الحديث عن مرضها؛ لأن الماء المغليَّ انسكب عليها فشوَّهَ جسدها، وهي تحمل بجانب مشـاعِر ألم الاحتراق مشاعرَ الألم النفسـي؛ لأنها أصبحت أنثى مشـوهة. الطبيب قال: إنه من الممكن أن تشـفى وتقل هذه الآثـار لأقصى درجة، إذا اسـتخدمت مرهماً خاصاً سـعرُه ١٥٠ جنيهاً مصرياً، وهي في حاجة إلى سـبـع عبوات في الشهر الواحد؛ وإن تأخرت في العلاج فـلا منـاص من إجراء جراحة لإصلاح هذه التشوهات. ولكن مسـؤولي الإغاثة لا يقـدمـون دواءً سعـرُه يتجاوز الـ ١٥ جنيهاً، ويقولون: إن هناك أولويات في تقديم الدواء.

وتضيف أخت هناء: إنه لا يشعر أحد بهناء، حتى الأهل تأخذهم مشكلة الطعام والعودة؛ فلا يواسيها أحد، والنتيجة أن هناء بدأت تعاني من الاكتئاب الحاد.

الحقيقة أن المآسي كلها كانت أليمة، ولكن مأساة (هناء) بخاصة تشـبه الحفر على جدار القلب بالدموع؛ فهي زهرة تذبل في قلب الربيع!



• القلب المفتوح:

محمود عوض عبد الجبار (أبو إياد) ٥٦ سـنة مقيم في غزة، (الشيخ رضوان) صاحب عملية قلب مفتوح، وابتسامة

تملأ وجهه الطيب بلحيته البيضاء، عاد إلى مصر قادماً من السعودية هو وزوجته وابنته دعاء (١١ عاماً) بعد أداء عمرة شهر رمضان ليتوجه إلى غزة، غير أنه لحق بالعالقين بعد أن أُغلقت المعابر، فمكث في القاهرة شهرين أنفق خلالهما كل ما معه من مال، ليضطر آسفاً إلى تلقي الدعم والإعانة عبر لجنة العالقين في العريش.

يضيف «أبو إياد»: أنا فعلاً أحتاج إلى عناية طبية خاصة؛ فقد قمت منذ وقت قريب بإجراء عملية قلب مفتوح، ومصاب بالسكر والضغط، لكنني أحاول أن أدبر حالي وأصبر على الآلام حتى نعود إلى غزة؛ فما يهمنا في الوقت الحالي هو توفير الضروريات من الحياة في ظل المعاناة التي نعيشها.

وأضاف: أشتاق إلى أولادي في غزة؛ فأنا لي ١١ ابناً وابنة، لا أعرف حالهم الآن، والقصف الصهيوني فوق رؤوسهم ليلَ نهار؛ حيث أسكن في غزة في بيت متواضع ذي سقف متهاوٍ.

• العيد الحزين:

بكلمات تخنقها الدموع، بدأت (أم إياد) حديثها قائلة: كل ما أرجوه من المولى - عز وجل - ألا يصيب زوجي مكروه ونحن عالقون هنا في مصر؛ فزوجي مريض بعدة أمراض، وأسأل الله أن يبقيه ليعول هذه الأسرة الممتحنة والضعيفة.

وبحزن شديد تقول أم إياد: إن أقسى يومين مرّا علينا هنا في العريش هما: يوما عيد الفطر وعيد الأضحى؛ فلم أذق فيهما طعم فرحة العيد. كان حلقي يغص بالمرارة؛ فقد تذكرت ابنتي الكبرى المريضة وبكيت عليها طويلاً لخشيتي أن يصيبها مكروه، ولا أدري هل أخواتها الصغيرات يستطعن العناية بها أم لا؟ أخشى أن تكون تاهت. تأتيني كثيراً الأفكار السوداوية، وأظل أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

أما عن الناحية المالية؛ فهي متردية؛ لأننا عدنا من عمرة ولم نكن نستصحب الكثير من المال، وما كان معنا من نقود قليلة نفدت، وأصبحنا نعيش بشكل كامل على الدعم الإغاثي.

نتوصل إلى هذه النتائج المحزنة من كلام العالقين في العريش من الفلسطينين، فهذا يقول: السفارة الفلسطينية تخلّت عنا، وأبناؤنا حُرِموا من استكمال دراستهم. وآخر يتحدث: المصريون رحبوا بنا، غير أن بعضهم استغل ظروفنا وخضعنا للابتزاز. وهذا يكشف حكاية المعابر؛ حيث فُتِحت أكثر من مرة، ولم يمر غير القادرين على دفع الرشى. وذاك يقول: أغلبنا يحتاج إلى رعاية طبية، لكننا نتحامل على أنفسنا حتى نعود للوطن. وهذا يتحدث بحرقة وألم قائلاً: الأطفال يبكون كلما رأوا أندادهم المصريين متجهين للمدارس. وهذا يكشف حال العالقين في قضاء وقتهم فيقول: نقضي أوقاتنا ما بين اللجنة والبحر والتلفاز لمتابعة نشرات الأخبار. وبعضهم يقولون: ساءت أحوالنا النفسية، وانعكس ذلك على علاقتنا بالأزواج والأطفال!

• هل ساعدت السلطة الفلسطينيّة في إبقاء الحصار على قطاع غزة؟

هناك سؤال من الضروري أن يُطرح في هذا التحقيق: هل حقاً ساعدت السلطة الفلسطينية في رام الله ممثلة بحكومة سلام فياض في إبقاء الحصار المشدد على قطاع غزة؟ وكيف عملت السلطة هنا على جعل حياة أهل غزة جحيماً لدفعهم للانقلاب على حكومة حماس وإسقاطها؟ أم أنَّ هذه مجرد اتهامات سعت حركة حماس لإلصاقها بقيادة رام الله لتغطية عجزها في مواجهة الحصار الذي فرضه العالم على مليون ونصف مليون فلسطيني في قطاع غزة؟ فهل من دليل؟ ربما تجد الدليل فيما بعد من خلال بعض

المواقف التي مرت وستمر في هذا التحقيق.

• أزمة حجاج غزة:

بدأنا حديثنا مع الدكتور يحيى موسى، وهو عضو في المجلس التشريعي عن حركة حماس ونائب رئيس كتلتها البرلمانية، بشأن أزمة حجاج غزة، وهل كان للسلطة دور في ذلك؟ فأجاب: إن مشاركة سلطة رام الله في حصار قطاع غزة لم يعد تحليلاً، بل بات حقيقة دامغة تثبتها كل الوقائع على الأرض!

وأضاف قائلاً عن إدانة سُلطة (رام الله) في حصار غزة: في البداية قام وزير الأوقاف في الحكومة غير الشرعية في رام الله بسحب الاعتراف بمنسق بعثة الحجاج التي اعتمدتها حكومة الوحدة الوطنية لدى السلطات السعودية.

وتابع موسى: «قام مع الأسف وزير الأوقاف في حكومة رام الله بالاتصال مع صاحب شركة الباصات التي اتُّفِقَ معها على نقل حجاج غزة من الأراضي المصرية إلى السعودية من قِبَل حكومة إسماعيل هنية، وطلب منه عدم نقل الحجاج مقابل دفع تعويضات مالية باهظة له، إلا أنه رفض».

ويقول موسى: إن وزير الأوقاف طلب من السلطات السعودية أثناء مناسك الحج فصْلَ حجاج غزة عن إخوانهم حجاج الضفة الغربية؛ بحجة أنه يخشى وقوع مذبحة بين الحجاج! فإلى الله المشتكى.

• قطعُ الرواتب حصارٌ أيضاً:

قطعت حكومة (فياض) رواتب أكثر من ٢٠ ألف موظف، منهم مئات الأطباء في المستشفيات الحكومية وممرضون ومعلمون في المدارس الحكومية، حتى نال قطع الراتب أعضاء في المجلس التشريعي وبعض قوى الأمن الفلسطينية، وموظفي البلديات وقطاع الخدمات العامة.

وبحسب موسى؛ فإن هذه السياسة كان لها هدف وحيد هو إثقال كاهل ميزانية حكومة السيد إسماعيل هنية، وافتعال أزمة سيولة مادية؛ حتى لا تكون قادرة على إدارة شؤونها الذاتية.

• منع الاستيراد والتصدير:

كما منعت حكومة رام الله حركة الاستيراد والتصدير من وإلى قطاع غزة، مكبِّدة مئات المزارعين خسائر مادية فادحة، بحجة رفض الدولة الصهيونية فتحَ المعابر التجارية.

• مليارات باريس وحصار غزة:

ذهب سلام فياض وطاقم حكومته إلى مؤتمر المانحين في باريس وفي جعبتهم خطة سمَّوها في حينه (خطة التنمية الوطنية الشاملة) من أجل إقناع أكثر من ٩٠ دولة ومؤسسة مالية حضرت المؤتمر بتمويل نفقات السلطة الفلسطينية في رام الله، ودعم الاقتصاد الفلسطيني، ولكن هذه المرة باستثناء قطاع غزة.

واتهمت في حينه شبكةُ المنظمات الأهلية الفلسطينية في مؤتمر صحفي عقدته في رام الله قبيل انعقاد المؤتمر؛ حكومةَ فياض بحرمان قطاع غزة من هذه الخطة.

واعترف لاحقاً وزير الخارجية ووزير الإعلام رياض المالكي في حينه، بأن الحكومة استثنت قطاع غزة من خطة التنمية؛ بسبب سلطة الأمر الواقع في قطاع غزة، في إشارة إلى سيطرة حركة حماس في شهر حزيران الماضي.

وتلقت السلطة الفلسطينية وعوداً بالحصول على مساعدات بقيمة (٧,٤) مليارات دولار على مدى ثلاث سنوات، وهو مبلغ يفوق مبلغ الـ ٥,٦ مليارات دولار التي كان قد طالَب بها عباس.

• الفقر.. انخفاض في الضفة وارتفاع في غزة:

تشير التقديرات إلى انخفاض معدلات الفقر في الضفة الغربية وارتفاعها في قطاع غزة خلال عام ٢٠٠٧م مقارنة بعام ٢٠٠٦م، حيث ازدادت نِسَب الفقر على مستوى الأراضي الفلسطينية بنسبة ٥,٨٪ خلال العام ٢٠٠٧ مقارنة بعام ٢٠٠٦م، في المقابل انخفضت في الضفة الغربية بنسبة ١١,٣٪ في حين ارتفعت في قطاع غزة بنسبة ٧,٩٪.

أما فيما يتعلق بفجوة الفقر بين الأسر، والتي تقيس قيمة المبالغ التي تحتاجها الأُسر لإخراجها من حالة الفقر؛ يلاحظ ارتفاع معدل فجوة الفقر بشكل عام وانخفاضها في الضفة الغربية وارتفاعها في قطاع غزة؛ حيث ارتفعت في الأراضي الفلسطينية بنسبة ٩,٦٪ في حين انخفضت في الضفة الغربية بنسبة ١٨٪، بينما ارتفعت في قطاع غزة

بنسبة ١٤,٩٪. وتشير التقديرات الأولية إلى أننا بحاجة إلى توفير ما لا يقل عن ٣٨٦ مليون دولار سنوياً من أجل رفع مستوى الفقراء، ليصبحوا على عتبة الفقر (بواقع ١٤٠ مليون دولار للضفة الغربية، و ٢٤٦ مليون دولار لقطاع غزة).

• عقاب غزة:

يقول الكاتب والمحلل الفلسطيني عماد عفانة: إنه لم يعد أحد يشك بأن ثمة من يريد تعذيب غزة وأهلها حتى الموت، وذلك منذ ارتكبت غزة (خطيئتها) وانتخبت جماهيرُها حركة حماس، والدليل هذه المعاناة المستمرة لأهلها؛ فالمرضى يموتون بلا دواء، والمصانع تتجمد بلا مواد، والزراعة تذوي بلا تصدير، والعالقون كانوا قبل حماس وما زالوا، ويضاف إليهم الحجاج الذين ذهبوا طلباً للمغفرة من الخالق الذين انضموا إلى طوابير المعذبين من حصار الأذناب، قبل أن يُسمح لهم بالعبور.

وتابع عفانة: إنه لا شك أن ثمة من يريد لغزة أن تموت حصاراً وللحجاج أن يتوبوا عن الحج؛ لأنهم لم يخرجوا من بوابات الاحتلال في (إيريز)، ولم ينسِّق لخرجوهم (دايتون) الذي لم يستطع حمايتهم من رصاص الحقد والغدر؛ الذي أردى منهم الحاجّة خلدية أحمد حمدان (٤٠ عاماً) من مخيم جباليا. وهذا العمل الهدام المدمر الذي يُلحِق الأذى بعامة الناس ولا يضير أمراء الكانتونات وأباطرة أجهزة (دايتون) الأمنية، ممتشقيّ الغدر شعاراً.

• (محامون بلا حدود) ضد عباس:

لم يعد خافياً حتى على المنظمات الدولية مشاركةُ السلطة في رام الله في مؤامرة الحصار الاقتصادي والسياسي على قطاع غزة.

فقد اتهمت منظمة «محامون بلا حدود» الدولية ومقرها لندن الرئيس الفلسطيني (محمود عباس) بالتواطؤ في «المؤامرة الصهيونية» من خلال سعيه إلى استمرار معاناة الحجاج الفلسطينيين والعالقين على الحدود المصرية في حينه.

واعتبر طه أن عباساً يخطئ كثيراً في حق القضية والشعب الفلسطيني حين يريد فرض طريقته - التي وصفها بـ «المداهنة» - على الجميع.

• خطة (دايتون) في حصار غزة:

قرر (دايتون) أن يشُنَّ حرباً على حماس وكل المقاومين الفلسطينيين من مختلف الفصائل الفلسطينية، ومن ذلك:

١ - تعزيز التنسيق الأمني بين الحكومة الصهيونية والأجهزة الأمنية الفلسطينية، والإصرار على علانيته، وإلزام القيادة الفلسطينية بوصفه عملاً مشروعاً ومطلوباً من أجل المصلحة الوطنية الفلسطينية.

التنسيق الأمني عبارة عن مادة واضحة للعيان وتمارس يومياً؛ فمثلاً في هذه الأيام تتبادل الأجهزة الأمنية والدولة الصهيونية الأدوار في القيام بالمهام الأمنية، ومن المحتمل جداً أن يكون النشاط الأمني مشترَكاً مستقبلاً. كما تقوم السلطة مثلاً باعتقال بعض أفراد حماس، وبعد ذلك تدخل القوات الصهيونية لتعتقل أفراداً من فتح؛ أو تفرج السلطة عن معتقل فلسطيني لتقوم الدولة الصهيونية باعتقاله في اليوم التالي.

٢ - تنسيق الأدوار في غزة بهدف إسقاط حكومة حماس؛ إما من خلال القوة أو من خلال التمرد الشعبي، ويقوم هذا على المحاور التالية:

أ - تشديد الحصار الاقتصادي والمالي على غزة إلى الدرجة التي لا يتهاوى فيها الناس جوعاً وعرياً. هذا عبارة عن مجهود عالمي تشارك فيه بعض الدول العربية والسلطة الفلسطينية والدولة الصهيونية والدول الغربية.

ب - تهديد الاستقرار الداخلي في غزة من خلال اغتيالات وأعمالِ تفجيرٍ واصطناع الأحداث، بحيث تبقى حماس مشغولة بهموم يومية متعلقة بالأمن الداخلي المدني للناس، ويبقى الناس في حالة توتر قد تقودهم إلى التمرد على حماس. وقد قامت فئات بأعمال من هذا القبيل في غزة، وقُبض مؤخراً على أفراد حاولوا زرع عبوة في احتفال الحجاج، وعلى شخص كان يحمل حزاماً ناسفاً.

ج - تكثيف الأعمال العسكرية الصهيونية لتنالَ كوادر وأفراداً، وقيادات ومؤسسات ومراكز تابعة لحماس والجهاد الإسلامي، ولجان المقاومة الشعبية؛ وذلك من أجل تكبيد الناس خسائر كبيرة تدفعها إلى التساؤل عن صلاحية



حماس للقيادة والبقاء في الحكم.

هــذا ما نشــهده على مدى أشــهر في غــزة، والذي زادت وتيرتــه في الآونة الأخيرة ولا ســيما بعد زيارة بوش للمنطقة.

من خلال محاور العمل هذه، يأمل الصهاينة والأمريكيون وفلسطينيون أن يثور الناس في غزة، أي: أن أمريكا والدولة الصهيونية تســتعملان هموم النــاس وآلامهم وأحزانهم من أجل تحقيق أغراض سياســية. وهذا هو الإرهاب بعينه وفق تعريفهما للإرهاب!

بهذا يحاول الصهاينة وأمريكا إلغاءَ حماس وضرب بُناها التحتية، وتوفير الأجواء السياســية والاجتماعية المناســبة لقيادة فلسطينية جديدة تتمشى تماماً مع المشروع الأمريكي الصهيوني. ولم يعد هناك فكر ديمقراطي متداول في الضفة الغربيــة، وإنما هناك الآن أدوات وأســاليب للقمع وانتهاك للحريات وإسكات للناس، تُوظَّف وســائل الإعلام المحلية لخدمة هذا الغرض. ومن المهم الإشــارة هنا إلى أن وسائل الإعلام لا تعترض ولا يخــرج منها صوت يصرخ دفاعاً عن حرية الشعب الفلسطيني!

• رؤية د. عبد الستار قاسم:

وهو أســتاذ في العلوم السياسية، قال في حديث خاص مع البيان: إن من بين الدلائل التي تثبت تورط سلطة رام الله فــي حصار غزة؛ هو ما قام به مندوب فلســطين في الأمم المتحدة السفير (رياض منصور) بإحباطه مشروع قرار يدين الحصار المفروض على قطاع غزة .

ويضيــف قائلاً: توقعت قبل أشــهر أن تفشــل الدولة الصهيونية والولايات المتحدة والســلطة في سياستهم تجاه قطــاع غزة، وهذا ما حصل بالفعل قبــل أيام؛ عندما خرج الســكان في سيول بشــرية جارفة هدمت السور الحديدي الذي يفصل غزة عن مصر، ومن ثم تكون قد كسرت الحصار الوحشي الذي فرض عليهم لأكثر من نصف سنة.

وأضاف قائلاً: «مــا قامت به الجماهير الفلســطينية في غــزة هو تحطيم نهائي ليس فقــط للحصار، بل لفكرة الحصار، والذي لن يعود - إن شــاء الله - مجدداً بأي شكل



أو في أي وقت كان؛ لأنها سياسة ثبت فشلها بل عقمها، وفي كل مرة ســتجد أن الناس سيهزمون الحصار بالاستفادة من تجربة غزة».

• من أواخر المشاهد تواطؤ عباس مع الصهاينة:

كشفت مجلة الراية العمانية يوم الأحد الموافق ٢٧ كانون الثاني لعام ٢٠٠٨م، أنَّ مصادر مقربة من الوفد الفلسطيني المفــاوض أفــادت بأن الرئيس الفلســطيني محمود عباس - خلال لقائه اليــوم برئيس الــوزراء الصهيوني أولمرت - طَلَب منه أن يطلب من أمريــكا الضغط على مصر لإغلاق معبر رفح. ويشــار إلى أن فتْح معبر رفح قد أحرج السلطة الفلســطينية؛ لأنها كانت قد تقدمت بطلب استلامها إدارة المعابر الفلســطينية؛ ومنها معبر رفح. وجاءت هذه الصفعة الثانية للســلطة الفلسطينية من قِبَل مصر، في وقت يشوب العلاقات فيه بين مصر والســلطة الفلســطينية شــيء من التوتر، ولا ســيما بعد طلب مصر عودة الحوار بين حركتي فتح وحماس ولقائهما في القاهرة، غير أن حركة فتح رفضت هذا الطلب ورفضت الحوار مع حركة حماس.

وقد كانت الصفعة الأولى التي تلقتها الســلطة الفلسطينية من مصر هي رفــض مصر طلباً للرئيس الفلســطيني محمود عباس بتعيين نبيل عمرو سفيراً للسلطة الفلسطينية في مصر.

• الحصار، وكيفيَّة إنهاء هذه المعاناة:

لعــلَّ ســائلاً يقــول: ولمــاذا كــل هذا الحصار على أكثــر من مليــون شــخص يعيشــون في أكبر ســجن في العالــم - نقصد قطاع غزة - الذي لا تتجاوز مســاحته من فلســطين إلاَّ واحداً ونصفاً من المائة من مســاحة الأراضي الفلسطينيَّة؟

• لماذا الحصار:

بهذا السـؤال توجهنا إلى الأسـتاذ طلعت رميح رئيس تحرير دورية (إستراتيجيات)؛ حيث أكد على ضرورة النظر إلى ما يجري في غزة على أنه حرب اقتصادية وليس حصاراً اقتصادياً، والفرق بين المفهومين أساسي؛ لأننا إذا قلنا: إنها حرب اقتصادية؛ فهذا يعني أنها جزء من الصراع في طبيعته الإستراتيجية، ولا يرتبط ببعض مجريات الأحداث السياسية لغـزة. وإذا قلنا: إنها مجرد حصـار؛ فهذا تقزيم لما يجري، وإهمال لأدوات وآليات كثيرة تجري في الحرب الاقتصادية. والتسـمية الخاصة بالحصـار مقصود بها إظهـار البعد السياسـي فقط، بينما التسمية باعتبارها حرباً يطرح البعد السياسـي والعسكري والاقتصادي دفعة واحدة. فما يحدث في غزة هو جزء من مشـروع الهيمنة والسيطرة الصهيونية، وجزء من الحرب المتبادلة لتحرير فلسطين.

- أما أسـباب ما يجري في غزة الآن، فيقول الاسـتاذ طلعت رميح: الأسـباب في تقديري تحديداً هي أن ما جرى في أنابوليس وما تبعه من مفاوضات بين عباس والسـلطة الصهيونية؛ شكّلت إطاراً وغطاء لانطلاق العدوان على غزة، حيث تُعدُّ غزة هي المشـكلة التي تعيـق تنفيذ رؤية الرئيس بوش، وأن وضعها الراهن يمنع فكرة الدولة الفلسطينية، وأن سـيطرة حماس على غزة هو ما لا يُمكّن محمود عباس من المضيّ في المفاوضات. لذلك؛ أصبحت الخطة الصهيونية هي التحـول باتجاه إحداث حالة فوضى عارمة في غزة، مع قتل رمز الشرعية التنفيذية الفلسطينية إسماعيل هنية؛ لإسقاط فكرة وجود حكومتين، ومن ثم تسـليم غزة بيدٍ صهيونية إلى محمود عباس تحت غطاء فكرة مواصلة المفاوضات.

- في السـياق ذاته، يؤكد الأستاذ جمال سلطان رئيس تحرير مجلة المنار الجديد أن هناك هدفاً إستراتيجياً كبيراً وراء هذا الحصار الذي بدأ منذ تولي حماس السـلطة، وهو إضعاف حماس وتأليب الشـارع الفلسطيني في غزة عليها، وإشـعارهم بأن تولي حماس القيادة يعني المزيد من العذاب والحيـاة الصعبة والحصـار والمعاناة. وهـذا الهدف، وهو صهيوني أمريكي وجد - للأسف - هوى عند بعض قادة حركة فتح الذين شـاركوا في هذا الحصار من جهة قطع الرواتب عن الموظفين في غزة. ونفى الأستاذ جمال أن يكون الحصار مجرَّد ردٍّ على إطلاق الصواريخ؛ فالسياسة الصهيونية دائماً لا تحتاج لذرائع لارتكاب الجرائم، وإنما سياستها دائماً هي ارتكاب الجرائم كلما سـنحت لها الفرصة؛ فسـواء قاومت أم لم تقاوم فهي سـتفعل ذلك، وحروبها دائماً كانت حروباً عدوانية، وحروباً - بالمعنى العسكري - استباقية، فالصهاينة لم ينتظـروا ذريعة للقيام بهذه الجريمـة. لكن ذلك كله لن يؤتي ثمارَه؛ لأن الشـعب الفلسـطيني تمـرّس على المعاناة والحصار، وأصبح عنده قدرة ومراس على مواجهة مثل هذه التحديات.

• وسائل لتخفيف الحصار:

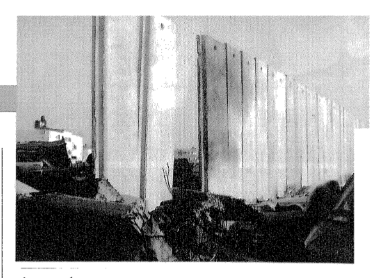
ما العمل؟ وما الوسائل التي يمكن اتباعها للتخفيف من وطأة الحصار عن أهالي قطاع غزة؟

سـؤال طرحته البيان على ثلة من العلماء والأكاديميين الفلسطينيين وغيرهم، علها تجد جواباً يساعد أهالي القطاع في التغلب ولو جزئياً على معاناة الحصار.

الداعية الدكتور (وائل الزرد) إمام المسجد العمري الكبير في مدينة غزة، اعتبر أن مزيداً من الفعاليات الشعبية للأمة العربية والإسلامية خارج فلسطين للضغط على الحكومات العربية مطلوب للمساعدة في فك الحصار ولا سيما المجاور لفلسـطين كجمهورية مصر العربية، وقال: «يجب أن يتنادى أحرار العالم سـواء كانوا مسـلمين أو غير مسلمين لكسر الحصار».

ويضيـف فضيلته: إن واجباً كبيـراً يقع على عاتق كبار العلماء في العالم الإسـلامي؛ كأن يقومـوا بعقد مؤتمرات جادة ويتبنّوا توصيات تهدف لكسـر الحصار المفروض على الشعب الفلسـطيني. وهذا ما لمسناه من مصر جزاهم الله خيراً.

كما يرى الأسـتاذ الدكتور (يونس الأسطل) عميد كلية الشريعة في الجامعة الإسلامية سـابقاً، أن سلاح التكافل هو أهم سلاح يمكن أن يواجه فيه الغزاويون الحصار الجائر المحيط بهم «فلو تكافل الفلسطينيـون وحدهـم لما كان هناك



حاجة للدعم الخارجي سواء أكان ذلك عربياً أم أجنبياً أو حتى إسلامياً، لأن كثيراً من الفلسطينيين سواء أكانوا بالداخل أم الخارج هم من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، بحكم أن درجة الكفاية لا تحتاج إلى كثير من المال؛ فلو حصل تكافل داخل الأسرة الفلسطينية الكبيرة لما كنا بحاجة إلى الدعم الخارجي».

ويضيف الدكتور يونس أن التكافل في فلسطين وقطاع غزة هو تكافل جزئي؛ «لأن الذين يقومون به هم المتدينون الذين يرجون الأجر من الله تعالى، ويبحثون عن الجنة في الغالب، وهؤلاء لا يستطيعون كفاية الشعب الفلسطيني بأسْرِه».

كما لم يُعفِ الدكتور الأسطل الأمة الإسلامية من مسؤوليتها، بتوفير أسباب العيش الكريم وأسباب الصمود للفلسطينيين، وإمدادهم بأسباب القوة التي تجعلهم قادرين على مشاغلة العدو وإقلاق أمنه ومناكفته؛ لكي لا يكون الاحتلال رخيصاً وسهلاً؛ ولأن العدو يهدف إلى ابتلاع المنطقة كلها؛ فهدفه الشرق الأوسط الكبير وليس فلسطين وحدها».

الأكاديمي والتربوي الفلسطيني الدكتور (داود حلس) رأى أن أول خطوة لكسر الحصار تأتي من الداخل الفلسطيني نفسه، بتعاون جميع الفصائل الفلسطينية والتفاف الشعب حول القيادة الفلسطينية الحقيقية؛ «فالمحنة التي نحن فيها تحتاج إلى صبر».

• علماء ومفكرون مصريون يدلون برأيهم لطرق كسر الحصار:

بشأن دور العلماء والدعاة في كسر الحصار؛ يقول الدكتور جمال المراكبي رئيس جمعية أنصار السنة: «دور العلماء هو الإرشاد والتوجيه؛ فعليهم مخاطبة الرأي العام والحكومات لإيقاظ الأمة وتحريكها؛ فلا نريد مجرد صراخ اعتاد العدو عليه، لكن نريد عملاً ودعماً حقيقياً؛ فلو قاطعت الشعوب بشكل حقيقي بضائع العدو وبحثت عن البدائل، ولو أخرج كل فرد جنيهاً واحداً فقط لدعم إخواننا؛ فعلى الأقل نلقى ربنا وقد أدينا بعض ما علينا، ونقول: معذرة إلى ربكم. ولا سيما أن الشعوب ليس لديها الحرج والحسابات السياسية مثل الحكومات؛ فعلى الشعوب أن تعلن ولاءها لإخوانهم الممتَحَنين وتعلن عداءها لليهود. والمطلوب من خطبائنا في المساجد دعوة الناس للتبرع، وما زالت حسابات الهلال الأحمر مفتوحة لصالح إخواننا في فلسطين».

وأضاف الدكتور المراكبي: وأطالب أهل غزة بالصبر والثبات والوحدة والتعاون. يقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الأشعريين إذا أَرْمَلُوا في الغزو، أو قَلَّ طعام عيالهم بالمدينة؛ جعلوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقْتَسَمُوهُ بينهم في إناء واحد بِالسَّوِيَّةِ؛ فهم مِنِّي وأنا منهم». وهذا الثبات سيحرج العدو والعالم والحكومات العربية، وفي الوقت ذاته سيحرك الشارع الإسلامي ويدفعه لدعم إخوانه. وقبل ذلك كله؛ فالثبات مقدمة للتثبيت من عند الله تعالى، فالثبات يبدأ من عندك، ثم يأتي التثبيت من عند الله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ٢١].

إلى هنا ينتهي بنا التطواف بين محاور هذا التحقيق، الذي نرجو أن يكون متكاملاً. وهو وإن كان طويلاً في العرض؛ فإنَّ تدوين حادثة حصار أهل غزة خلال الشهور السبعة الماضية لو كتبت بالمداد، وذُكِرت كل واقعة بعينها وحالة كل إنسان في قطاع غزة أو العالقين في المعابر؛ لَفاقت كتابة تلك المأساة مئات المجلدات بدون مبالغة، ولكن ما لا يُدرَك كُلُّه لا يُترَكُ جُلُّه، وحسبنا أنَّنا وضعنا القارئ الكريم أمام هذه الصورة المؤلمة واللوحة المحزنة من لوحات وتاريخ الشعب الفلسطيني، لعلَّها تحرك نخوة مسلم يقوم بنصرة إخوانه قدر طاقته واستطاعته! إنه لا يضيع جزاء من أحسن عملاً.



خالد مشعل في حوار خاص مع البيان:

الدولة الفلسطينية لن تأتي إلا عبر الجهاد والمقاومة

حاوره: عبد الله بدر العلوان

الأستاذ خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، قامة عملاقة من قامات القضية الفلسطينية، ورمز من رموز الجهاد والعطاء والتضحية، تميز خطابه السياسي بالقوة والأصالة، وأصبح علماً بارزاً على وضوح الرؤية وصفاء التوجه.

ويسعدنا في مجلة البيان أن نجري معه هذا الحوار:

البيان: ماذا بعد (أنابوليس) والآمال التي عُقِدت عليه من المشاركين، والموقف بشأن ما صدر عنه من قرارات؟

■ نحن في حركة حماس، وأعتقد كذلك غالبية القوى الفلسطينية، كان لنا موقف واضح من مؤتمر (أنابوليس)، بأنه ليس جاداً، وأن أمريكا ليست منشغلة بهموم الأمة، ولا حتى بالصراع العربي الصهيوني، وهي معنية فقط بأمن الصهاينة وبأولويات أخرى في المنطقة، خاصة في ظل هزيمتها المنكرة في العراق. وهذا الاهتمام المفاجئ جاء بصورة مريبة من طرف الرئيس بوش من أجل تكريس الانقسام الفلسطيني بعد أحداث حزيران الماضي في غزة.

باختصار: أمريكا ليست جادة ولا تملك الإرادة لكي تجبر الكيان الصهيوني على احترام الحقوق الفلسطينية العربية، ولذلك لا نتوقع شيئاً من (أنابوليس)، وأعتقد أن العرب حتى الذين حضروا (أنابوليس) مصابون بخيبة أمل من ذلك المؤتمر.

البيان: جرى اتفاق بين حكومة أولمرت وحكومة عباس حول إحياء عملية السلام المجمدة والسعي لإيجاد تسوية سلمية بحلول نهاية عام ٢٠٠٨م؛ فهل ترون ذلك ممكناً؟ وهل هذا هو وقت السلام حقاً؟

■ لا يمكن حصول السلام المزعوم؛ لأن الموقف الصهيوني واضح؛ فأولمرت متمسك بلاءات شارون التي أعلنها منذ سنوات (لا للقدس، لا لحق العودة، لا لتفكيك الاستيطان، لا لحدود ٦٧)، فماذا بقي من وعد بوش في الدولة الفلسطينية؟

الحقيقة أن هذا كله استنزاف لمعنويات الأمة واستنزاف للوقت واستنزاف للحقوق، وذلك مجرد علاقات عامة المستفيد الأول منها أولمرت وبوش لا غير. أمَّا نحن - الفلسطينيين والعرب - فخاسرون في هذه المفاوضات العبثية، وأولمرت قال عن موضوع التوقيت بعد (أنابوليس): ليس بالضرورة أن ينتهي التفاوض وينتهي الاتفاق على تسوية مع نهاية عام ٢٠٠٨م؛ فكل شيء يتنصلون منه؛ لأنه - كما قال الهالك رابين -: لا مواعيد مقدسة؛ فالصهاينة لا مواعيد مقدسة عندهم، ولا وعود مقدسة لهم. قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ [البقرة: ١٠٠]، فهذا هو السلوك الصهيوني على مدار التاريخ.

البيان: افتتح بوش مؤتمر (أنابوليس) بكلمات منها أن علينا «أن نحقق الانتصار على المتطرفين الذين يسعون

ـ الشعب الفلسطيني سيبقى يقاوم المحتلين سواء وقف العالم معه أم لم يقف.. قامت الأمة بواجبها أم لم تقم.

ـ لعبة المفاوضات تخفي في طياتها الحرب على المقاومة وتشديد الحصار على غزة.

ـ الأموال التي أعطيت للفلسطينيين في باريس سُحْتٌ لم تذهب للشعب الفلسطيني

لفرض رؤيتهم على الشعب الفلسطيني» وحذّر من نشوب حرب إذا سيطرت هذه (الرؤية)! وطالب الفلسطينيين (بتفكيك البنية التحتية للإرهاب)؛ فما الملامح التي ترون أن السياسة الأمريكية ستسير عليها تجاه المقاومة الفلسطينية ولا سيما تجاه حماس؟

■ كان اجتماع (أنابوليس) مركّزاً على عنوانين فقط وفق الرؤيا الأمريكية الصهيونية، ويشغلان الذهنية الأمريكية والصهيونية:

أولاً: الحرب على الإرهاب، أي: الحرب على المقاومة.

وثانياً: دعوة العرب إلى التطبيع المجاني مع الصهاينة.

هذا ما يشغل الصهاينة والأمريكان، فلا يشغلهم الاحتلال لأرضنا، ولا المعاناة الفلسطينية، ولا المعاناة العراقية، ولا معاناة الأمة جمعاء، ولا حتى استرجاع الحقوق العربية والفلسطينية. وعلى ضوء هذه الحالة، كان التركيز الأمريكي اليوم، سواء في (أنابوليس) أو بعد (أنابوليس) أو في جولة بوش للمنطقة، منصبّاً على الدعوة إلى الحرب على المقاومة الفلسطينية وعلى سلاح المقاومة وحماس. ولذلك حشروا المقاوم الفلسطيني في الضفة الغربية في تطبيق خارطة الطريق.

وخارطة الطريق فيها شق أمني، يعني: ضرب المقاومة الفلسطينية ونزع سلاحها، وملاحقة المجاهدين واعتقالهم، وضرب ما يسمى بالبنى التحتية للمقاومة، حتى وصلوا إلى إغلاق لجان الزكاة والمؤسسات الخيرية والاجتماعية والبلديات وغيروا هيئاتها الإدارية. هم ينفذون كل ما هو مطلوب أمريكياً وصهيونياً، مما يدمر بنية المجتمع الفلسطيني، ويضر بالنسيج الاجتماعي والوطني الفلسطيني، فهذا هو العنوان الأكبر (الحرب على الإرهاب).

من هنا نقول: على العرب والمسلمين أن يدركوا خطورة ما يجري، وخطورة هذه اللعبة المضللة، لعبة التسوية، أو لعبة (أنابوليس)، ولعبة المفاوضات؛ لأنها تخفي في طياتها خطراً شديداً وهو الحرب على المقاومة، وإعلان الحرب على الشعب الفلسطيني، وتشديد الحصار على غزة. ولذلك ماذا فعل أولمرت بعد (أنابوليس)؟ وسّع الاستيطان في الضفة الغربية لا سيما في القدس، ومضى في سياسته في تهويد القدس والحفريات تحت المسجد الأقصى المبارك، وشدد الحصار على غزة، وشدد العدوان والاجتياحات عليها، والمجازر متوالية كما رأينا في مجزرة حي الزيتون.

البيان: قلتم: إن الرئيس (محمود عباس) لا يملك التفويض لإدارة مفاوضات من هذا النوع. لكن، ألا ترى أن الكثير من هذه التصريحات اصطدمت في النهاية بالأمر الواقع، وأُقِرت مشروعات واتفاقات كبيرة وكثيرة رغماً عن الشعب والمعارضين لها؟

■ أولاً: الحقيقة أن محمود عباس ليس موكّلاً بالتفاوض؛ لأن الاتفاق الذي جرى في وثيقة الاتفاق الوطني بيننا – نحن الفلسطينين والقوة المقاومة عام ٢٠٠٦م – كان توافقاً مرتبطاً بشروط معينة وبضوابط ومحددات معينة، وقد تنصّل منها (محمود عباس) بعد حالة الانقسام الفلسطيني، ومن ثم هذه تصبح ساقطة ولا أحد يلتزم بها. هذا من حيث القانون، لا سيما في ظل تعطيل المجلس التشريعي، وغياب مؤسسات منظمة التحرير المهمشة ديمقراطياً والمعطلة، وتستخدم اليوم استخداماً. إذن ليس هناك اليوم مرجعية في الساحة الفلسطينية يحتكم الفلسطينيون إليها في ظل الانقسام الفلسطيني، هذا من حيث المبدأ والقانون.

أما من حيث الواقع السياسي؛ فلا يعقل أن ينفرد أحد في الساحة الفلسطينية بالمفاوضة على الحقوق الفلسطينية في ظل الانقسام الفلسطيني، هذا لا يحدث في أي دولة في العالم؛ لأن أي قيادة تفاوض أو تتحرك سياسياً أو دبلوماسياً تستند إلى وحدة وطنية، حتى عدونا الصهيوني عندما تقوم الحكومة الصهيونية (ولو كانت مشكلة من حزب أو حزبين) بقضايا مصيرية؛ فإنها تعود إلى مجمل القوى الصهيونية بما فيها المعارضة، وتعود إلى الكنيست، وتعود أحياناً إلى الاستفتاء؛ فكيف يتجرأ طرفٌ ما في الساحة الفلسطينية لكي يستغل الانقسام الفلسطيني في الهرولة بعيداً نحو التفاوض مع العدو الصهيوني، وهو ضعيف لأنه لا يستند إلى الوحدة الوطنية، ولا إلى صف وطني موحد في الساحة الفلسطينية؟ فإذن هذا ليس مقبولاً بالقانون، ولا بالمنطق

السياسي، ولا بالواقع، ولا بتجارب الشعوب الأخرى. أما أن هذا الذي نقوله يصطدم بالأمر الواقع فهذا صحيح.

ولكن هذه هي المغالَبة؛ فمَنْ قال إننا نتحرك على أرض مفروشة بالسجاد أو بالورود؟ نحن نتحرك في واقع صعب، والحياة مغالَبة، ولكن انظر إلى السنوات الماضية ما محصلتها؟ المغالَبة الفلسطينية التي تقوم بها حماس وقوى المقاومة دائماً - بفضل الله تعالى - تمنع التفريط وأي تسويات ظالمة ومجحفة، وتمنع أي مؤامرة أمريكية أو صهيونية من أن تُفرَض على شعبنا، أو على قضيتنا أو أُمتنا.

فهذا يدل على أن مغالَبة الشعب الفلسطيني مؤثِّرة. نعم! قد تحاول أمريكا أن تعطي الشرعية لطرفٍ فلسطيني ما مثل محمود عباس، وأن تدعمه بالمال وبالسلاح وبكل شيء، وأن تتنكر للديمقراطية الفلسطينية ولنتائج الانتخابات الفلسطينية، لكن ماذا ستفعل بعد ذلك؟ ستقف عاجزة، فمواقفنا ودفاعنا عن حقوق شعبنا وإعلاننا عن مواقفنا الواضحة، وتمسكنا بحقوق شعبنا وبالمنطق الوطني وبخيار المقاومة، والتمسك بأرضنا الفلسطينية ومقدساتنا؛ في النهاية سينحاز الشعب لها. وفي النهاية ينكشف الطرف الآخر، ومن ثم لا شيء يتحقق.

انظر: منذ مدريد عام ٩١ إلى الآن، ١٧ عاماً - بفضل الله تعالى - على الرغم من كل محاولات تصفية القضية الفلسطينية فلم تفلح، على الرغم من تفوق أمريكا وتفوق العدو الصهيوني، ودعمهم لبعض الأطراف في المنطقة، ولماذا ذلك؟ لأن قوى الممانعة، وقوى المقاومة، وقوى الجهاد، وقوى الأصالة الوطنية الفلسطينية - بحمد الله - على الرغم من اختلال ميزان القوى؛ دائماً ما تفلح في منع تصفية القضية، وفي إفشال كل المؤامرات.

البيان: ما استشرافكم لمستقبل حكومة (هنية) في ظل استمرار الحصار؟ وهل لهذه الحكومة مقومات البقاء مع استمرار ذلك الحصار؟

■ هذه الحالة غير طبيعية، ولا نزعم أن هذه اللحظة طبيعية. نحن لا ندعو إلى وجود حكومتين: حكومة في غزة للأخ (إسماعيل هنية)، وحكومة أخرى في الضفة الغربية؛ فحكومة إسماعيل هنية هي الحكومة الشرعية؛ لأنها امتداد لحكومة الوحدة الوطنية التي أخذت الموافقة والتأييد من المجلس التشريعي المنتخب. أما حكومة (سلام فياض) في الضفة الغربية؛ فهي حكومة غير شرعية؛ لأنها لم تأخذ اعتماداً من المجلس التشريعي، بل عطلوا المجلس التشريعي، ثم هي جاءت بطلب أمريكي، وهذا يعني أنها معتمدة أمريكياً؛ ولذلك فهي حكومة غير شرعية. ومع ذلك نقول: هذه الحالة غير طبيعية، ونحن ندعو أن تكون هناك سلطة واحدة وحكومة واحدة، ومن ثم فالوضع الذي تتحرك فيه حكومة الأخ إسماعيل هنية في غزة هو وضع مؤقت اضطراري وليس هو الوضع الطبيعي والدائم. ونحن حريصون على إعادة اللُّحمة الوطنية الفلسطينية ومعالجة الانقسام الفلسطيني لنصل إلى حكومة واحدة وسلطة واحدة، ولكن على أصول صحيحة، بعيداً عن الفساد والدكتاتورية، إلى أن يُحَلَّ هذا الإشكال. وحكومة الأخ إسماعيل هنية تقوم بواجباتها في خدمة الشعب الفلسطيني وتخفيف معاناته.

المفاوضات ليست هي الحل.. التسول على موائد اللئام ليس هو الحل!

البيان: هل أنتم راضون عن الموقف الشعبي العربي من القضية الفلسطينية الآن مقارنة بما كان عليه أيام الانتفاضة؟

■ ثقتنا بشعوبنا ثقة كبيرة؛ لأن الله - تعالى - قال لنبيه ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، فنحن لا نستغني عن نصرة أمتنا بعد نصرة الله تعالى، ولكننا نعذر أمتنا، ونعذر الشعوب؛ لأنها مغلوبة على أمرها. شعوب الأمة لديها الكثير من الصدق والمشاعر الفياضة، والحرص على الانخراط في معركة فلسطين؛ معركة الشرف، معركة الإيمان، معركة القدس والأقصى، ولكن يحول بين شعوب الأمة وبين أداء هذا الواجب حالةُ الانقسام العربي، والضعف

العربي، وسـطوة النظم بشـكل عام، وتأثيـرات الضغوط الأمريكية على المنطقة.

لعلّـي أقول: إن بعض الحكومات العربية ترغب أن تكون دائماً في خدمة الشـعب الفلسطيني وصموده، وهي تحاول، ولكن لا شك أن هناك ضغوطاً وتهديدات أمريكية تؤثر على المنطقة. لذا، نحن ثقتنا بأمتنا ثقة كبيرة، لا سـيما الشعوب بـكل مكوناتها: من جماهير، ومن علمـاء، ومن نخب، ومن قيادات متنوعة، وما زلنـا نتطلع إلى الدور المنتظر من هذه الأمة.

البيان: كيـف سـتتعاملـون مـع مقـررات (أنابوليس) وما سيتبعه من إجراءات لاستئناف مفاوضات السلام المزمع بإقامة دولتين: فلسـطينية وأخرى للصهاينة؟ وهل ستقفون ضد مشروع قيام دولتين في المنطقة؟ ولماذا؟

■ أولاً: مؤتمر (أنابوليس) لن يقود إلى دولة فلسطينية، فالمكتـوب واضح من عنـوانه، فهـذه مجـرد وعود؛ لأنها لا مصداقية لها.

ما قيمة وعد بوش في الدولة الفلسـطينية إذا كان قد تجاوب مع الرؤى الصهيونية؛ كرؤية شـارون سـابقاً ورؤية أولمرت حالياً في وضع لاءات أربع (لا للقدس، لا لحق العودة، لا لحدود ٦٧، لا لتفكيك المستوطنات)؟ ماذا بقي من الدولة؟ حكومة العدو ترفض قيـام دولة على حدود الـ ٦٧ وأمريكا بالسـلوك العملي تناقـض قيام مثل هـذه الدولة، ومن ثم فنحن لا نتوقع مفاوضاتٍ ما بعد (أنابوليس). ووفق مقررات (أنابوليس)؛ سـوف تقود إلى رؤية فلسـطينية، لذلك هذا ليس مطروحاً. الدولة الفلسـطينية لن تأتي إلا عبر الجهاد والمقاومـة، وعبر إجبار الصهاينة علـى الرحيل عن أرضنا الفلسطينية المحتلة؛ حقوقنا سننتزعها انتزاعاً؛ فالمفاوضات القائمة مفاوضات عبثية؛ لأن المفاوضات إذا لم تسـتند إلى مقاومـة وقوة فلا فائدة منها، ولذلك قال الله - عز وجل -: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، وعدونا لم يجنح للسلام؛ فكيف نتهالك على ما يسمى بالسلام؟

السلام لا يُصنع إلا تحت ظلال السيوف وظلال المقاومة والبندقية، هذا هو سلام العزة والكرامة الذي يصنع السلام الحقيقي، والسـلام الحقيقي هو القائم على إنهاء الاحتلال وإنهاء الظلم، وعلى تحقيق العدل الحقيقي الكامل للشـعب الفلسطيني.

البيان: «غزة لم نأخذها حتى نعيدها» هكذا قلت عندما رفـض الرئيس (عباس) أي حوار قبل أن تعيد حماس قطاع غزة، فماذا يُعد تصرُّف حماس بشأن غزة؟

■ أنا أؤكد ما قلته سـابقاً: نحن لم نأخذ غزة بعيداً عن الضفة؛ لأن غزة والضفة وحدة واحدة، وهي جزء من أرضنا الفلسطينية الحبيبة التي نتمسك بها وبحقنا فيها. ولكن الذي جـرى في حزيران يونيو في العام الماضي في غزة؛ هو حالة اضطرارية دافعنا فيها عن شعبنا وأنفسنا وشرعيتنا، فنحن لسنا على هامش الشعب الفلسطيني، ولسنا مجرد معارضة، نحن جزء من السـلطة وجزء من الشـرعية الفلسـطينية؛ فالشـعب انتخبنا. ونحن الأغلبية في المجلس التشـريعي؛ شكّلنا الحكومة الأولى برئاسـة الأخ إسماعيل هنية وكانت حكومـة لحماس خالصة، ثم بعد اتفاق مكة شـكّلنا حكومة الوحدة الوطنية كذلك برئاسة الأخ إسماعيل هنية وبمشاركة فتح والكثير من القوى الفلسطينية؛ فنحن الشرعية، وعندما تأتينا فئة مارقة انقلابية تسـتعين بالعـدو الأجنبي (العدو الصهيونـي) أولاً ثـم بالأمريـكان: مالاً وسـلاحاً وتدريباً وتحريضاً وإرشـاداً وأجندة، وتنقلـب علينا، وتعيث فوضى وفسـاداً في غزة والضفة الغربية، وتشرعن الفوضى، هؤلاء شكّلوا أمراء للحرب، ثم كما سعوا إلى الانقلاب على حكومة حماس الأولى كذلك سـعوا للانقـلاب على حكومة الوحدة الوطنية التي تأسسـت بعد اتفاق مكة، وخططوا للانقلاب على اتفاق مكة بتأييد وتشـجيع من الأمريكان والصهاينة، وتحت تعليمات الجنرال (دايتون)، وسخروا عشرات الملايين من الدولارات، ونمتلك معلومات بشأن ذلك.

لقد شرحتُ للقيادة السـعودية الكريمة مَنْ الذي تآمر علـى اتفاق مكة، وكيف جرت الخطـوات، وحذّرنا من ذلك مراراً، ولكن المحـذور وقع، فأرادوا أيضـاً أن ينقلبوا على حكومة الوحدة الوطنية، وقد تصدت لهم الحكومة الشرعية الفلسطينية، ومن ثم حصل الذي حصل.

فنحن قمنا بخطوة اضطرارية دفاعاً عن أنفسـنا وعن شـعبنا وعن شـرعيتنا، وقلت للزعماء العـرب: ماذا تفعل أي حكومة فـي الدنيا حين تحاول مجموعـة مّا أن تنقلب عليها؟ هل هناك حكومة تتفرج على نفسها؟ هناك حكومات في العالم غير شـرعية وغيـر منتخبة، ومع ذلك تدافع عن نفسها أمام أي مجموعة انقلابية؛ فكيف بحكومتنا الشرعية والمنتخبة؟!

البيان: التمويل أحد أخطر أسـباب الاستمرار ولا سيما عندما يصل المجاهد إلى مرحلة اسـتلام السلطة أو بعض منهـا، وقد فنّنت أمريـكا وحلفاؤها حصارهـا المالي على

حماس والمسلمين في كل أصقاع الأرض. فكيف تستمر حماس؟ وما مصادر التمويل؟

■ بالنسبة لنا في حركة حماس؛ الله - تبارك وتعالى - تفضّل علينا ومنّ علينا بدعم شعوب الأمة الخيرة، مما أغنانا عن أن نطلب من أحد من الدنيا، وهذا يدل على أصالة هذه الأمة. فالخيِّرون - ولله الحمد - في الأمة من الأغنياء والتجار ورجال الأعمال وأصحاب الأموال ما قصَّروا في دعمنا طوال العشرين سنةً الماضية، وهذا من فضل الله - تعالى - نعمة كبيرة؛ لأنها تجعلنا دائماً أحراراً لا نخضع لابتزاز أحد من دول العالم، وتجعل قرارنا دائماً حراً مستقلاً يدور مع مصلحة شعبنا وحق أمتنا في فلسطين، دون أن يرتبط بأي أجندات هنا أو هناك، وهذا من فضل الله عز وجل.

وهذه الاستقلالية هي جزء من شخصية حماس وسوف تحافظ عليها إلى أن تنجز أهدافها وإلى أن نلقى الله، سبحانه وتعالى. لكن كما أشرتم في سؤالكم، عما يتعلق بالشعب وما يتعلق بوجودنا في السلطة؛ فإن هذا - بلا شك - يفرض علينا أعباء كبيرة.

أما الشعب؛ فحماس قبل أن تصل إلى السلطة كانت في خدمته؛ فمنذ أن انطلقت حماس، فإن أحد مشروعاتها الرئيسية - كان وما يزال - هو العمل الاجتماعي والخيري والإغاثي، وبناء المؤسسات، وتخفيف معاناة الشعب الفلسطيني في كل مجالات الحياة: في مجال التعليم، ومجال الصحة والعلاج، والرعاية العامة، وتشغيل الأيدي العاملة، ورعاية الأسر الفقيرة والأيتام والمحتاجين، ومجال رعاية الفقراء وخدمة المجتمع في كل شؤون حياتهم، وهذا بشهادة القريب والبعيد والعدو والصديق.

ولم يكن لحماس في هذا المال إلا دور اليد الأمينة التي تنقل المال من الأيدي الخيرة إلى المحتاجين في فلسطين. ولأن الأمة - بحمد الله - تثق بحماس؛ فقد كانت تعطيها المال وهي مطمئنة، وكانت حماس دائماً عند حسن الظن في نظافة اليد والنزاهة والأمانة، وكانت توصل المال إلى أبناء الشعب الفلسطيني المحتاجين. وبعد أن أصبحنا في السلطة لا شك أنّ المسؤولية تضاعفت؛ لأننا أمام مسؤولية سلطة ومسؤولية حكومة، وهذا يحتاج إلى دعم شعبي ورسمي.

وأنا أقول: الأمة لم تبخل علينا حتى على المستوى الشعبي في الماضي، والشعب الفلسطيني دائماً يحظى بدعم أمته رسمياً وشعبياً منذ بداية القضية الفلسطينية عام (١٩٤٨م)، ولكن بسبب الضغوط والملاحقة الأمريكية لكل قنوات التحويل المالي، وتحت شعار حربها الشعواء على ما يسمى بـ (الحرب على الإرهاب) و (تجفيف ينابيع العمل الخيري)؛ فقد تضررت مصالح الأمة ليس فقط في فلسطين. ولا شك أنه قد زاد الأمر صعوبةً علينا، ولكن لا زال في الأمة بقية خير. هناك دول أعطت حكومة حماس الأولى وحكومة الوحدة الوطنية دعماً رسمياً إضافة إلى الدعم الشعبي، مما ساعد على القيام بالواجب، ولكن بعد شهر حزيران/ يونيو الماضي، وفي ظل حصار غزة وإعلان الحرب على حماس؛ فلا شك أن الظروف صعبة وقاسية.

ولكني أقول لكم: نحن صامدون ومتوكلون على الله سبحانه وتعالى، ونعرف سياسة الأعداء؛ فهم يطبقون قاعدة تحدث عنها القرآن الكريم: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧]، ولكن إيماننا بالله كبير: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]. نحن واثقون أن المال هو مال الله، والله - سبحانه وتعالى - لا يتخلى عن عباده، وكما قال - سبحانه -: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

نحن نسير في الطريق الصحيح؛ فنحن ندافع عن هذا الشعب وعن أرضنا المباركة، ومتمسكون بحقنا، ولا يمكن أن نخضع أو ننكسر أو نفرط، نتوكل على الله - عز وجل - ونأخذ بالأسباب، ونحسّن الاجتهاد والسعي ونطرق جميع الأبواب، ولكن بعزة وكرامة؛ من أجل شعبنا، ومن أجل قضيتنا، فلا نقبل مالاً مشروطاً على الإطلاق، فنحن قادرون على الصمود. لكني أعتقد أن واقع غزة تحت الحصار يحتاج إلى التفاتة من الأمة رسمياً وشعبياً. لذا، فإن هذه دعوة للأمة من خلال مجلتكم الغراء؛ حتى تنفق علينا، وحتى لا تجعل الشعب الفلسطيني عرضة لهذا الحصار الظالم ولهذا الابتزاز الدولي.

وأما الأموال التي أُعطيت في باريس؛ فهذا مال سحت حرام لا يذهب للشعب الفلسطيني. إن (٧,٤) مليارات دولار التي وُعِدت بها السلطة في باريس هي مال مشروط من أجل ملاحقة المقاومة ونزع سلاحها، وتطبيق الشق الأمني من خارطة الطريق، لكنه لا يذهب إلى أهلنا في غزة ولا إلى أهلنا في الضفة، حتى إن شرائح مهمة من شعبنا في الضفة لا تستفيد من هذا المال، وغزة لا تستفيد من هذا المال، فهذا مال يذهب إلى الأجهزة الأمنية وإلى ضرب المقاومة، وهذا مال سحت، مال يخدم العدو ولا يخدم الشعب الفلسطيني.



البيان: أمتنا الإسلامية في مختلف حكوماتها السياسية المتباينة والاتجاهات الحزبية المختلفة أصبحت حماس نظراً لهذا الواقع محل اتهام بشأن علاقتها مع هذه الجهة أو تلك. ما تقويمكم لتلك العلاقات المختلفة مع الجميع في ظل التعليقات المعادية لحماس من شتى وسائل الإعلام؟

■ لدينا علاقات مع جميع أطراف الأمة؛ لأننا حريصون على توحيد الأمة على قضية فلسطين. ونحن حركة تقاتل احتلال أرض فلسطين وتدافع عن مقدسات الأمة في فلسطين، وتطلب النصر - بعد الله سبحانه - من الأمة كلها. نحن نعرف أمتنا جيداً، ونعرف الخلافات الموجودة في الأمة، ونعرف ما بين الأمة في مذاهبها وطوائفها واتجاهاتها السياسية، ولكن في ظل وعينا لكل هذه الحقائق نحن نطلب الدعم من الأمة جميعاً دون أن ندفع ثمناً لأحد ودون أن نكون تبعاً لأحد.

> **ما قيمة وعد بوش في الدولة الفلسطينية إذا كان قد تجاوب مع الرؤى الصهيونية؟!**

نحن أعز ما نعتز به بعد إيماننا بالله - تعالى - هو عزتنا وكرامتنا واستقلاليتنا، ولذا ينبغي على الأمة أن تثق بحماس وحسن اجتهادها وحسن اختيارها، وفي وقوفها عند الحق، وفي انفتاحها مع الجميع في ظل وعيها وحرصها على وحدة الأمة، وفي ظل استقلالية قرارها دون أن تكون تبعاً لأحد لا شرقاً ولا غرباً، وعلاقاتنا مع كل القوى في الأمة بما في ذلك حزب الله. هناك علاقات سياسية وتواصل مع الجميع؛ ولكن كل يقاتل في ساحته. نحن لا نقاتل من خلال حزب الله؛ فحزب الله يقاتل في جنوب لبنان وله ساحته المعروفة، ونحن ساحتنا داخل فلسطين؛ فلا تقاطع في الساحات؛ كلٌّ يقاتل في جبهته وكل يقاتل بطريقته.

البيان: ملف الفلسطينيين في العراق من أكثر الملفات مأساوية سواء في الداخل أو الخارج، ولم يُتَّخذ أي تحرك ذي بال لإنقاذ الفلسطينيين من أنياب الميليشيات الطائفية. أليس في هذا تقصير بشأن بقائهم على الحدود (العراقية السورية الأردنية) عالقين منذ سنوات؟

■ نحن في حركة حماس اجتهدنا من اللحظة الأولى أن نؤدي واجبنا. أولاً: تواصلنا مع أهلنا اللاجئين في العراق وتفقّدنا أحوالهم، وقدّمنا لهم مساعدات، وساعدناهم على إنشاء مؤسسات خيرية ودعمناها بالمال عن طريق أهل الخير، هذا في الفترة الاولى بعد احتلال العراق. ثم لما بدأ الظلم يصيبهم، ولما بدأ القتل من الميليشيات الظالمة؛ حاولنا من خلال علاقاتنا السياسية أن نوفر لهم الحماية، لكن للأسف لم ننجح! واستمر القتل والإيذاء، ولذلك اضطررنا إلى أن نبحث مشروعاً آخر؛ وهو إيواؤهم في بلاد مختلفة.

وأنت تعلم، كما ذكرت في سؤالك، أنهم ذهبوا إلى حدود الأردن وسورية. ومن خلال علاقتنا بالإخوة في سورية عملنا على إدخال أعداد منهم إلى سورية. وأما العالقون على الحدود العراقية السورية فنحن نقوم بخدمتهم وتوفير كل ما يحتاجونه من مساعدة إلى أن نتمكن من نقلهم إلى ساحة إيواء آمنة.

طرقنا الأبواب العربية من أجل إيوائهم، وطرقنا كل باب لدى الحكومات العربية من أجل إيوائهم أو من أجل توفير الدعم لهم، وأن تكون هناك دول تأويهم في أرضها، ودول توفر الدعم المالي لنقل هؤلاء وإيوائهم وإسكانهم وتشغيلهم، ولكن للأسف كل هذه المشروعات تعثرت! فالمشروع الوحيد الذي يشغلنا بشأن إخواننا أن ننجح في إيوائهم في السودان، وقد استجابت الحكومة السودانية مشكورة.

وأنا بنفسي ذهبت إلى السودان وتكلمت معهم، ووافق الأخ الرئيس عمر البشير على ذلك، والآن نتابع كيف ننقلهم عبر سورية إلى السودان، ونجتهد في توفير المال من بعض الحكومات العربية وهو ما زال مالاً محدوداً حتى الآن، ولم نحصل على شيء محدد. وأنا وإخواني في الحركة نجتهد كي نحصل من خلال رجال الأعمال الفلسطينيين وغيرهم من أهل الخير على دعم مشروع نقل هؤلاء الناس ليعيشوا هناك حياة كريمة، ونرجو أن يُجري الله الخير على أيدينا؛ إنقاذاً لأرواح هؤلاء؛ وحتى نوفر لهم الحياة الكريمة التي يستحقونها بعد عشرات السنين من الهجرة والعذاب بعيداً عن الوطن الفلسطيني السليب.

البيان: الملاحظ أن الحكومة الصهيونية تقوم بحرب

استئصالية للشعب الفلسطيني، والعالم يتفرج بدون أن يوقف العدوان الهمجي حتى من قِبَل الجهات الدولية المعنية بحماية السلام العالمي وبحقوق الإنسان. كيف تفسرون هذا العدوان القائم وتزايد العدوان في هذه الفترة، وبالذات على غزة على سمع العالم وبصره؟ وماذا ستفعلون بشأن عدوان المحتلين، وما يشيعه الإعلام المشبوه أن الشعب الفلسطيني ملّ من هذا الواقع وفقد ثقته بكم؛ فماذا تقول؟

■ هذا التصعيد جزء من السلوك الصهيوني الدائم؛ فالدولة الصهيونية نشأت على القتل والاغتيال، وعلى التشريد والاغتصاب، وعلى الحصار، هذا سلوك صهيوني معروف، لكن هذا التصعيد يأتي - كما قلنا - بغطاء أمريكي أولاً، وبتشجيع من بوش الذي أطلق يد الصهاينة تفعل في غزة ما تشاء. ثانياً. وهو يأتي في سياق سعي أولمرت لتقوية نفسه داخلياً في مواجهة خصومه السياسيين، ولمحاولة تقوية ائتلافه الحكومي من أن ينفرط، وليحاول أن يحتوي تقرير (فينوغراد) الذي سيصدر خلال أيام قادمة؛ حتى يظهر نفسه (صقراً) على حساب الشعب الفلسطيني ودمائه الزكية، وأيضاً يأتي في سياق ما يفعله وزير الحرب الصهيوني (باراك) الذي يتطلع إلى الرئاسة وإلى الانتخابات القادمة. وهكذا قادة العدو يستعرضون عضلاتهم دائماً من خلال الجرائم والمجازر ضد الشعب الفلسطيني، وأيضاً هذا ترجمة لـ (أنابوليس) والحديث عن تطبيق خارطة الطريق وعن نزع سلاح المقاومة.

وأيضاً يأتي في سياق حل عقدة غزة؛ لأن عدم قدرة محمود عباس وحكومته في رام الله على التأثير في غزة يجعله ضعيفاً أمام الضغط الصهيوني والأمريكي؛ فهي محاولة لمعالجة وضع حماس في غزة لإضعافها ولكسر إرادتها في غزة؛ والطمع في إلحاق غزة بمحمود عباس وجلبها إلى بيت الطاعة عبر نزيف الدم الذي يجري اليوم، وهذا أمر لن يفلحوا فيه ولن ينجحوا إن شاء الله.

الشعب الفلسطيني سيبقى يقاوم ويجاهد المحتلين، سواء وقف العالم معه أم لم يقف، وسواء قامت الأمة بواجبها أم لم تقم، وسواء قصرت أم لم تقصر، مع ثقتنا أن الأمة لن تقصّر في دعم الشعب الفلسطيني، إن شاء الله.

البيان: الواقع المؤلم المعاش في غزة، كيف الخروج منه؟ أو ما خطوات الخروج من ذلك الواقع البائس من خلال سياستكم التي تعملون وفقها؟

■ أؤكد أن هذه السلطة سلطة استثنائية مؤقتة اضطرارية إلى حين أن نعيد اللُّحمة إلى الوضع الفلسطيني الداخلي، فكيف نخرج من هذه الحالة؟ رؤيتنا تقوم على عدة خطوات وعدة أمور:

الأمر الأول: الحرص على إعادة اللحمة الوطنية الفلسطينية، ومعالجة الانقسام الفلسطيني، وهذا يكون عبر الحوار.

والتقصير ليس من طرفنا، بل من الطرف الآخر الذي يضع شروطاً مجحفة على الحوار، وهذا لن يحقق نجاحاً لأي مصالحة فلسطينية، ويستجيب للضغوط الأمريكية والصهيونية. والمطلوب من الدول العربية الكبرى وفي مقدمتها مصر والمملكة العربية السعودية: أن يكون لهم دور في هذا. هذا هو الأمر الأول: الحرص على معالجة الانقسام الفلسطيني، والذهاب إلى وحدة وطنية، وتوحيد الوضع الفلسطيني السياسي بكل مفرداته.

الأمر الثاني: تعزيز صمود الفلسطينيين، وهذا يحتاج إلى رفع الحصار عن غزة. نحن نعمل على خدمة شعبنا وتعزيز صموده وتخفيف معاناته، وندعو العالم شرقاً وغرباً أن يرفعوا الحصار عن غزة، وأن يُرفع الظلم عن الضفة الغربية من خلال تطبيق خارطة الطريق كما أشرنا؛ لأن تعزيز صمود الشعب الفلسطيني هو الذي يجعله قوياً أمام قوى الاحتلال.

الأمر الثالث: أن نرسم استراتيجية مشتركة يلتقي عليها كل الشعب الفلسطيني، ومن خلفهم الأمة العربية والإسلامية، قائمةً على التمسك بالحقوق الفلسطينية وعدم التفريط فيها، وأن نمتلك أوراق القوة، وأن نعزز خيار المقاومة، وأن نجبر العدو إجباراً أن ينسحب من أرضنا، وأن يعترف بحقوقنا، وأن نطلب الدعم من العالم كله، ولكن بعد أن نتوحد ونتمسك بحقوقنا ونتمسك بخياراتنا، وبخاصة خيار المقاومة، وألا نكتفي بالمفاوضات العبثية.

هذه رؤيتنا للحل، وهي رؤية واقعية لكنها ليست سهلة؛ لأن أي شعب يتعرض لاحتلال يعيش ظروفاً قاسية، فالاستسلام ليس هو الحل، والمفاوضات ليست هي الحل، والتسول على موائد اللئام ليس هو الحل. الحل هو الإيمان بالله والتوكل عليه، ثم الأخذ بالأسباب والتمسك بحقوق الشعب وبالمقاومة، وتوحيد الصف الفلسطيني والعربي على هذا الخيار. هذا هو الحل، وبعد ذلك الأمر لله سبحانه وتعالى.

إذاعة طيبة

طيبة FM103

FM 103

طيبة لأوقات طيبة

FM 103

هاتف ادارة البرامج : +249155184141

هاتف قسم الاعلان : +249155174777

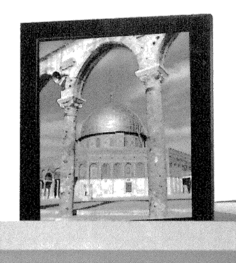
فاكس : +249155184999

الموقع : www.tayba.fm

بريد الكتروني : tayba@tayba.fm

رقم الحساب :3766. بنك التضامن الاسلامي - فرع السوق العربي





العرب وقضية فلسطين ما بعد أنابوليس؟

جواد الحمد(*)

عاد العرب والفلسطينيون من مؤتمر (أنابوليس) المنعقد في ٢٧/١١/٢٠٠٧م بلا خفين، حسبما يرى أكثر الخبراء والسياسيين دراية في شؤون الصراع وسياسات الولايات المتحدة. وعلى الرغم من الإدراك شبه اليقيني المسبق من قِبَل الوفود العربية والوفد الفلسطيني أن المشاركة في المؤتمر لن تعدوَ أن تكون خدمة للإدارة الأمريكية والقيادة الصهيونية، وأنها لن تحقق أي هدف عربي ذي بال، وأن الإدارة الأمريكية قد أخذت قراراً حازماً بعدم الضغط على الدولة الصهيونية لتقديم أي تنازلات لا ترغب هي بها، وأنها في المقابل ستحاول ممارسة ضغوط بديلة على الجانب الفلسطيني من جهة وعلى الجانب العربي من جهة أخرى، غير أن وزراء الخارجية العرب اتخذوا قرار المشاركة. وقد وجدت الوفود ما توقعت قبيل المؤتمر بأيام قليلة، واكتشفت أن تنازُلها بقبول المشاركة بستة عشر وفداً في مؤتمر إلى جانب الدولة الصهيونية وبرعاية وشهادة مجموعة من دول

(*) مدير مركز دراسات الشرق الأوسط – الأردن.

العالم ما كان إلا خدعة أمريكية متكررة، ونَسَقاً صهيونياً معروفاً طوال سنوات الصراع وسنوات المفاوضات السابقة. واكتشف العرب أن المبادرة العربية التي حملتها الوفود بوصفها الحل السحري للصراع، والتي تُقدم للدولة الصهيونية هدية مجانية للأمن والسلام، وجدوا أنها غير ذات صلة، إذ يكتفي الرئيس بوش بالإشارة إليها، بينما ينتقي منها الجانب الصهيوني تطبيع العلاقات، ويستبعد الانسحاب حتى ٤ حزيران ١٩٦٧م، وتطبيق حق عودة اللاجئين. هكذا إذن يصف خبراء مخضرمون المشهد الأول لرحلة العودة الخائبة للوفود العربية من أنابوليس والتي عبّر عنها وزير الخارجية السعودي بعبارات قاسية عندما أعلن أنه (لم يشارك في المؤتمر من أجل مسرحية التقاط صور، وإنما لمفاوضات حقيقية).

وهو طبعاً ما لم يحدث؛ فقد خدعت الإدارة الأمريكية الجميع، خدعت الوفد الفلسطيني وبقية الوفود العربية. وبطبيعة الحال فإن تداعيات هذا الفشل العربي والفلسطيني في تحصيل شيء يُذكَر في عملية السلام وجّه ضربة قوية لمصداقية هذه الحكومات أمام شعوبها بشأن ثقتها في مصداقية الإدارة الأمريكية، كما شجع الجمهور العربي والفلسطيني على مزيد من التأييد للمقاومة لكونها خياراً واقعياً أكثر مصداقية للضغط على الدولة الصهيونية لتحقيق الانسحاب ونيل الحقوق، وطفقت مختلف الأطراف تبحث عن مخارج وسبل لتعديل الميزان السياسي المختل لصالح الاحتلال الصهيوني برعاية أمريكية حنونة.

ويتساءل المرء عن طبيعة الاختيارات العربية في التعامل مع الاحتلال الصهيوني والتي مضى عليها أكثر من ستين عاماً دون أن تحقق للشعب الفلسطيني مكاسب حقيقية، وهل يمكن أن يبقى صانع القرار العربي والفلسطيني أسيراً لسياسات فشلت ولبرامج لم تنجح؛ على الرغم من التغيرات التي شهدها العالم والتحولات التي أصابت كل النظام الدولي والإقليمي، والتحولات الاجتماعية الواسعة التي شهدتها المنطقة العربية؟

إن مثل هذا التساؤل جدير بالتوقف عنده طويلاً؛ حيث إنه يفتح ملف السياسات العربية في التعامل مع الشعب الفلسطيني من جهة، ومع الكيان الصهيوني من جهة أخرى، وخاصة أن هذه السياسات أثبتت فشلها عَقداً بعد عقد، وأنه آن الأوان لإعادة النظر فيها، والأخذ بالحسبان التغيرات في موازين القوى السياسية والاجتماعية، فضلاً عن التحولات في العالم والإقليم.

ويتساءل المرء أيضاً عن طريقة التفكير الأمريكية المغلقة التي تتعامل بها إزاء الصراع العربي - الصهيوني، والتي تنظر إلى مكوناته من خلال السياسة والموقف الصهيوني، وتتعاطى المعلومات عبر التقارير الصهيونية فقط، وتنظر إلى العرب شزراً وإلى مواقفهم بأنها عبثية، وإلى حقوق الشعب الفلسطيني بأن تحقيقها يخضع للموافقة الصهيونية التي طال انتظارها، والذي قد يطول إن لم تتغير الاستراتيجية العربية في التعامل مع الصراع.

• مسار أنابوليس بداية ونهاية:

منذ البداية أوضح الأمريكيون أن هدف المؤتمر هو تحريك عملية السلام، وإضفاء الشرعية على مفاوضات (عباس - أولمرت) الفاشلة، وتطبيق خريطة الطريق التي أفشلتها الدولة الصهيونية عملياً، حتى يمكن النظر في مسألة إقامة دولة فلسطينية غير معرَّفة قانونياً، بل يلفها غموض إضافي بمصطلحين جديدين غامضين: قابلة للحياة، ومتواصلة جغرافياً، لكنها مشروطة في الوقت نفسه بنزع السلاح، وقبول العيش تحت رحمة الدولة الصهيونية النووية المدججة بالسلاح، ولذلك لم يكن وارداً إحداث اختراق محدد حسبما كان يروِّج الإعلام العربي والفلسطيني الرسمي قبيل المؤتمر، بل كان الهدف الأمريكي واضحاً جلياً؛ حيث هدف الرئيس بوش منه إلى تحقيق جملة من الأهداف، من بينها: التغطية على فشله في العراق وأفغانستان، وتحميل الدول العربية مسؤولية محاربة المقاومة الفلسطينية، ودعم الأطراف الفلسطينية المتعاونة مع الدولة الصهيونية أمنياً. وهدفَ كذلك إلى

حشد الدول العربية وإمكاناتها في معركته الخرافية بين المعتدلين والمتطرفين التي تمثل أيديولوجية التخلف الحضاري بأبشع صوره؛ حيث تَعدُّ هذه النظرية غير الإنسانية استخدامَ كل الأسلحة مشروعاً ضد الأطفال والنساء بحجة هذه المعركة الوهمية، فيما تَعدُّ مقاومة الاحتلال والدفاع عن النفس تطرُّفاً وإرهاباً!

وليس من بين الأهداف - كما أعلن مسبقاً، وكما تبين واقعاً بعد انفضاض مهرجان المؤتمر - إقامة دولة فلسطينية، ولا عودة اللاجئين، ولا مساعدة الشعب الفلسطيني على الاستقلال!

« نجح الرئيس بوش في افتتاح المؤتمر وإنهائه في خطابه الافتتاحي »

وقد نجح الرئيس بوش في افتتاح المؤتمر وإنهائه في خطابه الافتتاحي وفق هذه الأجندة. وبمراجعة نصَّي الخطابين الأمريكي والصهيوني تتضح معالم هذا التصميم الخاص بالمؤتمر وأهدافه.

إن أهم ما تمخض عنه هذا المؤتمر توفير قشة جديدة يتعلق بها الفلسطينيون والعرب لتشغلهم عن الإعداد السياسي أو القانوني أو العسكري لمواجهة الاحتلال والعدوان الصهيوني، وتوفير الوقت للمحتلين لمصادرة المزيد من الأراضي وبناء المستوطنات وهدم البيوت والاعتقال والاغتيال (كما يتابع العالم على شاشات التلفاز بعد أنابوليس)، والدخول في مناقشات عبثية حول البديهيات التي أقرتها الشرعية الدولية التي يطالبون الفلسطينيين بالتزامها، مثل قرار (٢٤٢)؛ الذي يؤكد على انسحاب الصهاينة إلى حدود ١٩٦٧م، والقرارات التي اعتبرت الاستيطان غير شرعي، وتلك التي دعت إلى عودة اللاجئين والنازحين، والتي أقرت إقامة دولة فلسطينية، وعلى حد تعبير مساعد وزير الخارجية الصيني لشؤون غرب آسيا (في حديث خاص مع الكاتب في مدينة الرياض في ٢٠٠٧/١٢/٣م) «فإن المسائل محطَّ البحث (أي ما يسمى بقضايا الحل النهائي: القدس، واللاجئين، والدولة، والحدود، والمياه، والمستوطنات) واضحةٌ وضوح الشمس، وإثارة الغموض حولها إنما تثير التساؤل حول جدية هذه المفاوضات».

إذن لم يشكل المؤتمر مساراً سياسياً مهماً، ولا أسَّس لانعطافة جادة في عملية السلام، ولم يضع قواعد جديدة من واقع الخبرة السابقة لتفعيل آليات حل الصراع، بل شجع ما كان قائماً قبله على الرغم من الفشل السابق، وأكد تعهداته للجانب الصهيوني بخصوص مواقفه المتعنتة فيما يخص القدس والاستيطان واللاجئين، فيما لم يقدم أي تعهدات للجانب الفلسطيني، وطالب العرب بالتطبيع مع الصهاينة لمساعدة عملية السلام دون أن يطالبها بالانسحاب، ولم يقدم الأمريكيون في المؤتمر أي ضمانات جديدة للوصول إلى حل عادل ودائم عبر هذه المفاوضات. ولذلك فإن لقاء أنابوليس لم يتمكن من تشكيل مسار جديد ولا وفَّر ديناميكيات جديدة كما حصل من قبل في مؤتمر مدريد لعام ١٩٩٠م أو مفاوضات أوسلو لعام ١٩٩٣م، بل ولا حتى (واي ريفر) لعام ١٩٩٨م، ولا خريطة الطريق لعام ٢٠٠٤م.

فكأن المؤتمر انعقد لينتهي كما انعقد؛ لتحقيق الأهداف السياسية الأمريكية والصهيونية، وربما لتحقيق بعض فُتات من المكاسب العامة للعرب، والتي لم نتمكن من تمييزها خلال متابعات واسعة لفعاليات المؤتمر ونتائجه وتداعياته اللاحقة.

ويثير هذا الاستنتاج الكثير من التساؤلات حول مستقبل السياسة الأمريكية تجاه الصراع، ومستقبل عملية السلام ذاتها، وكذلك يثير التساؤل عن الزمن الممكن للشعب

الفلسطيني أن ينتظره لتتمخض المفاوضات عن حل، كما تثير الطريقة التي انعقد فيها المؤتمر وأُدير من قِبَل الإدارة الأمريكية التساؤلَ عن الأوراق التي يملكها العرب والفلسطينيون في المفاوضات مع الولايات المتحدة أو مع الدولة الصهيونية بشأن القضية الفلسطينية. فإذا كانت القوة الفلسطينية الضاربة شعبياً وعسكرياً تخضع لحصار فلسطيني عربي صهيوني مشترك، وإذا كانت القوى المفاوضة تبدي ثقة عالية في مصداقية الولايات المتحدة وحُسْن نوايا الصهاينة على طاولات المفاوضات، وعلى حد تعبير بعض المفاوضين (الاشتباك التفاوضي بالحجة)؛ فما الذي يخلقه مسارٌ مغلق بدأ بالضغط على الفلسطينيين، ويُحرِج الوفد المفاوض أمام شعبه في كل اجتماع بإجراءات تتناقض أساساً مع الاتفاقات الموقعة سابقاً، فضلاً عن حسن النوايا المفترضة أو مرجعيات التفاوض الجاري، بما في ذلك خريطة الطريق وتقرير ميتشل؟

" أثبتت الدولة الصهيونية أنها لا تؤمن بالسلام "

- **الدولة الصهيونية ومنطق القوة محدد المرحلة القادمة:**

على مدى سنوات الصراع المسلح وخلال عمليات التفاوض؛ أثبتت الدولة الصهيونية أنها لا تؤمن بالسلام، ولا تستطيع قياداتها توقيع اتفاق سلام دائم معقول مع الفلسطينيين، وأنها تؤمن بالقوة والإعداد العسكري والحرب. ولذلك فإن اللحظات التاريخية التي خضعت فيها الدولة الصهيونية لحظياً كانت تحت الهزائم العسكرية أو تهديد الأمن الداخلي أو الحدود؛ بدءاً بالعمل الفدائي في الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم، مروراً بحرب رمضان ١٩٧٣م واستخدام العرب لسلاح النفط عام ١٩٧٤م، وانتهاءً بالانتفاضة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٨٧م والانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠م، وعمليات المقاومة المتواصلة بأشكالها المختلفة في فلسطين ولبنان. ولذلك فإن دروس أنابوليس تفرض على المخطط العربي وصانع القرار العمل على إعادة حساباته جيداً، لاستعادة بعض الأوراق التي ألقاها بعضهم جانباً؛ ظناً منهم أن عهد السلام قد ساد وأن الدولة الصهيونية قد تعقّلت!

ولعل أبرز عناصر القوة المطلوبة في مثل هذه الحال هي وحدة الصفوف الداخلية لأبناء الشعب الفلسطيني، وتقوية صمود الشعب الفلسطيني، وتطبيق القرارات العربية بفك الحصار عنه من جانب واحد، وتوفير الدعم المالي والسياسي والإعلامي والدبلوماسي لحقوقه الأساسية. كما يفرض ذلك أيضاً توحيد جهود جميع القوى في خدمة القضية بغض النظر عن بعض خلافاتها الداخلية، وهو بالطبع يفرض على الأطراف الفلسطينية سرعة التلاقي على الحد الأدنى الممكن داخلياً لتشكيل وحدة وطنية معقولة.

ولعل اتفاق مكة الذي تُوُصِّل إليه في ٨ فبراير ٢٠٠٧م لا يزال يصلح إطاراً ناظماً لمثل هذه التوجهات، مع الأخذ بالحسبان أهمية عزل القوى التي حاولت تعطيل تطبيقه بدافع مصالح أنانية فردية، وحزبية، وتنافسية، وغيرها.

ومن هنا فإن مسؤولية ما بعد أنابوليس تفترض أن يتحمل الكبار والقادة العظام مسؤولياتهم لإعادة الحساب وتعديل المسار العربي والفلسطيني لتحقيق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وأهمها التحرير والعودة.

بين حصار قطاع غزة وحصار شعب مكة

أ. د. سليمان بن حمد العودة(*)
suliman-alodah@hotmail.com

المسافة الزمنية بين حصار الملأ المستكبرين من قريش للمؤمنين في مكة، وبين حصار الصهاينة المعتدين لأهل الإسلام المرابطين في غزة مسافةٌ بعيدة، والبعدُ الجغرافي بين شِعب أبي طالب وبين أرض غزة كبيرٌ أيضاً، ولكن على الرغم من هذا وذاك، فثمة فروق واتفاقات بين الحصارين؛ فحصار الشِّعب تضيق مساحته الجغرافية حتى لا يتجاوز بضع مئات الأمتار، وحصار غزة يتسع ليشمل قطاعاً تزيد حدوده عن ثلاثمائة كيلو من الأمتار. وفي هذا توسيع لنطاق الحصار المعاصر عن نطاق الحصار الآفل. والمحصورون في شِعب أبي طالب إن لم يتجاوزوا المائة أو المئين؛ فهم في قطاع غزة يتجاوزون المليون ونصفَ المليون من المحاصَرين. وعلى الرغم من صنوف الحصار الاقتصادي والاجتماعي والنفسي في حصار قريش لمحمد ﷺ، ومن دخل معهم؛ فحصارُ صهاينة اليوم يتجاوز هذه الأُطُر ليضيف حصاراً عسكرياً يمطر الأرض بوابل القاذفات، ويُسقط بالقنابل والمتفجرات صبيةً ونساء، لا حول ولا قوة لهم إلا بالله، وما نقموا منهم إلا أن يقولوا: ربنا الله.

حصار (الشِّعب) دوَّنه التاريخ، ورَوته كتب (السيرة) بمِداد أسود، وسطَّرت أسماءَ المخططين والمنفذين له على أنهم (أكابر مجرميها)، وشبَّهتهم (كمن هو في الظلمات ليس بخارج منها)، وكذلك التاريخ يشهد اليوم على أكابر المجرمين وإخوان القردة والخنازير. حصار الشِّعب، وعلى الرغم من إحكامه وتعليق وثيقته (المقدسة) في نظر المجرمين في جوف الكعبة؛ فقد اخترقته (الشهامة) العربية، ونُقضت صحيفته (الآثمة) (بحميَّةٍ) جاهلية؛ فهل من شهامة معاصرة؟ وأين، ومتى تكون الحميَّةُ الإسلامية؟ وهل يكون نفرٌ من قريش أقدر على المبادرة من أمة تتجاوز المليار؟

وصدق الشاعر حين قال:

لو بعثنا واحداً من كل ألفٍ
لَمشى إلى القدس جيشٌ عرمرمُ

ثمة اتفاق يوحِّد بين مِلل الكفر - في الماضي والحاضر والمستقبل - وهو محاربة الإسلام ومحاصرة المؤمنين، وعدم الرضا إلا بمِللهم المنحرفة ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وثمة اتفاق بين مواقف للمؤمنين سابقاً ولاحقاً، في الثبات على الحق، والصبر على اللأواء، واستشراف المستقبل، وحيث انتصر المؤمنون الأولون وكانت لهم العُقبى؛ فالنصرُ قادم لمن تأسّى بهم، ووعدُ الله حق ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الفئة المؤمنة المُحاصَرة في زمن النبوة لم يكن في الأرض غيرها تدين بالدين الصحيح (الإسلام)، وهذا يعاظم الحصار ويزيد من شدته على المحاصَرين. ولكن اليوم وفي زمن (الغثائية) وعلى الرغم من انسياح الإسلام في الأرض؛ يشكل الرقمُ الكبيرُ للمسلمين مأساةً وشدةً أكبر على المحاصَرين في غزة، حين يلف الصمتُ، ويخيّم الذل، ويسود الهوان قِطاعاً عريضاً من المسلمين، وتُقطِّع أنياطَ القلب كلماتُ الصبية والنساء: أين إخواننا المسلمون عن نصرتنا؟

الفئة المحاصَرة الأولى في شِعب أبي طالب تمثّل

(*) الأستاذ بجامعة القصيم.

رمزاً بل نموذجاً وحيداً للإسلام بوعيها وثباتها على الحق ورفضها (سبيلَ المجرمين)، والمحاصَرون اليوم في غزة يمثلون (الرمزية) للثبات على المبدأ، والوعي بمخططات العدو وتفويت الفرص على مشاريع (الاستسلام)، والتصدي لمشاريع (التهويد) في القدس، بل يقومون نيابةً عن الأمة الغافلة بمقاومة المحتل وتعويق (مشاريعه) الصهيونية في المنطقة، كذلك نحسبهم ولا نزكي على الله أحداً. ولهذه المعاني والاعتبارات حوصروا، ولهذه المواقف الواعية والمتصلبة حوربوا، ويُراد لهم أن يركعوا كما سجد غيرُهم.

ومن هنا؛ فإن نصرة هؤلاء والوقوف إلى جانبهم في محنتهم اليوم، هو نصرة لقضيتنا الكبرى (قضية فلسطين) و (مدافعة) لخطط المستعمرين، قبل أن يكون نصرةً للفلسطينيين، أو مدافعة عن عرين الأسود في غزة المحتلّة.

وحين تُطلق الصيحاتُ لكل فردٍ مسلم بنصرة هؤلاء المحاصَرين بما يستطيع؛ تُطلق صيحة قبْلَها وآكد منها؛ باجتماع البيت الفلسطيني وحمايته من الاختراق الداخلي، والتأكيد على الشرفاء الفلسطينيين بإدراك خطورة الوضع، وشدِّ الأيدي، وتقوى الله، وتقديم مصالح الأمة وحمل همومها على المصالح الذاتية والمطامع الشخصية. وفي توجيه القرآن عبرة: **﴿إذا لقيتُم فئة فاثبتُوا واذكروا الله كثيرا لعلَّكُم تُفلحُون ﴿٤٥﴾ وأطيعُوا الله ورسُولهُ ولا تنازعُوا فتفشلوا وتذهب ريحُكُم واصبرُوا إن اللَّه مع الصَّابرين﴾** [الأنفال: ٤٥ - ٤٦].

وبعيداً عن المبالغة، يمثِّل حصار غزة المفروض اليوم على الفلسطينيين، جريمةً بكل المقاييس، ويُصنَّف الضعف المصاحب لهذا الحصار والصمت المؤلم على المستوى الإقليمي والدولي على أنه كارثة فوق الكارثة؛ فالجرح النازف، والضعف السياسي، والافتراق الداخلي؛ كل ذلك مدعاة للحسرة والألم.

المشاهد الناطقة داخل القطاع تصوِّر المشهد: مجموعة من النساء والرجال، والشيوخ والشباب، والمرضى والمعوزين.. ظلام دامس، شُحٌّ في المواد الغذائية، ونقص بل انعدام للدواء، جُثَث تُحمل وأخرى تتهاوى، وربما عزَّ الكفن وأُغلقت المقابر، ماذا بعد أن يستصرخ الناس: أنقذونا ولو بتكفين موتانا! أو بحفر القبور لشهدائنا؟ مليون ونصف المليون معظمهم من الأطفال والنساء يموتون حتف أنوفهم، ويُقتلون صبراً؛ أي وضعٍ هذا؟ هل الموتى هناك فقط، أم من يصمت بشأنهم هم الموتى؟ حين يتدنى سقفُ المطالب ليصل إلى أكفانِ الموتى أو توفير الأسمنت للمقابر؛ فتلك مؤشرات على قرب انفجار لا يعلم نهايته إلا الله!

وحين تستصرخ الفتياتُ الفلسطينيات بكل (جدية) ويقلن: لا بأس في أن تشاهدوا جنائزنا، لكن استروا عوراتنا واخلفونا في أهلينا بخير! فتلك التي تعقد الألسنة وتتفطر لها الأكباد! وحين تستصرخ فتيات أُخريات ويقلن: بعد غدٍ لا خبزَ عندنا، ونحن أحسنُ من غيرنا! غيرُنا اليوم وغداً لا خبز عندهم، بل ولا ماء ولا دواء؛ فتلك البلايا التي يتحطم لهولها الصخر! وحين تُبلِّل دموع الشيوخ الثرى وهم يستصرخون إخوانهم في مد يد العون لهم، ويتحسّرون على مستقبل أبنائهم وبناتهم؛ فتلك كارثة ربما لم يشهد التاريخ مثلها! إنه قطار الموت يسير في قافلة تحمل إخواننا الفلسطينيين نعلم محطتها الأولى، ولا ندري أين يتوقف القطار، ومتى يتوقف! إنه الحصار الظالم، ومنطقة الكوارث من الدرجة الأولى في غزة الصامدة.

إخوة الإسلام! يمكن أن نقول كلَّ شيء عن حصار (غزة)، لكن ماذا يمكن أن نُقدِّم على صعيد الواقع لهؤلاء المحصورين؟ هذا هو التحدي، وهذا هو الذي يقلق العدوَّ الغاشم.

إننا نستطيع أن نعمل ونتحرك باتجاهات متعددة على الصعيد الرسمي والشعبي، وعلى صعيد الإغاثة، والإعلام، وعلى أصعدة إصلاح الجبهات وسدِّ الثغور، وبناء المستقبل، ومدِّ الجسور. نستطيع أن نصنع من المحن مِنَحاً، ومن الآلام آمالاً، ومن الظلمات نوراً، ومن الموت حياة، ومن الخوف أمناً. إن هذه المآسي توقظ الهمم، وتستدعي رصيدَ الأخوّة؛ فكم من غارق في همومه الشخصية فجاءت هذه الكوارث لتوقظ فيه حمية الدين وتشعره بالولاء للمؤمنين! وهذا مكسب. وكم من مخدوع بأبجديات الغرب ومكوناته الثقافية وقيمه الحضارية كدعاوى (الحرية، والديمقراطية، ومحاكم العدل، ومجلس الأمن.. وسواها) فجاءت هذه المآسي لتمحوها من الذاكرة، وتثبت بدلاً عنها (إرهاباً، وظلماً، وجوراً، ولا إنسانية..) عند هؤلاء القوم، ولتقود قِيَمَ حضارتهم (المزعومة) إلى (مزبلة) التاريخ وإلى غير رجعة! وهذا مكسب آخر.

وكم تهيئُ هذه المصائبُ والمحنُ من فرصٍ لوحدة الصفِ المسلم، واجتماعِ الكلمة، وتجاوزِ الخلافات والاتهامات، ولا سيما الأشقاء يصبحون ويمسون على عدوٍ مشترك لا يُفرِّق بين راية (فتحية) أو (حماسية) أو غيرها - وإنْ فاضَلَ بينها حيناً - ولهدف تمزيق الصف؛ فهو يتقصدها جميعاً، ويهدف في النهاية إلى إسقاطها كلها، لكنها المرحلية

في التنفيذ وتقطيع الأجزاء، وتحييد الأطراف؛ حتى إذا انتهى من القلب عاد إلى الميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة يواصل تدميره ويكمل مخططه! وهذا الوعي مكسب ثالث.

إن الساسة بمقدورهم أن يتنادوا وأن يصنعوا شيئاً لهذا الحصار، فهو يُهدد مستقبلهم ويُعكّر عليهم أمنهم، ويُضعف هيبتهم، وإذا أعطوا بيدٍ شيئاً من المكاسبِ للآخرين؛ فلا بد أن يأخذوا ثمنَه أو يزيد باليدِ الأخرى. وإذا كان للغرب مصالح عندهم؛ فينبغي أن يُلوِّحوا بهذه المصالح حين يُهدَّد إخوانُهم وجيرانُهم بالموتِ البطيء.

إن الأمة المسلمة بقادتها وبهيئاتها ومنظماتها قادرةٌ على صُنع شيء بل أشياء إزاءَ هذا الحصارِ الظالم وأمثاله، ولا حاجة لاستدعاء منظماتِ الغرب والطوافِ بها لحل المشكلة وفكِّ الحصار؛ ومن يأمن الذئب على غنمه؟ ومن يتحاكم إلى قاضٍ هو الخصمُ والحكم؟ وإن الإعلامَ الناطق باسم الأمة والمعبِّر عن قضاياها يستطيع أن يصنع الرأي العام، ويحرك المشاعر، ويضبط المسار؛ وإن شذَّ إعلام مأجور، أو تناسى إعلاميون لا تعنيهم قضايا الأمة ولا يستشعرون مستقبلَ مقدساتها، فأولئك أرقام هامشية في إعلام الأمة، والشاذ لا حكم له.

إن إعلاماً يرقص ويغني والأمة تنزف جُروحاً إعلامٌ هابط، وإن إعلاميين يُبجِّلون منظماتِ الغرب ويدعون إلى تأسيس القيم الغربية في بلاد المسلمين هم من الغفلة والتضليل ما يدعو للشفقة والأسى في آنٍ واحد. وإن تياراتٍ تنابذ الإسلام وأهلَه وتصفهم بالإرهاب والتطرف في كل مناسبة وفي معظم المناشط والفعاليات الراشدة؛ أولئك مرضى، وعسى الله أن يشفيهم.

يا قادةَ الفكرِ ورجالاتِ الدعوة: هذه المآسي تفتح لكم فرصاً للكتابة عن صمود الأبطال، وعن أثرِ الإيمان في مقاومة العدوان، وأثرِ اليقين في تسلية النفوس وإحياءِ الأمل في مخاضات الألم؛ وإلا فأيُّ شيء غير هذا يملكه المحاصَرون الصامدون في فلسطين عموماً وغزةُ على وجه الخصوص؟ والحصارُ بلَغ شهره السابع، والعدوُّ يزيد الجرعةَ كلما تقادم الزمن، والمحاصَرون يتلقون الدباباتِ بصدورهم، ويدفعون أبناءهم بل ومستقبلَهم ثمناً للثباتِ على المبدأ الحق ورفض العدوانِ والاستسلام ولسانُ حالهم يقول: اللهم خذ من أبنائنا وبناتنا، وشيخونا ونسائنا، وصحَّتنا وأمْننا حتى ترضى؛ فإن بقينا عِشنا أعِزَّاءَ بالإسلام، وإن متنا فاقبلنا شهداءَ! نُشهدك ونُشهد أُمتَنا على أنه لا ذنب لنا إلا العزةُ بالإسلام ورفضُ الاحتلال والطغيان! أليس في هذه المعاني حياة وحتى إن كُتب لأصحابها الموت؟

إن أمةً تحيا بموتِ آخرين منها أمةٌ تأبى الذوبان، وهي عصيَّةٌ على العدوِّ مهما بلغ، وهي الجديرة بالتمكين والاستخلاف وإن طال أو قَصُر الزمن، ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون.

يا أصحاب الغِنى ويا رجالات المال! أنفقوا يُنفق الله عليكم، وأعطوا من مالِ اللهِ الذي آتاكم، وحين تَصدَّقون وتتجاوزون الشُّحَّ والأَثَرة فستجدون مخارجَ وطرقاً لغوثكم وإعانتكم، وإياكم في معركة الإسلام والكفرِ أن يُؤتى الإسلامُ من قِبَلِكم! وقدواتكم أنْفَقوا نصفَ أموالهم؛ بل منهم من جاد بماله كله، ومنهم من ظل ينفق وينفق حتى قيل لهم: ما ضرهم ما فعلوا بعد اليوم؟

إن من المؤسف أن نظراءكم من أثرياء الكفرِ والضلال لا يكتفون بالدعم لمحاربة الإسلام وأهله بشكلٍ مقطوع، بل يُوقفون الأوقاف، ويتبرعون بالدعمِ الكامل للمؤسسات التنصيرية والمتصهينة في حياتهم وبعد مماتهم، وأنتم ترجون من اللهِ ما لا يرجونه! وهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ثم تكون عليهم حسرة، ثم يُغلبون، وإلى جهنم يُحشَرون.. أنتم تُصلحون وتُغيثون، وفي سبيل الله تُنفقون، نَفَقَتكم مخلوفة، وأجرُكم على الله، وصدقاتكم ظِلٌّ لكم يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّ الرحمن. وهم يفسدون ولا يصلحون، ويهلكون الحرثَ والنسل، ويدمرون البلاد والعباد، ويشعلون الحرائق، ويكتمون أنفاسَ المرضى ويقطعون السبيل؛ فأي الفريقين أحقُّ بالأمن، وأيُّ الفريقين أوْلى بالمبادرة والدعم؟!

إلى الأمة كلها برجالها ونسائها، وشيوخها وشبانها، وقادتها وشعوبها، وعلمائها وعوامهم نداءٌ يقول: تصوروا أنكم في موقع الحصار وإخوانُكم من حولكم يتفرجون؛ فلا تدرون: أتُغالبون الموت، أم تغالبون تهميش الآخرين وغفلتهم؟ مُدُّوا يد العون، أغيثوا، انصروا، فكِّروا وقدِّروا، وبما يستطيعه كلُّ واحدٍ منكم، لا تبخلوا، وإياكم أن تكونوا في عداد الموتى وإن كنتم بعدُ أحياء! فالميتُ ميتُ الأحياء، ﴿ وسيعلمُ الَّذين ظلمُوا أي مُنقلب ينقلبُون ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

اللهم أنجِ المسلمين المستضعفين في فلسطين وفي العراق وفي كل مكان، اللهم انصرهم على عدوك وعدوهم، اللهم عليك بالظالمين، وأنزل عليهم رجزك وغضبك يا رب العالمين!

حصاد الهشيم واللاءات الثلاث

د. يوسف بن صالح الصغير(*)

في إحدى زيارات وزيرة الخارجية الأمريكية لفلسطين المحتلة، اعترفت أنها لم تأتِ بمشروع حل؛ لأنه محكوم عليه بالفشل. وهذا تصريح نادر قد يكون نتيجة إحباط من مظاهر الفشل الإستراتيجي الأمريكي في المنطقة، وارتباطه بالموقف من قضية فلسطين.

والشعورُ بتعقُّد الموقف وعدم إمكانية الجمع بين تبنِّي السياسة والممارسات الصهيونية وتسويق المشروعات الأمريكية في المنطقة؛ يتضح من وجود منصب في الإدارة الأمريكية يُعنى بتحسين صورة الولايات المتحدة في المنطقة.

إنه اعتراف بأن الصورة سيئة، ولا أظن أن زيارة بوش تُعنى بتحسين صورة الولايات المتحدة بقدر ما تصب في تأكيد ثبات سياسة تبنِّي كل ما يصدر عن الدولة الصهيونية والدفاع عنها على كل الجبهات؛ فلم تخرج تصريحاته العلنية عن أمن الدولة الصهيونية ومحاربة التنظيمات الإرهابية في المنطقة، وبخاصة حماس والجهاد وحزب الله، ومنع إطلاق الصواريخ على المدنيين الصهاينة، ولم يتطرق لعمليات اغتيال الناشطين الفلسطينيين وتصفيتهم، بل لم يتطرق للقصف الصهيوني شبه اليومي للأهداف المدنية الفلسطينية. إنه يرى ويحس بقذيفة بدائية وزنها بضعة كيلو جرامات؛ لأنها صناعة فلسطينية وهدفها الصهاينة، ولكنه لا يرى ولا يحس بقذائف موجّهة تزن نصف طن؛ لأنها صناعة أمريكية مُطلِقها صهيوني والهدف فلسطيني!

ويتحدث المراقبون أنه أعطى الضوء الأخضر لتصعيد العمليات ضد محضن الإرهاب الفلسطيني. لذا يلاحَظ أنه بينما يُعطي أولمرت ما يريد؛ فإنه يطلب من عباس ما يريد. والمحصلة أن كل ما يجري هو لتحقيق رضا اليهود عن الإدارة الحالية والحزب الجمهوري. ومما لا شك فيه أن كل ما قيل عن تحقيق السلام وإقامة دولة فلسطينية لا يدخل في الشق العملي القابل للتطبيق من الزيارة، وهو محاربة الجميع للإرهاب الفلسطيني.

إنها حرب تحت راية السلام، ولم يختلف المشهد كثيراً في بقية الجولة؛ فهو يتحدث عن أمن دول الخليج، وفي الوقت نفسه يدعوها لشن الحرب على الخطر الأكبر على دول المنطقة، ألا وهو إيران. وهو يتحدث كثيراً عن حقوق الإنسان والديمقراطية، بينما يعلن البنتاجون عن صفقات عسكرية بعشرات المليارات مع دول المنطقة. إنها صفقات عجيبة يؤخذ فيها المال، ثم تقرر أمريكا المقابل الذي يتراوح بين أحدث وسائل التدمير، إذا قررت هذه الدولُ المشارَكة في ضرب إيران، وبين تجميد الصفقة والاحتفاظ بالمال! إنه يريد منا أن ندفع فاتورة حربه الجديدة مع إيران التي تدعم الإرهاب في العالم، ولا سيما حماساً والجهاد وحزب الله. ومن العجيب أنه لم يتحدث عن دعم إيران للميليشيات الإرهابية المجرمة في العراق! وذلك ببساطة؛ لأنه عمل مشترك. كما لم يتطرق لخوف دول الخليج من تكرار أمريكا لممارساتها الميكيافيلية؛ فقد خاض العراق حربه مع إيران بتشجيع ودعم أمريكي - إن لم يكن بطلب وإلحاح أمريكي - لمواجهة تمدد النفوذ الإيراني وتصدير الثورة، وفي النهاية يُقسَّم العراق حالياً بين نظام الثورة الإسلامية وإدارة الشيطان الأكبر. ومن يضمن أن الهدف من إثارة الحرب لن يكون تدميرَ الكيانات السُّنِّية في المنطقة وتقاسمها مع إيران؟

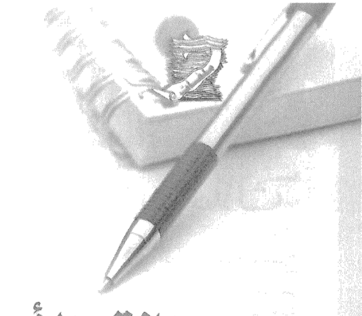
ويبدو أن غريزة حب البقاء العالية هي التي تجعل دول المنطقة تستقبل (داعية الحرب) من أجل السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان! وتتباحث معه حول مستقبله المهني بعد تركه الرئاسة، مع تكرار التصريحات الرسمية والإعلامية أن إيران جارة وصديقة ولا تشكل أي خطر! فبالأمس سلَّمت القوات الأمريكية (صدّاماً) لحلفاء إيران ليعدموه، وما زالت دماء القوات المشتركة تسيل في العراق. إنها وحدة الدم بين أمريكا وإيران؛ والأغبياءُ (فقط) هم الذين يستبعدون اتفاق الضواري على الفرائس.

لقد عاد بوش إلى أمريكا معلناً من طرف واحد نجاحَ الزيارة، ونحن بدورنا نعلن نجاح الزيارة؛ فقد وُضِعنا في الزاوية، ولم يعد لنا مجال إلا أن نقول: لا، لا لتدمير الذات، ولا للمشاركة في قتل القضية الفلسطينية...

وأخيراً: لا إله إلا الله.

(*) أستاذ مشارك في كلية الهندسة، جامعة الملك سعود، الرياض.





النقد الأدبي

آفاق ورؤى (٢-٢)

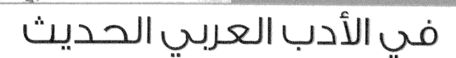
هــل لدينا نظرية نقديّة واضحة في أدبنا العربي الحديث؟ وما أبرز سماتها؟ وما جهود النقاد الإسلاميين في صياغة هذه النظرية؟ وكيف ينظر الأدباء الإسلاميون إلى مصطلح الحداثة؟ تُرى أيمضي أدبنا العربي الحديث إلى القيم الأصيلة أم إلى التغريب والتحلّل؟ وما موقفه من عقيدة الأمة؟ وما رؤيته للمرأة عموماً؟ وفي ظل هذا كله ما مستقبل هذا الأدب العربي الحديث؟

وبعد: إنّ كان المضمون المشـرق لا يصنــع أدباً راقياً وحده مع التأثير العظيم لهذا المضمون في الحياة الإنســانية؛ فإنَّ الشــكل الفنّــي للمضامين الســامية لا يقلّ عنه أهمية فــي رواج الأدب وانتشاره وتأثيره. كما أنَّ مواكبة الأدب بالنقد الموضوعي الجاد من العناصــر المهمّة في تطوّر الأدب وتقدّمه، وممّا يثري دوره الفكري والجمالي معاً، ويساعد على حضوره في وسائل الإعلام المتنوعة!

ولعلّنا في هذا العدد من (البيان) نقدّم ضمن ملف (النقد الأدبي) شيئاً من الإجابة عن بعض تلك التساؤلات السابقة.



مظاهر الانحراف العقدي



د. ناصر بن عبد الرحمن الخنين

أمة العرب أمة فطرية، سادت فيها المروءات، وانتشرت بين قبائلها الفضائل والمكرمات، وعرفت بمحاسن الآداب وروائع الصفات؛ ولذلك كان معنى «الأدب» عندهم ينصرف إلى: الدّعاء، ومنه قيل للصَّنيع - الطعام - يُدْعى إليه الناس: مدعاة ومأدُبة؛ ثم أصبح معنى «الأدب» الذي يتأدّب به الأديب من الناس؛ وسمّي أدباً؛ لأنه يَأْدِب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح. وبذلك يتّضح من المعنى اللغوي الدلالي لمصطلح كلمة «أدب» عندالعرب أنه ما دار على محامد الخصال وقاد إلى فضائل الأمور ودعا إليها؛ سواء كانت هذه الدعوة صريحة أو ضمنية؛ بأن ينهى عن مساوئ العادات، وينفّر من قبائح الصفات؛ من خلال فنون الأدب المختلفة، وعبر صوره المتعددة؛ وهذا المعنى الخُلقي التهذيبي للأدب عند العرب هو الذي كان شائعاً منذ القِدَم؛ كما ذكره صاحب لسان العرب، وحكاه الأستاذ أحمد الشايب في أوائل كتابه: «أصول النقد».

فلما شعّ نور الإسلام ونزل الوحي على جَنان سيد الأنام - عليه الصلاة والسلام - تأكد ذلكم المفهوم العربي للأدب والأديب، بما جاء في الإسلام من تتميم لمكارم الأخلاق، وتصحيح لمفاهيم مخالفة لفطرة الإسلام التي فطر الله كلّ مولود عليها؛ فلبس الأدب في ضوء مشكاة الإسلام حلّة جديدة زاهية الألوان، واكتسى معنى شريفاً آخر فوق معناه؛ إذ أصبح منطلقاً من سنن الإسلام، جارياً على نواميس الوحيين: الكتاب والسّنة؛ فغدت أخلاق هذا الدين هي أخلاقه وشمائله، وصار حافلاً بها مزداناً بخصالها، وأضحت هذه المعاني وما تولّد منها تجري في نتاج الأديب المسلم مجرى دمه في عروقه؛ بصورة عفوية لا قسر فيها ولا إكراه؛ بل إنك لو رُمْتَ له صرفاً عنها أو عدلاً إلى غيرها لرجعت القهقرى؛ لأنه يعلم أن جريان لسانه بها وبأمثالها إنما هو على سبيل التقرب إلى خالقه - جلّ وعلا - يرجو بذلك وعده، ويخاف وعيده؛ وهذا هو مقتضى حقيقة دين الإسلام في سائر أقوال المسلم وأفعاله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وعلى قدر تمثّل هذه الحقيقة في قلب الأديب المسلم يسمو أدبه عن الدنايا ويعلو، وعلى قدر ضعفها وتضعضعها يتسفّل ويتحدّر.

وعلى هذا درج معظم الشعراء في دول الإسلام المتعاقبة، ومن خرج منهم على ذلكم النسق فإنه يواجَه بالنقد والتقويم والتوجيه السليم في غالب الأمر؛ من ذلك ما ورد عن المتنبي في قوله عن نفسه مفتخراً:

أيّ محل أرتقي
أيّ عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي
كشعرة في مفرقي

فجنون العظمة رفع أبا الطيب - من حيث شعر أو لم يشعر - إلى منزلة احتقر فيها ما سواه من الخلق؛ فهذا شعور يُستنكر من بشر؛ فكيف يقع ذلك من مسلم الأصلُ فيه أن يتقي الله ولا يحتقر خلقه؟ وقد ذهب الواحديّ شارح ديوان المتنبي إلى أن الكفر ظاهر باحتقاره لخلق الله وفيهم الأنبياء

والمرسلون والملائكة المقربون[1].

وقال الثعالبي في (يتيمة الدهر): للإسلام حقه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً ونظماً ونثراً، ومن استهان بأمره ولم يضع ذكره وذكر ما يتعلق به في موقع استحقاقه فقد باء بغضب من الله تعالى، وتعرض لمقته في وقته، وكثيراً ما قرع المتنبي هذا بمثل قوله:

يترشفن من فمي رشفات

هنّ فيه أحلى من التوحيدِ[2]

وأفحش من قول المتنبي ما جاء في مدح ابن هانئ الأندلسي للخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي عندما قال:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ

فاحكم فأنت الواحد القهارُ

فقد نسب الشاعر إلى ممدوحه بعض صفات الواحد القهار جل وعلا، وخرج على أصل من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده وهي توحيد الله تعالى، وإفراده بصفات الكمال والجلال.

• عبث أدونيس:

وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث وجدنا الانحراف في فنون الأدب عن منهج الإسلام ظاهرة تكاد تكون بارزة في أنماط أدبية مؤثرة؛ كالشعر والرواية والمسرحية والقصة وغيرها؛ نجد ذلك بارزاً عند كثير من الأدباء المنتمين إلى الأدب الحداثي المتأثر بالأدب الغربي في أنماط معانيه وأشكال مبانيه، ولعل الشواهد الآتية تدل على ذلك؛ فهذا رائد من رواد الحداثة في العصر الحديث (أدونيس) يقول واصفاً ثورة الحداثة في نظره في مقطوعة نصها:

بلى في بلادي خالقون

وساعاً كآفاقها الواسعة

نقيون كالشمس في عُريها

فتيون كالأنجم الطالعة

بلى في بلادي أنا خالقون.

محوا عتمة اليأس واليائسين بأجفانهم[3]

تلك كلمات من ضمن مقطع تحدث فيه (أدونيس) عن أرض المسلمين بتهكُّم وازدراء، ويُلحَظ فيها العبثية ونسبة الخلق إلى من وصفهم بذلك في سقوط فني واضطراب أيضاً في نسق تلك الكلمات السابقة.

ومن ذلك أيضاً قوله:

أيها الضوء!

خلقت إلهاً ويرفضك الظلام

ألهذا كُنت العين الوحيدة التي خلقت من أجل أن تسكنها الظلمات؟!

ألهذا كنت الخالق يلبس شكل الخليقة؟![4]

• عبث المُقالح:

تأمَّل تلكم المعاني الكفرية المتهافتة والغريبة على الشعر الإيماني الذي هو الشعور السائد عند المسلمين، ولكن الشيء من معدنه لا يستغرب؛ فقد أعلن (أدونيس) عن رسالته قائلاً: (أنا المتوثن والهدمُ عبادتي)[5].

ومثل تلك المعاني في انحرافها وسقوط معانيها ونضحها بالكفر الصريح قول (عبد العزيز المُقالح) «الشاعر اليماني»:

صار الله رماداً

فتما

رُعباً في كف الجلادين

أرضٌ تترنم بالبترول

حقلاً يُنبت سبحات وعمائم

بين الرب الأغنية الثورة

والرب القادم من هوليود

في أشرطة التسجيل

في رزم الدولارات

رب القهر الطبيعي

ماذا تختار؟

أختار الله.. الأغنية الثورية[6]

تعالى الله عمَّا يقول علواً كبيراً؛ فلا شك أن مثل هذه العبارات ومعانيها القبيحة وما تحمله من دلالات كفرية منحرفة - هي وما في حكمها مما يهدم الدين ويصادم معتقد المسلمين ويُثير الحفائظ ويهيج المشاعر، بل قد ينمّي ظاهرة الغلو والتطرف في مقابل ذلك الغلو المتطرف في الكفر والإلحاد.

• من عبثيات نزار:

ومن نماذج العبثية ومن مظاهر الانحراف من يستغل الجنس ويدغدغ مشاعر النساء من أجل إسقاطهن في أحضان شهوته وتحت أقدامه، ولو كان ذلك على حساب السخرية بالخالق - جلَّ في علاه - كقول (نزار قباني):

فاليوم أخلق منك إله

وأجعل نهدك قطعة من جوهر.

ويقول أيضاً:

كان ثغرك مرة

ربي فأصبح خادمي[7]

ويقول كذلك:

لا تخجلي مني فهذي فرصتي

(١) انظر: ديوان المتنبي: ٢/١٤.

(٢) يتيمة الدهر: ١/٤٨١.

(٣) الأعمال الشعرية، لأدونيس: ١/٤٣١.

(٤) الأعمال الشعرية، لأدونيس: ٢/٠٩٥.

(٥) الأعمال الشعرية، لأدونيس: ٢/٢٤٦.

(٦) الكتابة لسيف الثائر، لعبد العزيز المقالح ص ٥ إلى ص ٩.

(٧) الأعمال الشعرية الكاملة لنزار قباني: ١/٧٤٠، ٨٤٣.

لأكون رباً أو آكون رسولاً[1]

• عبث يسمونه شعراً:

ومن السـخرية الممجوجة والعبث بالمعاني والاستخفاف بالله - تعالى - قول (معين بسيسو):

باسمك تلك المُومس
ترقص بقناع الرب
باسمك يتدحرج
رأس الرب[2]

ويقول أحدهم وهو (محمد الفيتوري) «الشاعر السوداني»:

لا شيء لكِ اكتب بكلمة
فالكلمة في شفة الله
والله على الأرض سجين[3]

ولا يخفى عليك هـذا العبث الكفري وهذه الجرأة على حق الله - عز وجل - والاستهانة بمشاعر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

ومن صور الضياع الفكري والانحراف العقدي قول (علي ناصر) «الشاعر السوري»:

تارة أستحيل رباً عظيماً
وجميع الأكوان طيّ فؤادي
ثم ينتابني فراغ مرير
في ثناياه تمحى أبعادي
كيف أهدأ وكل آنٍ أراني
بين الضدين حائراً باضطرادِ؟[4]

بل يصرح (نزار) نفسه بقلقه وإلحاده عندما قدَّم نفسه إلى حبيبته في بعض أشعاره قائلاً:

فأنا إنسان مفقود
لا أعرف في الأرض مكاني
تاريخي ما لي تاريخ
إني نسيان النسيانِ
ماذا أعطيكِ أجيبي؟
قلقي؟ إلحادي؟ غثياني؟![5].

• عبث شاعرات مغمورات من سورية:

وهذه شـاعرة ضائعة تدور في اضطراب وحيرة وتنطق باليأس القاتل وتتردد في أمرها وتجهل مصيرها ولا تعرف الغاية من خلقها؛ فقد قالت:

أنـــا مـــن؟ أنـــا لا أعــلـم،
شـــيء بـــصـــدري مـبـهـم
مـــاضٍ تــولــى كــالـشــعــا
ع وحـــاضــرٌ يــتــحــطــمُ
لــكـــأنــي أبـــنـــي غـــدي
ويـــد الـــزمـــانِ تــهــدمُ

هذه الأبيات منسـوبة إلى الشاعرة السـورية (فاطمة البديوي) ومعانيها ظاهرة في ألفاظها[6].

وبعض الشـعراء المعاصرين يُسَـرِّح طرفه بين النســاء ويدعو في أشعاره إلى اقتناص فرص العلاقة الناشئة عاجلاً أو التخطيط لها مسـتقبلاً من غير تضييع للفرص؛ فكأنما هو حيوانٌ يتجول في غابة عارياً لاهثاً راكضاً وراء شـهواته ضارباً بأصول التدين وبمكارم الأخلاق عُرضَ الحائط؛ معلناً في صراحة مبدأه في الحياة، فيقول:

سألتمس الجمال بكل وجه
وأبتدع الهوى فصلاً ففصلا
فحبٌّ في الشتاء يشيعُ دفئا
سأخلعه إذا ما البرد ولّى
وحبٌّ بعد حبٍّ بعد حبٍّ
سأعشق لن أكِلَّ ولن أمَلاَّ
سأغتنم الدقائق والثواني
سأسهر لن أضيع الوقت قتلا
فربَّ دقيقةٍ لقحت بحبٍّ
أتتني من ضمير الغيب حبلى

هذه الأبيات للشاعر السوري (وجيه البارودي)[7].

وعلى الرغم من أن بعض الشعراء قد جرَّب تجربة الشاعر السابق؛ فجاس خلال الديار، وانغمس في حمأة الجنس وما في حكم هـذه الأقذار وتقلَّب فيها وصوَّب وصعّد، ومع هذا كله فإن ذلك لـم يُنْهِ أحزانه، ولم يشـفِ آلامه، ولم يحقق أحلامه، وإنما زاده هماً إلى همّه، وغمّاً إلى غمّه. وممن كان مشـهوراً في هذه المقامات معروفاً بتلك التصرفات؛ نسوق نتيجـة محصلاته ونهاية مقدماته فلعل غيره من الشـعراء يستفيد من تجربته ويعتبر بمركبه؛ ذلكم هو نزار قباني الذي نطق بمحصلة تجربته قائلاً:

الجنس كان مُسكناً جربتهُ
لم ينهِ أحزاني ولا أزماني
والحب أصبح كله متشابهاً
كتشابه الأوراق في الغابات

فماذا ينتظر من مثل هذه المعاني الواردة في تلك الأشعار المتقدمة إذا ما سُمعت وارتفع علمها؟ وأي نتيجة تنتهي إليها؟ إنه لا يختلف عاقلان في أنّ من نتاج ذلك إشـاعة الفاحشة

(1) المجموعة الكاملة، لنزار قباني: ٢/١٦٧.
(2) الأعمال الشعرية الكاملة، لمعين بسيسو، ص ١٥٢.
(3) ديوان الفيتوري: ١/٨٧٣.
(4) حركة الشعر الحديث في سورية، لـ د. أحمد بسام الساعي، ص ٤٤٤.
(5) الأعمال الكاملة، ص ٧٢.
(6) حركة الشعر الحديث في سورية، ص٥٤٤.
(7) حركة الشعر الحديث في سورية، ص ٨٦٤.

فـــي الذين آمنوا والترغيب في فعلها، والســخرية بكل خُلُق ينهـــى عنها، والطعن في كل دين يحرمهـــا، وفي ذلك إهانة للمســلمين في أعراضهم، ونيلٌ من محارمهم واجتراء على نســائهم وعبثٌ بأخلاقهم وخطرٌ عظيم محدقٌ على دينهم، وقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿ إنَّ الَّذين يُحبُّون أن تشيع الفاحشَة في الَّذين آمنُـوا لهُم عذابٌ أليمٌ في الدُّنْيا والآخـرة واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمُون ﴾ [النور: ١٩]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ إنَّ الَّذين يُؤْذُون اللَّه ورسُوله لعنهُم اللَّهُ في الدُّنْيا والآخرة وأعد لهُمْ عذابا مهينا ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

إن الأمر يطول لو تناولنا مظاهر الانحراف في بقية فنون الأدب في العصر الحديث وبخاصة ما يتعلق بالروايات التي ذاع صيتها وظهر أمرها وعجّت بالرذائل والأدب المكشـوف في كثير من مضامينها إلا ما رحم الله، وإنما العبرة بسلامة المضمون واســتقامة المنهج وصحة المعتقد فيما يدور على لســان أبطـال تلك الروايات أو الشخصيات الثانوية، وحتى لو ســيق الانحراف والضلال على ألسنة بعضهم فلا ينبغي أن تختـتم الرواية من غير تصحيح لـمـا وقع من زلل أو خطأ؛ حتى يتبين لكل قــارئ وجه الصواب من الخطأ، وحتى يظهر له المنهج السليم والطريق المستقيم الذي دلت عليه النصوص ورسمته قواعد الشريعة ليستقيم المجتمع ويسلم كيانه.

إن حديــث النعمان بن بشــير ـ رضي اللــه عنهما ـ يكاد يكون قاعدة مفيدة تضبط هذه المسألة الخطيرة وترسم المنهج السليم للمجتمع المســلم؛ فلقد حدَّث النعمان ـ رضي الله عنه ـ عن النبـــي ﷺ أنه قال: «مثل القائم على حــدود الله والواقع فيها كمثل قوم اســتهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أســفلها؛ فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم؛ فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ مَنْ فوقنا؛ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» أخرجه البخاري في صحيحه.

فقــد علّق هذا الحديث ســلامة المجتمع بالوقوف أمام المنكرات القولية أو الفعليــة والحد من الحريات التي يكون إطلاقها وانطلاقها سبباً في إلحاق الضرر والأذى بالآخرين، ولم يحدد الحديث نوع الأذى سوى الكشف عن عاقبته وبيان نتيجته وهي هلاك الجميــع إذا لم يقفوا دونه؛ وبذلك أفاد الحديــث العموم في أن كل ضرر أو أذى ـ قولياً كان أو فعلياً ينبغي الحد منه والوقوف أمام مصدره بالتي هي أحسن، فإن لم يكن فبما يدفع الأذى ويمنع الضرر. وبيّن الحديث أن ذلك واجــب اجتماعي جماعي؛ وذلك حتــى ينجو أفراد المجتمع وتستقيم حياتهم وتحفظ كرامتهم؛ ولذلك فقد قضى النبي ﷺ في حديث رواه ابن ماجه في سننه بأن «لا ضرر ولا ضرار».

وبذلــك يُعلَم أن كل حُرية تصــدر عنهـا أذيـة للفرد أو للمجتمــع فمن مصلحة الجميع مصادرتها والوقوف أمام مصدرها وتصحيح مســارها، ويندرج في ذلك حرية الأدباء على مختلف مشــاربهم ومهما تعددت فنــون نتاجهم؛ فإن الضابــط لهذه الفنون أن تكون موافقــة للحق نافعة للخلق أو علـى الأقل لا تصادم الحق ولا تفــتن الناس عن دينهم ولا يكون فيها تهييج لمشــاعر العنصرية أو الجنسـية أو المذهبية أو الطائفية أو ما في حكم ذلك مما يخالف قواعد الدين أو ينال من وحدة المســلمين، والتعاون على ذلك دفعاً لــه وتجفيفاً لمصادره ومناوئةً لدعاتــه من التعاون على البر والتقوى، والتســاهل في ذلك أو إذاعته أو نشره أو ترويجه في الفضائيات أو الصحف أو المجلات أو الإذاعات أو شبكة المعلومــات من التعــاون على الإثم والعــدوان، وهذه قاعدة عريضة عظيمة نبّه الله ـ عز وجل ـ إليها وخاطب المســلمين بها قائــلًا: ﴿ وتعاونُوا علـى البر والتَّقـوى ولا تعاونُـوا على الإثم والعُدوان واتقُوا الله إنَّ اللَّه شديدُ العقاب ﴾ [المائدة: ٢]. وينبغي أن يُعلَم أن استمراء الفتن والتساهل بها وعدم وَأْدِها في مهدها يفضي إلى العقوبة الربانيــة التي إذا وقعت تعمّ ولا تخص؛ فقد قال ـ ســبحانه ـ: ﴿ واتَّقُوا فتْنةً لا تُصيـبن الذين ظلموا منكُم خاصَّةً واعلمُوا أنَّ اللَّه شـديدُ العقاب ﴾ [الأنفال: ٢٥]. ثم ينبغي أن يُعلَم ـ أيضاً ـ أن التولي عن دين الله ـ عز وجل ـ وعـدم الغيرة عليه وعلـى أصوله وأركانه خطرٌ ماحق رتّب الله ـ عز وجل ـ عليه إنذاراً لكل مــن تتحقق فيه هذه الصفة قائلاً: ﴿ وإن تتولَّوا يستبدلْ قومًا غيركُم ثُمَّ لا يكُونُوا أمثالكم ﴾ [محمد: ٣٨].

وأخيراً:

ولطالب الاســتزادة في هذا الموضوع وما تعلق به فدونه الكتب الآتية:

١ ـ الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، دراسة نقدية شرعية، وهو رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم العقيدة في كليــة أصول الديــن بجامعة الإمام محمد ابن ســعود الإسلامية نال بها مؤلفها الدكتور: سعيد بن ناصر الغامدي درجة الدكتوراه مع مرتبة الشــرف الأولــى وهي في ثلاثة مجلدات، وقد أشرف عليها سماحة مفتي عام المملكة العربية الســعودية فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، وهو أوسع مرجع حديث متخصص في هذا الموضوع.

٢ ـ خطــاب الحداثة في الأدب؛ الأصول والمرجـعية، د. وليد قصاب، ود. جمال شحيّد.

٣ ـ التجديد في الشعر بين الإبداع والتقليد والانحراف، د. عدنان علي رضا النحوي.

٤ ـ الالتزام الإسلامي في الشعر؛ لكاتب هذه السطور. وغير ذلك من الكتب والمؤلفات.

التحلل والتغريب في الأدب العربي الحديث

أ. د. حسين علي محمد

ما أكثر الفنون القولية (القصائد، والقصص، والمسرحيات، والمقالات) التي تنشر الفساد في الأرض عن طريق التغريب الاجتماعي والتحلل الأخلاقي والإثارة الجنسية، أو تمجيد الشاذين والمنحرفين بتقديم أعمال أدبية عنهم، وتجعلهم قدوات غير صالحة!

• الولع بتقديم الشاذين والشاذات:

في قصص بعض كتابنا المعاصرين نرى ولعهم بتقديم الشاذ وغير العادي، ونرى ازدراء عالَم الأسوياء من ذوي العقل والاتزان، ونرى محاولتهم الترويج لقصص تتناول الشذوذ في كل شيء على مبدأ الصحفيين القائل: أن يعضَّ كلبٌ إنساناً ليس خبراً؛ ولكن الخبر أن يعضَّ الإنسانُ الكلبَ.

ومن ثم تكون خطورة هذه الأعمال التي يُقبل عليها شبان في مقتبل العمر؛ فتكون النافذةَ التي يُطلون منها على العالم الأدبي، وما أرخصه من عالم، هذا الذي تُصوره أمثال هذه القصص المريضة الشاذة، ويتصوّرون أن الكتابة الحقيقية تكون هكذا!

ولن أُناقش مضامين هذه الأعمال مهما ادّعى أصحابها أنها قصص وروايات عالية جديرة بالقراءة والتأمل؛ إذ إن الوسيلة (اللغة، والأسلوب، وطريقة عرض المضمون) لا بد أن تكون شريفة لتصل بنا إلى الغاية المرجوة، أو التأثير المطلوب.

وفي قصة (انتحار صاحب الشقة) للروائي الراحل



إحســان عبد القدوس التي وقف أمامهــا الدكتور محمد مصطفى هدارة، حيث ردّ على الدعوى التي يُريد إحســان من خلال جزء مــن القصة أن يُمررهــا ويؤكّدها وهي أن الريف مورد البغايا والمنحرفات. يقول الدكتور هدارة:

«إن إحســان هنا يُبرر فقره الثقافي الشديد في معرفة التحليل النفســي، وفي معرفة الأصول والعادات الســائدة في مجتمعنا المصري. إن الفلاّحة التي يســتقدمها السادة للخدمة في البيوت لا تبيع عرضها بهذه الســهولة المطلقة التي يصورها إحســان عبد القدوس وكأنها أَمَة في ســوق الرقيــق، فلها أســرة يُضحي أفرادها بحياتهم في ســبيل العــرض. هذا ما نعرفه عن ريفنا الذي عشــنا فيه وعرفنا قيمه وخبرنا عاداته، أما فلاحات إحسان... فهن لا ينتمين قــط للريف المصري، ولا علاقة لهن بالمجتمع الذي يتحدث عنه إحسان إلاّ إذا كان مجتمعاً منحلاً لا مكان للدين فيه».

ولا يهمنــا هنا أن تتفق القصص مــع المجتمع وعاداته وتقاليده، فقد تكون العادات والتقاليد سيئة وغير إسلامية، ويرفضها المجتمــع، ولكن ما نرجوه أن يكــون الفن هادفاً داعياً إلــى تثبيت التصور الدينــي لا هدمه، وغير مكرس لنشر الفساد في الأرض.

• عمارة يعقوبيان وتسويق الشذوذ:

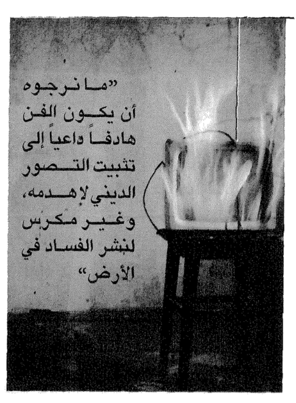
قد يكتب الكاتب بلغة فجة مباشرة بعيدة عن الفن، وهو واثق أن كتابه ســيجد الرواج؛ لأنه يتناول فئة من الشاذين والمنحرفين.

انظــر إلــى هذه الفقرة عــن نادٍ للشــواذ في مصر المحروســة (!!) كمــا يصوره علاء الأســواني فــي رواية (عمــارة يعقوبيان) التي لقيت حفــاوة من الصحف الأدبية والسينما: «صاحب البار اسمه عزيز، وشهرته (الإنجليزي)، وهو مصاب بالشــذوذ، ويقولون إنه رافق الخواجة اليوناني العجوز الذي كان يملك البار فأحبه ووهبه البار قبل وفاته، ويشــيعون أيضاً أنه ينظم حفلات ماجنة يقدم فيها الشواذ إلى الســياح العرب، وأن دعارة الشــواذ تــدر عليه أرباحاً طائلة يدفع منها رشاوى جعلته في مأمن تام من المضايقات الأمنية» (ص٥٢).

إنها عبــارة تخلو من أي فن، ويقدمها في تقريرية فجة وسطحية لافتة!

وتشــيع في الإبداع العربي المُعاصر نقيصة بغيضة هي تزيين الرذيلة، تســتوي في ذلــك الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والقصيدة الشعرية!

فــالأم - في رواية (عمارة يعقوبيــان) تطلب من ابنتها ممارســة العمل مهما لاقت من تحرشات جنسية: «إخوتك في حاجة إلى كل قرش من عملك. والبنت الشاطرة تُحافظ على نفسها وشغلها»! (ص٦٢).



ونتوقف أمام تزيــين رذيلتي الزنــا واللواط في بعض الأعمال الإبداعية التي يعتقــد أصحابها أنهم يقدمون من خلالها صوراً جديدة للإبداع الأدبي!

فها هي (ناني الأرستقراطية) في رواية السيد إبراهيم (أيام في الوحل) تتحدث عن تجربتها في البغاء - بكل فخر! في عصر الانفتاح:

«الأمــر ليس مأســاة.. أنا اخترتُ حياتي بنفســي، لم أكــن ضحية لأحد، أمــي هجرتني وتزوّجــت، وأبي هجر أمي وتزوّج هو الآخر. وعشــتُ أنــا مدلّلةً في بيت الجدة. افترسني الســائق برضاي وأنا في عمر الزهور وأصبحت عادة، وكنتُ أختارُ الضحايا، ثم لم أعد أقنع بالقليل فتركتُ المنزل وعشــتُ حرة أتجوّل في الفنادق والشقق المفروشة،

أختـار زبائني بعنايـة. والبلد مليانة مـن كل صنف ولون، ونسميها بالليالي السـياحية، أقصد الليالي الحمراء، وكله سياحة في سياحة! بلدنا انفتح على الدنيا كلها، ونحن مثله انفتحنا على كل الأجناس والألوان. الشقق المفروشة سهّلت لنا الأمـور؛ هي أوكار اللذة، تأتي بالعملة السـهلة، أقصد العملة الصعبة، وأنا واحدة ممن يُسـاندون اقتصاد البلد.. مورد سياحي متجدد».

فهاهو الكاتب الفاضل يسوق على لسان هذه البغي:

- أن الزنا ليس مأساة.
- أنهـا هي التي اختـارت الرذيلة، ولـم تكن ضحية لأحد.
- أنهـا هي التي تختار مـن تُريد أن تُمـارس الرذيلة معهم.
- أنهـا حرة؛ وتفهم الحرية على أنها مُمارسـة الرذيلة بدون زاجر ولا رادع في الشقق المفروشة والفنادق.
- البلد مليئة من كل صنف ولون، كمـا تقـول (نانـي) أو يقول (المؤلف) على لسانها.
- أنها تُساعد البلد في السياحة بارتكابها هذه الرذيلة، وتجلب له العملة الصعبة.

أليـس لهذا الأدب خطـر على الناشـئة وعلى دينهم؟ ألا يصور بلداً إسلامياً (وهو مصر) وكأنه قد امتلأ بالرذيلة والفجور؟ والأدهى والأمرّ أن الرواية تصور هذا العهر وكأنه البديل للزواج!

«أنت خايبة يا (لواحظ)؛ زواج إيه وزفت إيه؟! أنت حرة أحسـن تكسـبي كتير.. عندنا الأمريكي والأفريقي، وحتى الصنف الياباني موجود. إحنا يا بنت الحلال نعيش الانفتاح الحقيقي. بلدنا بلد سـياحي، ويوظف كل شـيء من أجل السـياحة. والبلد تطور القوانين والعادات والتقاليد لتمشي مع العصر السـياحي.. مهنتنا أصبحت كنـزاً تدر ذهباً.. بلاش حكاية الجواز دي!».

وتمتلـئ الرواية بتصوير نماذج من هـذا الفجور، وإن زعمت أنها تنتقده في سطور لاهثة سريعة، وفقرات مبتورة خارجة عن السياق.

• موسى صبري القبطي وتزيين الرذيلة:

قـد يقوم تزيين الرذيلة من خلال مقالة أدبية أو تحقيق صحفي، فتكون الدعوة إلى الفجور أشدَّ وطأة على المتلقي، مثل تلك المقالة التي كتبها موسى صبري في صحيفة (أخبار اليوم)، ونقلها عنه سيد قطب في كتاب (الإسلام ومُشكلات الحضارة)، والمقال طويل، نكتفي بإشارات منه:

«قال لي أستاذ جامعي سويدي: إننا نعلِّم أبناءنا وبناتنا في المدارس الثانوية، وفي سن مبكرة، كل شيء عن الجنس واضحاً صريحاً. ليس لدينا مشكلة جنس. إن المتعة الجنسية كمتعة الطعـام اللذيذ ومتعة الملابـس الأنيقة. والعلاقات الجنسـية بين الرجال والنساء قبل الزواج هي شيء طبيعي وعادي، وما يُباح للشاب يجب أن يُتاح للفتاة».

إن الكاتب الذي يصف السويد في مقاله بأنها (أرقى بلد في العالم)، يريد أن يُزيِّن لنا الرذيلة باسـم (حرية الحب)! وهذا تعبيره؛ بل يُزيِّن لنا رذيلة أخرى هي الكفر!

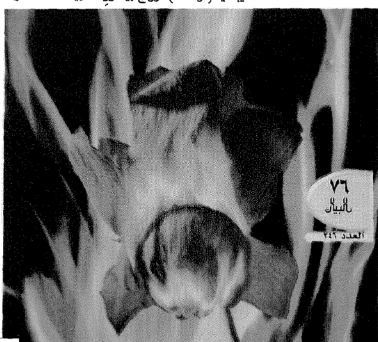
يقـول: «وإذا كانـت حرية الحب مكفولة في السـويد فهناك حرية أخرى يتمتع بها أهل السـويد؛ إنها حرية عدم الإيمان».

إنه يصـف غير المؤمنين بأنهـم يُمارسون حـريتهـم! و (يتمتعون!) وكأن عدم الإيمان متعة!

ولكن يأبى الله إلا أن يسوق الحقيقة على لسان الكاتب نفسه، فيقول بعد سطور:

«إن عُشـر الذين يصِلون إلى سـن البلوغ في السـويد يتعرّضون لاضطرابات عقلية تُلازم أمراضهم الجسدية».

إن الزنا كبيرة من الكبائر، وقد قال الله في حقه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَـةً وَسَاءَ سَـبِيلاً﴾ [الإسراء:٣٢]، والنهي



بعـــدم القرب أبلغ فـــي التحريم، والإســـلام حين نهى عن جريمـــة الزنـا لم يقصـد التحكم والحـــدَّ من الحرية، كلّا! بـل لأن الله ـ ســـبحانه وتعالى ـ قرّر من الأحكام ما يجعلنا ومجتمعنا نشعر بالحياة العزيزة والعفيفة إن سلكنا الطريق التي رســـمها لنا أمراً ونهياً، غير أن الإنسان بطبيعته ميّال إلى إرضاء شهواته دون مراعاة للنتائج.

إن من نتائج الزنا: اختلاط الأنســـاب، وكفى به هادمًا لأساس المجتمع! ومن أمراضه: الزهري، والسيلان، ونقص المناعـــة المكتســـبة (الإيـــدز)، وهذا الأخيـــر أخذ يعصف بالمنحرفين والشواذ في الأعوام الأخيرة.

• مفردات الرذيلة في شعر الحداثة:

تشـــيع مفردات الرذيلة في شـــعر الحداثيين، فها هو سميح القاسم يقول:

«وطني يا قرطاً يتأرجح

من أذن الكرة الأرضيةْ

يا امرأة تفتح فخذيها للريح الغربيةْ»!

ويقول أدونيس:

«هذي بلاد

رفعت فخذها راية»!

وفي التغريب يشِيع في الشعر العربي استعمال مفردات لا تليـــق مع الله جل وعلا. يقـــول محمد الماغوط في نهاية إحدى قصائده:

«إنني أعد ملفاً ضخماً

عن العذاب البشري

لأرفعه إلى الله

فور توقيعه بشفاه الجياع

وأهداب المنتظرين

ولكن يا أيها التعساء في كل مكان

جُلُّ ما أخشاه

أن يكون الله أميّا»!

ويمتد التحلـــل الأخلاقي والتغريب ليدل على فســـاد الرؤية/ فســـاد الصورة عند بعض المبدعين، فنجد بعضهم يتحـــدث عـن الله ـ تبـارك وتعالى ـ كأنه يتعـامل مـع رمز ـ ولا أقول مع وثن ـ تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً.

فعبـــد الوهاب البياتـــي في ديوانه (كلمـــات لا تموت) يقول:

«اللهُ في مدينتي يبيعهُ اليهودْ

اللهُ في مدينتي مُشرَّدٌ طريدْ!

أرادهُ الغزاةُ أن يكونْ

لهمْ أجيراً شاعراً قوادْ

يخدعُ في قيثارِهِ المُذهَّبِ العبادْ

لكنَّهُ أُصيبَ بالجنونْ!

لأنَّهُ أرادَ أنْ يصونْ

زنابقَ الحقولِ منْ جرادِهمْ

أرادَ أنْ يكونْ»!

أي إله هذا الـــذي يُباعُ والذي يعيش مشـــرداً طريداً، والذي يريد منه أعداؤه أن يتحوّل إلى أجير، وإلى شـــاعر، وإلى قواد؟! هل يتســـاوى هؤلاء الثلاثة عند البياتي والذي يُصاب بالجنون أخيـــراً؛ لأنه حاول أن يكونَ ذاتهُ (أي يكون إلهاً بحق!).

إنه لم يصور الله كما صور لينين:

«... أقوال لينين

وهي تُلهمُ الأجيالْ

وتصنعُ الرجالْ

ألمحُها في وطني تُزلزلُ الجبالْ

يا إخوتي العمال!».

والتحلل الأخلاقي والتغريـــب الاجتماعي مظهران من مظاهر الســـقوط فـــي الأدب العربي الحديـــث، ولا تكفي المواعظ فيه لتطرده أو تبعده عن الساحة، أو تنقي الساحة منه. وإنما المطلوب من الأدباء المنتمين لهذه الأمة أن يقدموا نماذج عالية من الأدب الراقي الذي لا يســـف حتى ينتصر الطيب الجيـــد على الخبيث المرذول، ومـــا ذلك على أدباء الأمة بعزيز!

• المراجع:

١ ـ الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، للدكتور صابر عبد الدايم، ط٢، دار الشروق، القاهرة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢ ـ أيام في الوحل (يوميات شقة مفروشة)، للسيد إبراهيم، دار السندباد المصري، القاهرة ١٩٩١م

٣ ـ الحداثة العربية: حقيقتها ومرجعيتها، د. وليد قصاب، جمعية حماية اللغة العربية، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة ١٢٤٦ ـ ٢٠٠٥م.

٤ ـ خطاب الحداثة في الأدب: الأصول والمرجعية، د. وليد شحيد ود. وليد قصاب، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٥م.

٥ ـ عمارة يعقوبيان، علاء الأسواني، ط٧، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٥م.

٦ ـ القرآن ونظرية الفن، د. حسين علي محمد، ط٢، مطبعة أبناء وهبة حسان، القاهرة ١٩٩٢م.

صورة المرأة لدى الحداثيين في الأدب العربي المعاصر



د. سهيلة زين العابدين حمّاد

• **مدخل:**

الأدب المكشـــوف ليس أدباً، إنّما هو انعدام الأدب؛ لأنّ الأدب يهدف إلى تهذيب النفس الإنســـانية، والسمو بها إلى مراتـــب عليا من الطهر والعفاف، أمّا الأدب المكشـــوف فهو يهدف إلـــى الانحطاط بالنفس الإنســـانية إلى مراتب دنيا مـــن الهمجية الحيوانية لتدنيس كلّ عفيف طاهر، ويكفي أن أقول: إنّ هذا الأدب تروّج له الصهيونية العالمية، وتسعى إلى نشـــره في العالم ليعمّ الفساد، وهو ما يسهل عليها تقويض الأديان للســـيطرة على العالم، وقد جاء النصّ على ذلك في أحد بروتوكولاتهم: «يجب علينا أن نعمل على انهيار الأخلاق في كلّ مكان فتســـهل سيطرتنا على العالم، إنّ (فرويد) منّا، وسيظل يعرّي الإنســـان ويعرّض علاقته الجنسية في ضوء الشـــمس حتى لا يبقى في نظر الشـــباب شـــيء مقـــدّس، ولا يبقى لدى الشابات أمر يستحيين من إتيانه، ويصبح همّ النساء والرجال آنذاك إرواء الغريزة الجنسية، وحينئذٍ تنهار الأخلاق».

والمتأمـــل في أحوال المجتمعـــات الآن، يجد أنّ اليهود قـــد حققوا مـــا يهدفون إليه، بل يرى أنّهم قد دخلوا بيوتنا، وأصبح من نسائنا من تطالب المرأة بالكتابة في هذا الأدب، بل أكثر من هذا؛ فلقد طالبن بالإباحية الجنســـية وممارسة المرأة للجنس قبل الزواج، كلّ هذا ناتج عن الحداثة والترويج للماركســـية والوجودية والفرويديـــة والعلمانية وغيرها من المذاهـــب والفلســـفات والنـظريات التي كـــان اليـهود وراء وجودها لإشاعة الفساد وهدم الأخلاق.

• **المرأة في شعر صلاح عبد الصبور:**

المرأة في نظر صلاح عبد الصبور، وهو كمعظم شـــعراء جيله، أنهـــا مترفة تعيش كأميرة غارقة فـــي نعيم القصور العالية الأسوار فيقول لها:

جارتي لست أميرا
لا ولست المضحك المراح في قصر الأمير
أنا لا أملك ما يملأ كفيَّ طعاما

ثم يتعرض إلى وصف المرأة فيقول:

وجهها خيمة من نور
شعرها حقل حنطة
خداها فلقتا رمان
جيدها مقلع من الرخام

ووصـــف المرأة بهذه الطريقة يتناقض مع روح الإســـلام الذي حرص كل الحـــرص على صيانتها وحماية جمالها من أن يكون حديث مجالس الرجال.

• **المرأة في شعر نزار قباني:**

ثـــم نأتي إلى نـــزار قباني؛ إذ نجده قـــد نفى عن عالمه الشـــعري كل امـــرأة تجاوزت الأربعين عامـــاً كما قال ذلك الدكتور عبد المحسن بدر.

فهذا الشـــاعر من أكثر الشعراء الذين أساؤوا إلى المرأة

وامتهنوها وعرَّوْا جسدها تعرية كاملة، بل نجده حتى في رثائه لـ (بلقيس) زوجته وأم أولاده صورها لنا أنها امرأة تافهة لا هم لها سوى شعرها وعطرها وملابسها وتدخين السجائر واحتساء الخمر رغم وصفه لها بالمعبودة والرسولة؛ أي أنه كفر بالله ورسوله؛ فهو لا يجد ما يذكِّره بها إلاَّ مشطها وأعقاب سجائرها والكوب الذي تشرب فيه الخمر... إلخ. وقال: إنَّ الأنوثة ماتت بموتها، أي أنَّ الأنثى في نظره هي كما وصف لنا بلقيسه. وبلقيس كما نعلم أديبة، فكان عليه - على الأقل - أن يعطي لفتة لفكرها أياً كان شخصها وسلوكها، ولكن كما يتضح لنا أن المرأة في نظره جسد فقط، وما يربطه بها هي أمور عادية بحتة، تلك الأمور التي تشبع غرائزه وشهواته.

ورغم إساءته للمرأة كل هذه الإساءة وامتهانه لها نجد للأسف الشديد أن معظم عُشاق شعره من النساء ومن الفتيات المراهقات اللاتي تبهرهن تلك الألفاظ ولا يدركن أبعاد وخطورة معانيها على تفكيرهن وسلوكهن؛ فهن مثل شاعرهن يبهرهن المظهر ويغفلن عن المضمون والجوهر، ونجدهن يتغنين بشعره الماجن ويتلهفن على قراءته ويعتبرنه الشعر المعبر الراقي. وهنا تكمن الخطورة؛ لأن ملهمات نزار قباني وأمثاله قد غدون المثال الذي يحتذى لدى الكثير من فتياتنا ولا سيما المراهقات حديثات السن، ولهذا أردت أن أركز على موضوع المرأة في الشعر لما للشعر من دور خطير في تسيير المرأة وتحديد سلوكها ووجهتها. ومما لا شك فيه ولا جدال أن للشعر أثراً كبيراً في ما وصلت إليه المرأة من انحطاط خلقي وهبوط مسلكي.

• المرأة في شعر أدونيس:

لقد امتهن أدونيس المرأة أيما امتهان، وجعلها محطاً للجنس والشهوة، وجعل من أعضاء جسدها مفردات للغته الشعرية. فشعر أدونيس جميعه لا يخلو من هذه العبارات: «النهود والأثداء والأفخاذ» وهذه أمثلة لبعض شعره:

جاء في قصيدة «قبر من أجل نيويورك» قوله:

«نيويورك! أيتها المرأة الجالسة في قوس الريح، شكلاً أبعد من الذرة، نقطة تهرول في فضاء الأرقام فخذاً في السماء، فخذاً في الماء».

وقوله في «هذا هو اسمي»:

«عندي لتدبيك هالات ولوع».

وقوله في القصيدة ذاتها:

«سنقول الحقيقة: هذي بلاد رفعت فخذها راية».

وقوله في «وطني في لاجي»:

«أيامي نار إنني دم تحت نهديها صليل، والإبط آبار دمع».

ويقول:

«ذبت في جنسي، جنسي بلا حدود».

• أدونيس وأبو نواس:

يقول أدونيس عن أبي نواس في كتابه «مقدمة للشعر العربي»:

«أبو نواس شاعر الخطيئة؛ لأنه شاعر الحرية؛ فحيث تنغلق أبواب الحرية تصبح الخطيئة مقدسة؛ بل إن النواسي يأنف أن يقنع إلا بالحرام ولذيذه؛ وإذ تمنحه الخطيئة الراحة يغالي في تمجيدها، فلا يعود يرضى بالخطيئات العادية، وإنما يطلب الخطيئات الرائعة التي يستطيع أن يتباهى بها ويتيه على الخطيئات الأخرى. فالخطيئة بالنسبة إليه في إطار الحياة التي كان يحياها، ضرورة كيانية؛ لأنها رمز الحرية؛ رمز التمرد والخلاص».

ثم يقول:

«هكذا يؤكد أبو نواس فصل الشعر عن الأخلاق والدين رافضاً حلول عصره، معلناً أخلاقاً جديدة هي أخلاق الفعل الحر والنظر الحر: أخلاق الخطيئة. فالنواسية استقلال يثير ويحرك، وقوف على حدة، يغري ويشجع، مقابل المجتمع وأخلاقه، ضمن المجتمع وخارجه في آن. والإنسان النواسي هو الإنسان العائش مع ذاته، المتخذ من العالم كله مجالاً لتوكيد ذاته، الساخر من القيم العامة النهائية، ومن القائلين بها والقيمين عليها، إنه الإنسان الذي لا يواجه الله بدين الجماعة، وإنما يواجهه بدينه هو، ببراءته هو، وخطيئته هو، ولعله من هذه الناحية أكمل نموذج للحداثة في موروثنا الشعري».

ويصف أدونيس الشعر الماجن لأبي نواس بأنه:

«مصابيح تضيء الزمن، الزمن حاضراً، الحاضر هو وحده الغني، المليء، اليقيني، فيه يمتلك الإنسان نفسه ويسيطر؛ لأنه يريد ويختار ما يريده ويختاره يعوض عن السقوط في المستقبل؛ لذلك لا يخاف العقاب، بل يقبل ما يؤدي فعله إلى العقاب».

من هنا كان أبو نواس في نظر أدونيس (بودلير) العرب.

• مهاجمة أدونيس للمرأة في الإسلام:

مما سـبق اتضحت لنا نظرة أدونيس للمرأة؛ وهي نظرة تخالف التصور الإسلامي؛ إذ لم يكتف بامتهان المرأة وابتذالها واعتبارها محطاً للجنس والشـهوة، بل ادعى أن هذه نظرة الإسـلام أيضاً؛ مستنداً في ذلك على النصوص الإسرائيلية الأولى المحرفة، فنسـب ما جاء فيها إلى الإسلام، كما نجده نسـب إلى الإسـلام نظرة المعتزلة والصوفية للإنسان؛ إذ نجده يقول: «ورغم أن الإسـلام حرر المرأة من قيود كثيرة، اجتماعية وإنسـانية، في الجاهلية، فإن ثمة تقليداً إسلامياً يُجْمِع على أن الله عاقب المرأة بعشر خصال: بشدة النفاس، والحيض، والنجاسـة فـي بطنها وفرجهـا، وجعل ميراث امرأتين ميراث رجل واحد، وشـهادة امرأتين كشهادة رجل، وجعلها ناقصة العقل والدين لا تصلي أيام حيضها، ولا يسلَّم على النساء، وليس عليهن جمعة ولا جماعة، ولا يكون منهن نبي، ولا تسـافر إلا بولي، وهذا عدا تفضيل الإسلام الرجل علـى المرأة، من حيث أنه «قـوَّام عليها»، ثم يواصل هجومه وافتراءاتـه على الإسـلام، فيدعي أن الحب في الإسـلام جنس. يقول أدونيس:

«لم يغير الإسـلام طبيعة النظرة إلـى المرأة، كما كانت في الجاهلية، أو طبيعـة العلاقة بين الرجل والمرأة، واكتفى بـأن نظم هذه العلاقة فوضع لها قانونـاً، وجعلها تتم وفقاً لطقوس معينة».

• الحب في القرآن الكريم كما يراه أدونيس:

يرى أدونيس أن الحب في الإسـلام بقـي كما كان في الجاهلية حسياً، ولذلك من الأفضل الاقتصار على استخدام لفظـة الجنس، دون الحب؛ فالحب في الإسـلام جنس في الدرجة الأولى.ويمكـن أن نوجز خصائص الحب كما تظهر لأدونيس في القرآن، بما يلي:

١ - (ليس في العلاقة الجنسـية بين الرجل والمرأة حب، بالمعنـى الذي نقصده الآن بهذه الكلمة. والآية الوحيدة التي تشـير إلى شـيء من الحب هي التي وردت في سورة الروم آية ٢١ وهي القائلة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

٢ - (الإنسـان مجزأ في الإسلام إلى جسد وروح وعقل. ومن هنا يصعب فهم وحدته وفهم الوحدة بعامة).

٣ - (الحب فـي القرآن نقيض الحب الأفـلاطـوني، لا حنين ولا بحث، لا وعد بالمستقبل، لا تطلُّع، لا هاجس علو ولا هاجس اتحاد).

٤ - (الحـب في القرآن قـرار أو علاقة يقررها الرجل، وعلـى المـرأة أن تخضع؛ فليسـت الغاية الحـب، بل التيه الجنسي. وهذا ما فصل الحب عن العمل واللغة).

ثم يستطرد أدونيس مفسراً نظرة الإسلام للمرأة والنفس الإنسـانية بصورة خاطئة فيقول: «الحـب هنا مجرد حب طبيعي بيولوجي، المرأة فيـه لا تعرف الرجل، وهي لا تأمل بـأن تصير الآخر أو تتخطاه. والواقع ليس هنا امرأة بل نساء. النساء بالنسبة إلى العربي تجسيدات مختلفة للمرأة: عذراء - زوجة - أماً. لا مجال للصديقة أو الغانية (الزانية). العربي المسلم لا تهمه المرأة، بل تهمه النساء وهـو لا يهمه أن يحببن، بل يهمه أن يمتلكهن» ثم يستطرد قائلاً:

«يتضح من ذلك أن القرآن، في هذه المسـألة، يسـوي النفس كتلة من الغرائز والأهواء وهو يضع لها قانوناً يسـمو بها ويصعِّدها. وهكذا أبقـى عليها كما كانت في الجاهلية، لـم يحاربها ولم يقتلها. وليس فيـه حب، بل جنس. وصورة المرأة فيه هي صورة الزوجة. والزواج متعة جسدية من جهة، وإنجاب من جهة ثانية. ومن هنا تقترن صورة الزوجة بصورة الأم».

ويستمر أدونيس في توجيه طعناته للإسلام، فيقول:

«ومن هذه الناحية ينسـجم الحـب القرآني مع الحب اليوناني الوثني الذي كان يرى في عهوده المتأخرة، خصوصاً، أن تعاليم القديس بولس نوع من الجنون، والأحاديث النبوية ترى فـي الرهبنة كذلك نوعاً من الجنـون. ولهذا يمكن أن نصف الحب القرآني بأنه امتلاك جسـدي من أجل القضاء على الشهوة التي هي رمز الشيطان؛ فالمهم هو إشباع الشهوة، وتسهيل هذا الإشـباع. هذه النظرة إلى المرأة، إلى العلاقة معها، تجعلها وسـيلة وآلة. والواقع أن الرجل المسـلم حين كان يتـزوج امرأة ثانية، لم يكن يشـعر أنه تخلى عن زوجته الأولى؛ ذلك أنه كان يراها وسـيلة، وكان ينظر إليها كشيء مما يملكه. فصورة العلاقة بين الرجل والمرأة في القرآن هي علاقة زواج، أي علاقة ارتباط تعاقدي، ديني، وليست علاقة حب يرى أن الزوجين شخص واحد، وأن الرجل حين يتخلى عن زوجته يتخلى عن جزء من كيانه».

وهكذا نجد أن (أدونيس) قد افترى على الإسلام باسم الإسلام؛ إذ قرر أموراً وفق هواه ونسبها إلى الإسلام، ونحن

لو قرأنا الصفحـــات التي قبل هذه الافتراءات نجده تحدث عن آراء الصوفية والمعتزلة، ثم نســب آراءهم إلى الإسلام، وقرر أن هذه هي نظرة الإســلام. كما نجده نسب النصوص الإسرائيلية الأولى حول الخطيئة الأزلية إلى الإسلام.

• المرأة في نظر إحسـان عبد القدوس من خلال قصصه:

«المرأةُ في نظرِ إحســان عبد القــدوس عبدةٌ لغريزتها الجنســيةِ التي تُسَيِّرُها وَفْقَ ما تشـــاء لا كــابح يكبَحُها، ولا ضابطَ يضبطُها، فتُسلِّمُ نفسَها لكلِّ الرِّجالِ، وتجمعُ بين أكثرِ من رجلٍ في آنٍ واحد، عرَّى جسَدها، وجعلَه حقاً مباحاً لكلِّ الرِّجالِ، لا قيمةَ البتة في نظره لعذريتها وشـــرفها، لقد جرَّدها من زوجيتهـــا وأمومتها وبنوتها وأخوتها، كما جرَّدها من شـــرفِها وملابسِها، دعاها إلى الحريةِ الوجوديةِ المطلقة، وجعلهـــا تتحررُ من كل القيم والتعاليم الســماوية، بل ســد أمامهـــا كلَّ أبـــوابِ الفضائل، وفتح لهـــا كلَّ أبوابِ الخطايا والرذائل، وجعل المجتمعَ مســؤولاً عن خطاياها. دعاها إلى التمردِ على كلِّ القيمِ والفضائل باسم الحريةِ والمساواة ومتعةِ الحياة ولذتها»[1].

حلَّل المحرمـــات: الخمرَ والمخدراتِ والســفورَ والتبرجَ والاختـــلاطَ ومراقصةَ المرأةِ للرجل وتعريهـــا أمامه، وحلَّل القبلاتِ والخلواتِ «خلو المرأة بالرجل»، ودعا إلى زواج المتعة، وهاجم وعارض بشـــدة تعاليم الإسلام التي تدعو المرأة إلى الفضيلة والاحتشـــام، وهاجم المجتمعات التي تلتزم بحجاب المرأة وتمنع الاختلاط[2].

والنساءُ في نظره كلهن سواء لا فرق بين متدينةٍ متحجبة وبين سافرةٍ متبرجة، أستاذةٍ جامعية وخادمة، وامرأةٍ مومس ســـاقطة، راقصة أو معلمـــة، فتاةٍ عـــذراء أو زوجة، أرملةٍ أو مطلقـــة أُمّاً أو ابنة، بل نجده أســـاء كثيـــراً إلى الأرامل والمطلقـــات، واتهمهن أنَّهن أكثر النســـاء يرتكبن الفواحش. فالنِّســـاءُ عنده جميعاً يســيطر عليهن «حيوان الجنس»، بل المتحجباتُ المتديناتُ في قصصِه أكثر نهماً، ويُسلِّمنَ أنفُسَهنَّ لأي كان لأنهن ـ كما يدعي يعانين من الكبت والحرمان[3].

نلمس هـــذا من خلال قصصه، فنجـــده في قصة (كل النساء) وهي قصة رمزية جريئة، وهذه القصة تبين بوضوح نظرة إحسان إلى المرأة، ودعوتها إلى التمرد على كل الفضائل والتقاليد.

كما نجـد إحســـان قـــرَّر في قصـــة «كـل النســاء» أنَّ قبلـــة الرجل لمرأة غير زوجته ليســـت حرامـــاً، وجعل المرأة ضعيفة تستســـلم لما يقول لها الرجل، فيحلل الحرام، وتقول له: هذا صحيح، وجعلته يقبلها!!! بل جعلها تسلم له نفسها، وأقنعها أنه لا يوجد شيء اسمه الشرف، وأنَّ المحافظة على الشرف تقليد من التقاليد، ويدعوها إلى التفريط في شرفها في سبيل اللذة والمتعة، ولنقرأ هذا الحوار في القصة ذاتها:

قال: ولكن لا تؤمنين بالتقاليد.

قالت ـ وكأنَّها تحاول أن تتكر ـ: أنا؟

قال: نعـــم! ألا تذكرين أول مرة خرجت فيها إلى... لقد قطعت يومها أول خيوط التقاليد..

قالت: هذا صحيح.. لقد مزَّقت التقاليد..

قال: ورضيتِ أن تتبعيني..

قالت: هذا صحيح.. لقد تبعتك.

قال: ليس هناك شيء اســـمه الشرف، لأنَّك لا تؤمنين بأنَّ هناك شيئاً اسمه التقاليد.

قالت: ولكني أحس أني وهبتك شيئاً.. شيئاً عزيزاً.

قال: إنَّك لم تهبيني شيئاً، ولكنك وهبتِ نفسك للحياة.

قالت: تقصد هذه اللحظات الجميلة؟

قال: نعم!

قالت: ولكنها مرَّت سريعاً.

قـــال: هكذا شـــأن الحياة مهما طالت فهـــي دائماً تمر سريعاً.

قالت: ولكني ضحيت بالكثير في سبيل هذه اللحظات.

قال: إنَّما تشـــعرين به ليس الإحساس بالتضحية، ولكنه الإحساس بالندم.

قالت: الندم على الشرف الذي فقدته..

قال: لقد اتفقنا على أن ليس هناك ما يسمى الشرف!

قالت: إذن لماذا أحس بالندم؟

قال: إنَّك تندمين على هذه اللحظات الجميلة التي مرَّت سريعاً.. لأنَّها مرَّت سريعاً..

قالت: أريد أن أسترد الـ...

وقاطعها: لا تقولي إنك تريدين اســـترداد شرفك؛ لأنَّك لا تندمين عليه.. ولكنك تريدين استرداد هذه اللحظات التي تندمين عليها؛ لأنَّها مرَّت سريعاً.

(١) سهيلة زين العابدين حمَّاد: إحسان عبد القدوس بين العلمانية والفرويدية، ص ١٥٣.

(٢) المرجع السابق: ص ١٥٣.

(٣) المرجع السابق: ص ١٥٣.

قالت في ضعف وذل: كيف استردها؟

قال - في حزم -: لقد مرَّت ولن تعود..[1].

وهكذا نجد إحسان جعل الفتاة تفرط في شرفها، ولا تندم على ذلك، وإنَّما تندم على مرور لحظات الفاحشة سريعاً...

هذا الكاتب لم يتجاوز فقط أخلاقياتِ الكتابةِ الأدبية، وإنَّما قد تجاوز كل القيم والفضائل، ودعا إلى ارتكاب الفواحش؛ فماذا يكون وقع هذه القصة على المراهقات عندما يقرأنها؛ وخاصة أنَّه يقال في أجهزة الإعلام: إنَّ الأستاذ إحسان عبد القدوس خيرُ من كتبَ عن المرأة، وعبَّر عنها؟!

وهنا أسأل الذين ينادون بحرية الرأي والتعبير: هل من حق المبدع باسم هذه الحرية الدعوة إلى ارتكاب الفواحش، وإشاعة الفوضى الجنسية، والتعدي على كل القيم والأخلاق، وتحليل ما حرمته جميع الديانات السماوية؟

إنَّ الأمثلةَ كثيرةٌ لا حصرَ لها من قصصِ إحسان عبد القدوس التي تدعو إلى التحلل والانحلال بإباحتهما؛ فكما رأينا، أنَّه صوَّر الفتاةَ تعرفُ أنَّ القبلةَ حرامٌ، ولكنَّها لا تعرفُ لماذا، ليوهم القارئ أنَّ تحريمَ القبلةِ نوعٌ من التقاليد، كما صوَّر المحافظةَ على الشَّرفِ نوعاً من التقاليد، لا علاقة لتحريم الأديانِ السماوية لها، حفاظاً على الأعراضِ التي شُرِّعَ القتالُ في سبيل الحفاظِ عليها، بل هو يلغي هنا الأديان السماوية؛ وهنا تكمن خطورة قصص إحسان، فهو يتطرق إلى طرح هذه القضايا ومناقشتها ليقنع بعدم حرمتها؛ فهو في قصة «فوق الحلال والحرام» أباح مراقصة المرأة للرجال، وشبَّه الرقص بالصلاة، وأباح لبس المرأة للمايوه أمام الرجال، وجعله أساساً مبيحاً للعري مدَّعياً أنَّ أمَّنا حواء خُلقت عارية، فيقول على لسان هانئ: (إنَّ أي شيء مخبأ أو مغطى هو أكثر إثارة للإغراء من أي شيء مكشوف.. أحست كأنَّ سيدنا آدم يعتبرها مألوفاً سهلاً رخيصاً لا تحمل في كيانها أي ما تضن به على عينيه.. فبدأت بوحي من الله تغطي نواحي من جسدها حتى تثير في آدم غريزة اكتشاف كل ما لا تصل إليه عيناه. أي غريزة ضعفه أمام المجهول.. الضعف الذي يدفعه إلى التعلق بهذا المجهول واحترامه، بل وعبادته إلى أن يصل إلى اكتشافه ليتخلص من ضعفه أمامه..). وهذا القول يدل على جهل إحسان بما جاء في القرآن الكريم بهذا الصدد الذي يتحدث باسمه؛ فالقرآن الكريم بيَّن عكس ما ذكره الأستاذ إحسان بأنَّه جعل العري عقوبة لكلٍّ من سيدنا آدم - عليه السلام - وأمنا حواء لما عصيا أمر ربهما، وأنَّهما قبل حدوث المعصية منها لم يكونا عاريين، وأنهما لما عصيا أمر ربهما عاقبهما بالعري، وأخذا يخصفان على نفسيهما من ورق الشجر ليداريا ما بدا من سوءاتهما، أي أنَّ العري كان عقوبة لهما، يوضح هذا قوله - تعالى -: ﴿فقلنا يا آدمُ إنَّ هَذا عدُوٌّ لَّك ولزوجك فلا يُخرجنكُما من الجنَّة فتشقى ﴿١١٧﴾ إن لك ألاَّ تجُوع فيها ولا تعرى ﴿١١٨﴾ وأنك لا تظمأُ فيها ولا تضْحى ﴿١١٩﴾ فوسوس إليه الشَّيطانُ قالَ يا آدمُ هل أدُلُّك على شجرة الْخلد ومُلْك لاَّ يبلى ﴿١٢٠﴾ فأكلا منها فبدتْ لهُما سوءاتُهُما وطفقا يخصفان عليْهما من ورقِ الجنَّة وعصى آدم ربهُ فغوى ﴿١٢١﴾ ثُم اجتباهُ ربُّهُ فتاب عليه وهدى﴾ [طه: ١١٢ - ١٢٧].

ولنتأمل قوله - تعالى -: ﴿إنَّ لك ألاَّ تجُوع فيها ولا تعرى﴾، ﴿فأكلا منها فبدتْ لهُما سوْءاتُهُما وطفقا يخصفان عليْهما من ورق الجنة﴾، فهاتان الآيتان توضحان خطأ الأستاذ إحسان ومدى جهله بما جاء في القرآن، وهو كما يبدو لم يقرأ الآيات القرآنية ذات العلاقة بهذا الموضوع، وإن كان قد قرأها فقد أوَّل القرآن وفق هواه.

هنا أتساءل أيضاً: هل حرية الإبداع، وحرية الرأي تدعو إلى تأويل القرآن وفق الأهواء للدعوة إلى العري وعدم الاحتشام لجعل المرأة ترتدي المايوه أمام الرجال، وجعل ذلك حلالاً؟

• صورة المرأة في أدب الدكتورة نوال السعداوي:

الدكتورة نوال السعداوي تلميذة نجيبة لفرويد؛ فكتابها «المرأة والصراع النفسي» لا يختلف كثيراً عن كتاب فرويد «التحليل النفسي للهستيريا»، فتحليلها لأسباب مرض العُصاب لا يختلف عن تحليل فرويد للهستيريا؛ ففي كتابها الذي سبق ذكره أرجعت أسباب مرض العصاب (وهو مرض نفسي يؤدي أحياناً إلى صداع نفسي، أو اكتئاب، أو فقدان الشهية للطعام، أو الإقبال المتزايد عليه، أو قلق، أو أحلام مزعجة... إلخ) ترجعها إلى أسباب جنسية في المقام الأول، وجعلت نِسَباً كبيرة من سيدات مجتمعها تمارس الجنس قبل الزواج، ومع رجال آخرين بعد الزواج، كما جعلت نسباً كبيرة من الآباء والإخوة في مجتمعها يمارسون الجنس مع بناتهم وأخواتهم، واعتبرت العلاج من هذا المرض يكون في إزالة التفرقة بين الجنسين، وإزالة الكبت في حياة البنات والنساء، وإزالة القيود التي تمنع المرأة والنساء، وإزالة الخوف الذي يجعل البنت تكذب على نفسها والآخرين، وتصبح عاجزة عن

(١) كل النساء: من مجموعة (الوسادة الخالية) القصصية لإحسان عبد القدوس.

ممارســة الحب الصادق، وتهيئة الظروف والإمكانات التي تساعد المرأة على العمل المنتج الخلاّق، وتحقيق ذاتها كإنسانة لها عقل أو ليست مجرد جهاز تناسلي لولادة الأطفال وإشباع الزوج، ومن هنا نرى أنَّ علاج النســاء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية تحرير المرأة»[1].

فهــي تريد المرأة أن تتحرر من الدين والقيم والأخلاق، وأن تمارس الجنس بحريـــة؛ فالمرأة «العقل» في نظرها هي التي تتمتع بالحرية الجنسية، ولذا ركَّزت في كتابيها «الأنثى هي الأصل» و «المرأة والصراع النفســي» على هذه الناحية، وتحدثت باستفاضة عن ممارســة المرأة للجنس قبل الزواج وبعد الزواج مع عدة رجال في سبيل إشباع رغبتها الجنسية، لذا طالبت بتعــدد الأزواج، ومجَّدت المومس «فردوس» بطلة قصتها «امرأة عند نقطة الصفر» إذ اعتبرتها بطلة شجاعة؛ فهي تنادي بالإباحية والشــيوعية الجنســية، بل ســخرت في كتابها «المرأة والصراع النفســي» من الشــرف والعرض والعذريــة، وقالت: «إنَّ مفهوم الشــرف مرتبط في المجتمع المصري بما يسمى (العرض) أو عذرية الفتاة قبل أن تتزوج، وإخلاصها لزوجها وطاعته بعد الزواج» ثُمَّ تقول: «لكن الزواج من فتاة غير عــذراء يعتبر حتى اليوم في مجتمعنا المصري أمراً مكروهاً لا يقبله أي رجل»[2].

واعتبرت المــرأة في المجتمعات البدائيــة تتمتع بمكانة اجتماعية عاليــة؛ لأنَّها تتمتع بالحرية الجنســية، فتقول: (إنَّ البغاء لــم يظهر في المجتمعــات البدائية؛ لأنَّ الحرية الجنســية كانت ممنوحة للشــباب من الجنسين، ولم تعرف المجتمعات الأموية ـ تقصد نســبة الأولاد إلى الأم ـ البغاء؛ لأنَّ مكـانة المرأة الاجتماعية كانـت عالية، وكانت لها الحرية الكاملـة كالرجـل، وهــذا شــيء منطقــي، كمــا أنَّ البغــاء لا يمكــن أن يحدث في مجتمع يســاوي بين الجنســين في القيود الجنســية»[3]. بل نجدها تستنكر عدم السماح للمرأة بممارسة الجنس إلاَّ مع زوجها[4].

وهــي ترفض الحجاب، لأنَّه وَفْقَ مفهومها الضيق ينظر إلى المرأة أنَّها جســد. والواقع أنَّ نظرتها هي للمرأة قائمة على أنَّها جسد، ومحط متعة وشهوة، وأنَّ لديها غريزة تفوق الرجــل، وعليها أن تمارس الجنس بحرية لتشــبع غريزتها، وترفــض عقد الــزواج، وتنادي بإبطاله؛ لأنَّــه يحترم المرأة ويصونها ويحافظ على عفتها وطهرها[5].

وبعدُ: فهذه نماذج لبعض الأدباء والشــعراء الذين يعد معظمهم من الرواد، توضح لنا مدى خروجهم عن أخلاقيات الكتابة الأدبية، وتجاوزهم كل الحدود؛ فقد دعوا إلى التحلل والانحــلال، وانحطاط النفس الإنســانية إلى أحط مراتب الحيوانية والإباحية الجنســية، وتجاوزوا الخطوط الحمراء تحت شعار حرية الرأي، وحرية الإبداع!

وهكذا كما تلاحظون كيف ذُبنا في الآخر، وأصبح أدبنا مزيجاً من المذاهب الأدبية والفلســفية والنفسية والسياسية والاقتصادية الغربية رغم مخالفتهــا لديننا ولقيمنا، فخرج أدبنــا المعاصر في معظمــه عن حدود أخلاقيــات الكتابة الأدبيــة، ولم يعــد يمثل هويتنا الإســلامية؛ إذ أخذ معظم الأدباء بنظرية «الفن للفــن» التي ترجع في أصولها البعيدة إلى ما دعا إليه (أرســطو) من وجوب استبعاد الأخلاق عن الشعر[6].

• مواجهة العولمة الفكرية:

ولكــي نواجــه هذه العولمة الفكرية والثقافية والأدبية، لا بد من الالتزام بأخلاقيات الكتابة الأدبية المتمثلة بالتزامنا بالتصور الإســلامي للخالق جلَّ شــأنه والإنســان والكون والحياة.

قد يقول قائــل: لقد ذبنا في الآخر؛ لأنَّنا عاجزون عن إيجاد منهج أدبي يعبِّر عن هويتنا واستقلاليتنا.

وأقول هنا: علينا أن نثق بالعقلية الإســلامية، وقدرتها على التنظيــر والابتكار، ولقد حاول الآخر إفقادنا الثقة في نفوســنا، وفي قدرتنا على الإبــداع والابتكار، وما قالوه عن العقلية العربية بالذات، إنَّها عقلية ذرية مفككة، أي غير قادرة على التجميع، وأنَّهــا غير قادرة على القيادة واتخاذ القرار؛ وذلك ليبرروا اســتعمارهم لعالمنا العربي، وللأسف نجد من يصر على التأكيد على هذه الادعاءات بالســخرية من كل ما هو إسلامي ومحاربته، وهذا ما يريدونه الآن ليفرضوا علينا العولمة، ولكن أقول: إنَّ الله قد حبا الأمة الإســلامية منهجاً ربانياً تســتقي منه أدبها، والأدب الإســلامي هو هذا المنهج الذي يمثل الالتزام بأخلاقيات الكتابة الأدبية.

---

1) د. نوال السعداوي: المرأة والصراع النفسي، ص ٨٢، ٢٨.
2) المرجع السابق: ص ٩٥.
3) د. نوال السعداوي: الأنثى هي الأصل، ص ٨٨١
4) المرجع السابق: ص ٨٨١
5) سهيلة زين العابدين حمَّاد: نوال السعداوي بين الماركسية والفرويدية، ص ١١، معد للطبع.
6) د. عبد الرحمن رأفت الباشا: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ص ٣٦.

دور الناقد الإسلامي في الأدب العربي المعاصر

د. حسن بن فهد الهويمل

أحسب أننا نتفق على أن الكلمة أمانة، وهي عمار أو دمار: ﴿ما يلفظُ من قولٍ إلاَّ لديه رقيبٌ عتيدٌ﴾ [ق: ١٨] و ﴿إليه يصْعدُ الكلم الطيب﴾ [فاطر: ١٠] و ﴿قُولوا قولاً سديدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، فالكلمة رسالة، ومن خلالها نقل الرسل رسالاتهم إلى الناس كافة، ويختص الدين الإسلامي بأن معجزته كلامية، ورسالته محفوظة إلى أن تقوم الساعة.

إذا كنا متفقين على هذا، وإذا كانت أهمية الكلمة من المسلَّمات والثوابت؛ فإن الناقد الأدبي: عربياً أو إسلامياً، مطالب بأن يمارس الدور الإصلاحي، الدور التوعوي، الدور التصحيحي لكل انحراف فكري أو سقوط أخلاقي، أو أي إخلال في شرط الفن واللغة بوصفها وعاء الأدب الرفيع.

والنقاد الذين يحملون همّاً إسلامياً يشعرون بالدور الأهم في اقتفاء أثر الكلمة الإبداعية، لتنقيتها من كل الشوائب. ويقيني أن الناقد الإسلامي وغيره من سائر النقاد لا يختلفون حول فنيات الإبداع وسلامة اللغة، ولكنهم قد يختلفون حول القيم الدلالية، بحيث يتحفظ الناقد الإسلامي على كل شطحة تمس القيم الأخلاقية أو الفكرية، دون أن يحجر على الفن أو يسلبه شيئاً من خصوصياته الفنية أو اللغوية.

فالأديب له رسالة تختلف عن رسالة الفقيه والواعظ والخطيب. نعم! الكل يلتقون حول بث القيم النبيلة، والكل يسعون لإشاعة الكلمة الطيبة؛ ولكن للمبدع لغته وأسلوبه وفنه ومجالاته، وللناقد رسالته في اقتفاء أثر الكلمة. وإذا كانت اللغة العربية وعاء الثقافة والحضارة فإنها تستوعب كل الخطابات المتنوعة بمعارفها وفنونها ودلالاتها، ومن ثم فإنها مع الإبداع الأدبي غيرُها مع الكتابة التاريخية أو الفقهية. والناقد الإسلامي يعي هذه الفوارق، ويحافظ عليها، ويسعى جهده لنهوض اللغة الأدبية بمهمتها الإبداعية، بحيث لا تقصر في استكمال مكونات الإبداع.

والمتداول عند النقاد مقولة: شرف اللفظ وشرف المعنى، ولكل شرف مكوناته. والناقد الإسلامي أحرص الناس على استكمال الشرفين في النص الإبداعي، وهو الساعي لحمل المبدع الشعري أو السردي على الأخذ بعصم الشرفين؛ فإذا فقد المبدع شرف المعنى حاول الناقد الإسلامي ثنيه عن مساره، وإذا أخفق المبدع في اللفظ حاول الناقد الإسلامي إقالة عثرته. ولهذا فإن دور الناقد الإسلامي في تشكيل الأدب العربي المعاصر لا يختلف عن دور أي ناقد، إلا أن همه الأول ينصبُّ على شرف المعنى لأهمية الكلمة في نظره، وهي أهمية إنسانية، فلا أحد يستخف بأثر الكلمة ودورها في دمار العالم أو إعماره.

والذين يتصورون (النقد الإسلامي) نقداً قاصراً على المضامين، حاثّاً على أسلمة الخطاب الأدبي؛ إمّا جهلة أو مغرضون. والمصداقية تفرض على الحاكم أن يتصور الشيء كما هو عند ذويه، ثم يقول رأيه.



الإشكالية أن كثيراً من النقاد يحصرون النقد الإسلامي في البعد الموضوعي، وهذا مكمن الخطأ، ومصدر الخلاف الذي لا ينتهي.

لهذا لا بد من تصوّر المفهوم؛ فالنقد الإسـلامي نقد مكتمـل المناهج والآليات والمقاصد، له همه اللغوي، وهمه الفني، وتطلعه إلى إشـاعة الكلمـة الطيبة، وقمع الكلمة الخبيثة. وإذا قصَّر ناقـدٌ أو أكثر، أو اضطربت المفاهيم عنـد البعض، فإن الأدب الإسـلامي ونقـده لا يحملان أخطاء المطبقين.

الأدب الإسـلامي كالإسلام؛ أدب شمولي يعي مطالب الحياة الدنيا والآخرة، ويسـعى جهده لحفظ التوازن بين حاجة الروح والجسد. ومن تصور الأدب الإسلامي ونقده على خلاف ذلك فقد ظلمه، وظلم ذويه.

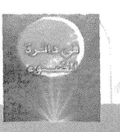
ولقد قلت، ولـمَّا أزل أقول: إن الإشكالية في اضطراب المفاهيم.

ومتى التقى المتجادلون على أمر قد قُدر، انحسـمت المشاكل، واستوت القضايا على سوقها.

لهـذا؛ فإننا نود مـن كل الخصـوم أن يزيلوا غبش المفاهيم، وأن يأخذوها من مصادرها. وأي تسـاؤل حول دور النقد الإسـلامي لن يصدر بالجـواب القاطع إلا إذا عـرف أن النقد العربي وعاء النقد الإسـلامي. وإن كان ثمـة اختلاف فإنه حول شـرف المعنى الـذي قد لا يهتم به كثير من نقـاد الأدب العربي؛ بل قد يدعو بعضهم إلى التحلل معتبراً الفن في معـزلٍ عن ضوابط الدين وقيمه الأخلاقية.

ومع أن حسم الموقف سهل وممكن إلا أن بعض الخصوم لا يودون السماع للناقد الإسلامي؛ إذ لو سمعوا له لأخذوا برؤيته. إنه ناقد كأي ناقد عربي؛ ولكنه، كما أشرت، يضع كل الاعتبار لشـرف المعنى الذي قد لا يكون من أولويات الناقـد العربي. وكل ناقد يصنع قيمة لشـرف المعنى هو ناقد إسلامي؛ شاء ذلك أم أبى.

والذيـن يظنون أن الأدب الإسـلامي ونقده خلقٌ آخر يُبعِدون النُّجعة، ويحمِّلون الأدب الإسـلامي ما لا يحتمل. إنه أدب عربـي بكل ما تحمله الكلمة مـن معنى، إلا أنه يحمل هَمَّ إشاعة الكلمة الطيبة وقمع الكلمة الخبيثة؛ فهل من مُدَّكر؟





نحن الكبار(*)

شخصية، ونظاماً، ومجتمعاً

كان الإسلام والعروبة والوطن شواغل الذهن واللسان والقلم لدى الشخصية العربية السنية حتى وقت قريب: الوطن محيطها المحلي، والعروبة محيطها الإقليمي، والإسلام محيطها الأشمل. هيكلية حلقية لشخصية محلية وإقليمية وعالمية في آن واحد دونما تعارض. بهذه الهيكلية تمكنت هذه الشخصية من تدبير أطوار متباينة في مسارها السياسي الطويل.

ربيع الحافظ(**)

alhafidh@hotmail.com

• بداية المسار:

كان إيجاد كيان اجتماعي سياسي متلاحم في المدينة النبوية هو محطتها الأولى، فصهرت بآلية المؤاخاة مكوني المجتمع: المهاجرين والأنصار. ثم كانت آلية التراحم السياسي «اذهبوا فأنتم الطلقاء» التي عززت بها جبهة داخلية إقليمية امتدت من حصنها في المدينة إلى موطنها الأول مكة المكرمة، منهية بذلك جيوب عدم الاستقرار في محيطها الإقليمي العربي. بعد ذلك خرجت هذه الشخصية من المحيط المحلي والإقليمي إلى العالم الخارجي تفتح الأمصار وتبلِّغ رسالتها إلى الشعوب، وتُشِيع مفاهيم التراحم السياسي والاجتماعي.

دشَّنت الشخصية الفاتحة أنموذجاً في العلاقات بين الشعوب لم تعرفه العلاقات الدولية يومئذ، وظّفت به كفاءات الشعوب الجديدة في مواقع الدولة المستجدة، وكانت الشعوب الجديدة زخماً مهماً في الاندفاعة التالية: الجغرافية والعمرانية والعلمية، فنجح التمدد العربي الإسلامي في الأراضي الجديدة حيث أخفق غيره، وانصهرت الشعوب الجديدة في بوتقة حضارته، وشهد العالم لأول مرة ولادة

(*) الحلقة ١٥ من بحث «الأيديولوجية الغائبة»، تتناول الجوانب الاجتماعية لنجاحات الحضارة العربية الإسلامية، فهذه الحضارة سماوية التشريع لكنها أرضية التنفيذ، وللسلوك الفردي والجمعي الأثر الأساسي في نجاح مجتمعاتها وإقبال الشعوب على خيمتها، ومع ذلك فإذا كان سبيلها هذا هو ما ميزها عن غيرها؛ فإن مشيئة الله - تعالى - تسبق كل شيء وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(**) مدير معهد المشرق العربي - لندن.

مجتمع «السبيكة الحيوية» من رحم الكيانات الدينية والمذهبية الهشة، وولادة أخصب حضارة عرفتها الإنسانية من عقم الفسيفسائيات العرقية، وتحولت الرقعة السياسية لهذه الحضارة إلى مجتمع «الفرص للجميع» بالنسبة لمواطنيه، وإلى واحة لحقوق الإنسان وملاذ لطالبي اللجوء السياسي من ضحايا التمييز المذهبي والديني والعرقي في الأمم الأخرى. كان ذاك الأنموذج هو أنموذج الشراكة بين الغالب والمغلوب.

يقول المفكر والباحث محمد كرد علي - وهو كردي عراقي الأصل استوطن الشام -: «العرب أكثر الأمم تسامحاً مع المخالفين لهم في المعتقد والجنس واللسان، ولولا تسامحهم أيام عزهم بالإسلام، لم تبقَ بقية من الأمم المغلوبة في بلادها محتفظة بدينها ولسانها ومقدساتها؛ لأن الشريعة السمحاء تقضي بالرفق والرحمة... كَرِه العرب التعصب ولا سيما في الأندلس، وعمدوا إلى كل تسامح معقول، فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الإسبانيين والبرتغاليين... فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب، حتى لم يكد يشعر هذا؛ إلا في النادر؛ أنه مغلوب على أمره فاقد لاستقلاله»[1].

يُحسَب لبني أمية البيت العريق في العلاقات الدولية تدشينه وترسيخه لأنموذج الشراكة في طورَيْه المشرقي والأندلسي رغم كل ما قيل ويقال عن مبالغته في منحاه العروبي في إدارة الدولة، وتطورت سياسة الشراكة في الطور الأندلسي لتصل حداً من التساهل مع أتباع الأديان الأخرى ما جلب معه انتقاد المرابطين الذين كانوا قد عبروا من بر المغرب إلى الأندلس تلبية لاستغاثة الأندلسيين ونجدتهم من النصارى.

الحالة التي تؤول إليها أوضاع المجتمعات في أعقاب الحروب هي الحَكَم في هذا السياق، وهذا ما أراده (غوستاف لوبون) بقولته الشهيرة: «لم يرَ التاريخ فاتحاً أرحم من العرب». والمراد هو الفتوح الإسلامية، أما حروب النفط والغاز والطائفية فالحالة الاجتماعية التي تغذيها أمريكا وإيران في العراق اليوم هي حصادها الطبيعي.

يلحظ الناظر إلى السُّلَّم السياسي والاجتماعي لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية احتجاب ظاهرة الشراكة في حُزَم زمنية وعودتها من جديد، وتنتظم هذه الحزم انتظاماً زمنياً مع حقب المد السياسي الطائفي، ولها ظواهر مصاحبة كالتضخم أو الضمور المفاجئ للمدن، وإصابة الحياة بالشلل، وتغير التركيبة السكانية. هذه الحزم ودلالاتها الاجتماعية هي أشبه بتأثيرات التغيرات المناخية على السُّلَّم الجيولوجي، فظهور حزم ضيقة من الصخور الرسوبية دلالة على طغيان طارئ للبحر على اليابسة وعلى توقف الحياة البرية، كما أنها سجل لطبيعة الحياة البحرية التي سادت؛ وتكرارها في السُّلَّم دلالة على عودة المتغيرات المناخية من جديد.

«حُزم الاحتجاب» هي السجل السياسي والاجتماعي للأقليات، وهي مطابقة لأعمال الإقصاء والإبادة التي تنفذها تنظيمات الأقلية الشيعية والفارسية في العراق اليوم، ولِما فعلته وتفعله إيران دولة الأقلية الطائفية في المنطقة مع محيطها العربي والإسلامي، في رعايتها للشعوبية ومعاداتها لكل ما هو غير فارسي، وطمسها المذهبي والعنصري لحقوق الأقوام الأخرى التي تقطن أرض فارس وخراسان. وإذا كانت الفضائيات قد نقلت إلينا اليوم على وجه الدقة والجزم بالصوت والصورة والألوان أهوال بغداد وتوقف الحياة تحت راية أحمدي نجاد، فبالإمكان رسم صورة بالدقة نفسها عن حياة البغداديين تحت راية شاه عباس الصفوي[2] أو أية حقبة أقليات أخرى، والتنبؤ - وهو الأهم - بما يعنيه ترك الحبل على الغارب لهذه الأقليات.

• تأقلمٌ مع الجديد لحفظ القديم:

الشخصية التي اختارت «التراحم السياسي» في طور الذروة من أجل إيجاد جبهة داخلية تقوى على برامج العمل الثقيلة؛ عادت واختارت «التواضع السياسي» في طور الأزمة للغاية ذاتها، وارتضت مقعداً سياسياً خلفياً تحت لواء الشعوب الإسلامية غير العربية التي أوصلت إليها المشعل بالأمس القريب؛ ومن بينها: السلاجقة والأتراك والشركس والأكراد والألبان، وهيَّأ لها علماؤها أجواء إطلاق ثورة ثقافية تصحيحية (المدارس النظامية في الحقبة السلجوقية) انتشلت الواقع السياسي والاجتماعي والفكري للأمة من مستنقع الشعوبية والطائفية والفلسفة الذي وجدت نفسها فيه، لتصبح الثورة الثقافية هذه فيما بعد بوصلتها الأيديولوجية في مسارها السياسي.

(١) محمد كرد علي، غرائب الغرب، ٢ / ١٣٢.

(٢) خامس ملوك الدولة الصفوية التي استولت على حكم إيران في ١٥٠١م وفرضت التشيع بحد السيف بعد أن كانت مجتمعاً سنياً. احتل الصفوي بغداد في سنة ١٦٢٣م وأغرقها بالدماء ونشر الذبح في أهل السنة.



هذا السـلوك الاجتماعي والرضا بتبادل المقاعد بقصد الحرص على المصلحة العامة هو ظاهرة اجتماعية ينسـبها علم الاجتماع إلى سـيكيولوجية فئة فـي المجتمع، في كل مجتمع، وليس حصراً على المسـلمين هي فئة «الكبير» الذي تشـغله الأغلبية، ليست أغلبية العدد بالضروة، وإنما أغلبية النمط الفكري الذي يحسب ويقدر ويتصرف والمصلحة العليا للمجتمع نصب عينيه.

من خصائـص «الكبيـر» التعفف المذهبـي، والعزوف عن ألقابه الذاتية، والاشـتراك عوضاً عن ذلك بألقاب مع بقية مكونات المجتمع حرصاً على تماسـكه، بل من دواعي اسـتفزازه مناداته بلقبه الحقيقـي، وإن أحدنا ليجد الفرد الإنكليزي أحرص علـى الانتماء إلى بريطانيا وليس إنكلترا التي هي مهد اللغة الإنكليزية وهي الإمبراطورية وشكسبير والثورة الصناعية من الأسكتلندي أو الإيرلندي؛ مداراة منه لأحاسـيس الأقليات، وهكذا الروسـي إبان حقبة الاتحاد السوفييتي السابق.

يقـول محمد كرد علي في هذا السـياق: «أهل السـنة أحرص الناس على رضا الأقليات التي تعيش في كنفهم؛ لأنهم هم الدولة والدولة هم، وهم رب البيت الحريص على تماسك بيته». يضاف إلى هذا القول أنهم هم التاريخ وهم الجغرافيا واللغة والسياسة والعلوم والاختراعات؛ فعلامَ الخوف؟!

هذا هو سر الاسترخاء النفسي والاجتماعي الذي يلازم «كبيـر» المجتمع، والذي يصل أحياناً إلى حدود السـذاجة، وهو في شـعوب هـذه الحضارة أكثر ظهـوراً عند قطبيها التاريخيين: العرب، والأتراك.

قد لا يشكل الاسترخاء الفكري للنظم السياسية مهلكة في أطوار الاستقرار، لكن الأمر يختلف أوقات الضعف، وقد كان سقوط النظام السياسـي العثماني الذي عاد الحديث إليه اليوم نتاج مشاريع وأيديولوجيات، طهتها أقليات الدولة علـى نار هادئة ليس بعيداً عن قصر الحكم، ومرت أبخرتها النفاذة من فوق أسـواره ولم تحمل عنصـر المفاجأة. حال تركيا اليوم أصعب من الدولة العثمانية التي ضمت عشرات القوميات، فكل فئة لا تمثل ٥٪ من الشـعب تتقدم تحت قبة البرلمان بمطالب تقضم شـيئاً إضافياً من الهوية السـيادية للدولة، وإذا لـم يتحقق لها ما تريد هـددت بالذهاب إلى المحكمـة الأوروبية أو إلى الأمم المتحـدة، ووجدت أقليات العالـم إلى جانبها وفي مقدمتهـا الصهيونية كما في حالة الملف الأرمني.

المشهد العثماني (تآمُرُ الأقليات عليه) الذي أنهى النظام السياسي لهذه الحضارة ودفنه تحت أسوار «القسطنطينية» كانت له مقدمـات مبكرة في الحقبة العربية (العباسـية) من النظام السياسـي، عندما أطبقت الأقليات الشـعوبية والطائفية (البويهيون) على رئتي النظام، وهو ما دفع خلفاء بني العباس إلى إيجاد حليف سياسي حقيقي للدولة فقربوا الأتراك وأنقذوا الدولة.

• بين الماضي والحاضر:

لم يكن النظام السياسي لدولة الحضارة العربية الإسلامية في أطواره المبكرة على هذه الشاكلة من الاسترخاء، بل جُعل التأهـب الأمني من الطابور الخامس حجر زاوية في نظامه الأمني منـذ اليوم الأول، وفاخر رجالاتـه بالفطنة والحذر مثلما وصف الخليفة الراشد ورجل الدولة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - نفسه: «لست بالخِب ولا الخب يخدعني»، ولم يمضِ وقت طويل حتى كانت الدولة قد ابتكرت لنفسـها نظام رقابة أمني صارم اشتمل على قواعد معلومات بأسماء النشطاء السياسيين والمفكرين والمؤرخين، ومدونات لسيرهم الذاتية من المهد إلى اللحد أسـموه علـم الرجال، وقواعد معلومـات عن المدارس السياسـية والفكرية والمذاهب التي تختلف مع الدولة في فكرها وتشـريعاتها أُدرجت تحت اسم «الملل والنحل».

ليس هذا في حـال من الأحوال تخويناً للأقليات، ولكن ليـس من الصعب على باغي الأذى توظيف الأجواء الثقافية والبنيـة الداخليـة للأقليات لصالح مشـروع ضد المجتمع الكبير الـذي آواها وحفـظ كيانها وحقوقها. واسـتغلال القومية الفارسـية لعواطف التشـيع لبثِّ الكراهية وتعبئة بسـطاء الشيعة العرب ضد المجتمع السني أقرب مثال، ولم تتورع إيران لأجل هذه الغاية من تفجير الأسـواق والأماكن العامة الشيعية، وسـبقتها في ذلك الحركة الصهيونية التي فجرت متاجر اليهود في بغداد في عام ١٩٤٨م؛ لحملهم على الهجرة إلى فلسـطين ليجدوا أنفسهم مواطنين من الدرجة الثانية بعد أن كانوا عمالقة التجارة بين المسـلمين، مثلما أن



الشـيعة العرب مواطنون من الدرجـة الثانية أو الثالثة في إقليم الأحواز العربي الذي تحكمه إيران.

سـنجد بين النصارى من هـو أكثر تأدباً مـع التاريخ الإسـلامي وعظمائه مـن آيات إيران ووكلائهـا في لبنان والعراق، وإذا كان لا بد من مثال فإن الموسـوعي النصراني الفلسـطيني نقولا زيادة (توفي في ٢٠٠٦م) كان أكثر تأدباً مع الصحابة وأمهات المؤمنين من مرشد الثـورة الإيـرانية - الذي تحتضن بلاده مزار أبي لؤلؤة المجوسي قاتل الفاروق عمر رضي الله عنه - وهو يشـاطر المجتمع الكبير قلقه من الريح الطائفية الشـرقية وتخوفه علـى الميراث الاجتماعي والسياسـي الأموي والعباسـي - كما قال هو - «الذي حفظ لي أنا كمسيحي الكنيسةَ وخصوصياتي»[1]، وتفيض مؤلفاته إعجاباً وإكباراً للتاريخ الإسـلامي ولفتات مهمة غفل عنها كُتّاب مسـلمون، في مقابل الكتب التـي تطبعها إيران التي تشيع الطعن واللعن والفحش والبذاءة بالمجّان.

في هذا السياق لا يمثل (نقولا زيادة) أقلية؛ لأن الأقلية هـم من يختلفون مـع الأمة في قـراءة تاريخها وفي منزلة قادتها، حتى وإن اندرجوا تحت العنوان العريض للإسـلام. ليس كل نصرانـي عربي هو (نقولا زيـادة) ولكن من على شـاكلته - والقضيـة اختيارية - هو جزء من النسـيج العام لمجتمع الحضارة العربية الإسلامية.

بهذه المعاييـر توافق الأمم على شـغل الأقليات لمواقع مهمة في الدولة، وعلى أساسـها قَبِلَ الفرنسيون بالهنغاري (سـاركوزي) وريثاً لـ (نابليون) ولا يضيع فرصة لإثبات أنه فرنسـي أكثر منهم، ولا خطبة إلا واسـتعار فيها عبارة من شاعر الثورة الفرنسية (فولتير)، وسبقه الجورجي (ستالين) الذي حكم روسيا، والأسكتلندي (براون) الذي يحكم إنكلترا، والقائمـة تطول، وكلهم تأدبوا بـأدب الأكثرية، ولم يفرضوا على العواصم أجندات الأطراف، فشـرفتهم واسـتأمنتهم على خدمة مصالح البلاد. بهذه المعايير دخل هؤلاء الإليزيه والكرملين ووستمنسـتر، وبهذه المعايير تدخل الأقليات - إن شاءت - بغداد الرشيد ودمشق الأمويين وقاهرة الأيوبيين.

تجـدر الإشـارة إلى أن مفهـوم الأقلية المطـروق في هذه السـياقات هو أقليـة الذهن لا أقلية اللسـان، أي: أقلية الفكر والدين والمذهب وليس أقلية العرق التي لا وجود لها في الإسلام، ومن ثَم فالتصنيـف الاجتماعي في مجتمـع الحضارة العربية الإسلامية ليس تحدياً تعجيزياً أو حكماً نهائياً كما هي الحال في جنوب إفريقيا التي لا سـبيل للأسود فيها أن يكون أبيض، وإنما هو من اختيار الفرد أو الجماعة وليس على حساب الحقوق.

رغم صرامة النظام الأمني في الدولة العربية الإسلامية فـي طورها المبكر فإنه لم ينتقص حقاً عاماً أو خاصاً تحت المجهر الأمني للدولة التي كانت تأخذ الحق من المسلم وتردّه إلى اليهودي والقبطي الذيـن منهم من صمد بعقيدته أمام عقيدة الإسـلام لكنه لم يصمد أمام عدله وكان سـبباً في دخوله الإسـلام. وإن من السـذاجة الاعتقاد أن الفرد في المجتمعات الديمقراطيـة تضعه حريته خارج دائرة المراقبة، وأن ليس له قيد أمني عند مؤسسـات الأمن القومي يحصي حركاته وسكناته وسلوكه بل وهواياته وماذا يحب وماذا يكره، وكل ذلك عن طريق استطلاعات تتم من دون شعوره وتحفظ بياناتها بالتقنية الرقمية إلى حين الحاجة.

نعـود ونقول: اسـترخاء «الكبير» هو الـذي نعمت به أقليات مجتمعات الحضارة العربية الإسـلامية، واستمرت في ظله مذاهبها وأديانها ودُور عباداتها وأحوالها الشخصية وخصائصهـا الأخرى، وفتحت فيه للجميـع أبواب النجاح، فـكان الطبيب والمهندس والأديب والوزير الطبيب والمهندس والأديب والتاجر، المسـلم والسـني والشـيعي والنصراني والـدرزي والأرمنـي.

على الرغم من أن الحقبة السياسية العربية لم تتجاوز القرنين من مجموع قرون السلم السياسي للحضارة العربية الإسـلامية الأربعة عشـر إلا قليلاً، إلا أن كراريس أدبيات هذه الشـخصية عدَّت القرون السياسية غير العربية متممة لما سـبقها وامتداداً لسـلوك «الكبير»، فالعبرة هي بوصول الرسالة لا بحاملها.

• سبقٌ مبكر:

المفهوم الإداري الـذي أدارت به هذه الحضارة «متعددة الجنسـيات» شـؤونها وصاغت به أيديولوجيتهـا، والذي تداخلت فيه ملكيتها بين المسـلم العربـي والتركي والكردي والهنـدي، هذا المفهوم لا سـابق له في حضـارات الأمم، ولا يدنـو منه فن من فنون الإدارة سـوى النظم الاقتصادية الحديثة المسماة (Franchise) التي تنهض عليها الشركات

(١) مقابلة مع قناة الجزيرة.

متعددة الجنسيات، التي تجعل من رفع شعار (الشركة الأم) حقاً لكل شركة تعيد إنتاج البضاعة بالمواصفات المنصوصة، فنمت هذه الشركات وغطّت وجه المعمورة.

ولم يعد يضير مدينة شتوتغارت الألمانية العريقة ومسقط رأس سيارة المرسيدس الفارهة أن تُصنَع هذه السيارة في ريف مدينة تيرانا الألبانية، أو في زاوية معزولة في أمريكا اللاتينية، ولا أن يظهر على بعض أجزاء المرسيدس أسماء أمكنة غير ألمانية، ما دام أن البضاعة قد استوفت شروطها، فتكمل بذلك تيرانا مشوار شتوتغارت، وتصطف إلى جانبها في المحافل العالمية، وتتكرر العملية عشرات المرات ويتراكم المجد الذي لكلٍّ دور فيه، لكنه مجد ينتظم في النهاية تحت راية الهندسة الألمانية وينضبط بضوابطها.

الأمثلة على تطبيقات هذا النظام لا تكاد تحصى، وهي تتراوح بين شبكات مطاعم الوجبات السريعة إلى إمبراطوريات أجهزة الحاسوب، ووصل هذا النظام الذي شرع الأبواب أمام إبداعات صغار المهندسين إلى أقاصي الصين وقرى الهند النائية، وصار يشكل عصب الاقتصاد العالمي ويُقصي عاماً تِلْوَ عام الاقتصاداتِ الحكوميةَ الموجَّهة إلى أطراف حلبة الاقتصاد العالمي.

كان من الطبيعي للمجتمع الذي أسسته هذه الشخصية، وقايض الكفاءات الجديدة بالمكافأة، كان طبيعياً أن ينمو، وأن يكون ملتقى العقول ومهوى الأفئدة، وأن تتعاظم رقعته العلمية والجغرافية، وأن يكون هو سواد الأمة الأمين على مصالحها والقادر على إدارة شؤونها وإصلاح العطب وتقويم المسيرة كلما دعت الحاجة.

وكان من الطبيعي في المقابل أن تنحسر الشخصيات الأخرى (غير السنية) إلى مساحات ضيقة على أطراف المجتمع، بعيداً عن مواضع النبض، مما يعجزها عن التطور الفكري والتكامل مع محيطها، وعن الإمساك بمكتسبات جغرافية تحرزها إبان حقب المد الطائفي من دون أن يكون لها حراسة (بوليسية) يوفرها نظام سياسي طائفي، فهي أشبه ما تكون بأنظمة أوروبا الشيوعية في القرن الماضي التي اختفت لحظة زوال أنظمتها السياسية، وكان من الطبيعي أن يصل المسار بهذه الشخصيات إلى العيش بموازاة المجتمع الكبير، بطقوس وفكر وأدبيات لإدارة مجتمع منغلق، وأن تستحق حكم التاريخ في أن تكون أقليات أبدية، حتى وإن جعلتها تقسيمات (سايكس ـ بيكو) أكثرية عددية هنا أو هناك.

• ارتداد إلى الحلقة الأولى:

في مطلع القرن العشرين الميلادي شكلت الأحداث الكبرى وانهيار النظام السياسي للحضارة العربية الإسلامية في صورته الختامية (العثمانية) وقيام «الثورة العربية»، شكلت هزة عنيفة لتكوين الشخصية العربية السنية، وأحدثت تقسيمات (سايكس ـ بيكو) الجغرافية إرباكاً لهيكليتها الحلْقية. أما «الثقافة الوطنية» التي أوجدتها الدولة الجديثة فقد كانت بمثابة التأطير الأيديولوجي لذاك الإرباك الذي أعطب آليتها الثقافية والفكرية في النهوض، فانكمش الفكر انكماشاً تناسبياً مع جغرافيا التقسيم، واختزلت الحلَق الهيكلية في مفهوم العربي السني المعاصر إلى حلقة واحدة فقط هي الحلقة المحلية (الدولة) لتصبح هي الحدود النهائية للأيديولوجية عند هذه الشخصية، وهو ما شكل ولادة الشخصية القُطرية أو القومية في أحسن الأحوال.

على الرغم من الإرباك الهيكلي والعطب الفكري لم تتوقف الشخصية العربية السنية عن العطاء، واستمرت بأدوارها السابقة؛ وحالها الجديد أشبه بطرفٍ بُتِرَ عن جسده، يديم الحراك ويصارع الموت رغم انقطاع إمدادات الدم والأوكسجين، ويدرك أن هذا الحراك هو فعاليته الأخيرة والمسافة التي تفصله بين الموت وبين عملية جراحية تعيده إلى الجسد.

يُعزى للشخصية العربية السنية في مرحلتها الجديدة (الحراك) فضل نشوء كيانات مدنية تعد طارئة على السُّلَّم السياسي من ناحية تكوينها الأيديولوجي، آوت في حقبة من الاضطراب السياسي والعوز المعيشي التي أعقبت انهيار نظامها السياسي وقيام الحرب العالمية الأولى؛ رعاياها من الأقليات التي عاشت في كنفها قروناً طويلة، هذه الكيانات هي التي ستُعرف فيما بعد بـ «الدولة الوطنية الحديثة» التي صار لها علم وسفارات ومقعد في الأمم المتحدة.

كانت مفاهيم الشخصية العربية السنية، حتى بعد تفكك نظامها السياسي هيكلاً إدارياً ومادة لاصقة لأجرام ونيازك مذهبية ودينية وعرقية انفلتت من مدارها السياسي السابق،

تفتقر تجاه بعضها إلى أدنى القواسم المشتركة التي يتطلبها تماسك المجتمع فضلاً عن بناء مجتمع جديد، ولا تضمر الواحدة للأخرى سوى الشكوك والمكائد والضغائن، ولا رؤية لها للعيش على أرض مشتركة سوى الكانتونات والفدراليات، ولا ثقافة إلا ثقافة التنافر، وعراق اليوم خير شاهد على ذلك.

لا جدال في أن الكيانات المدنية الطارئة (الدولة الحديثة) انطوت على العديد من جوانب الظلم والفساد والانحرافات الفكرية والثقافية، لكن التركيب الفكري والخزين الاجتماعي «للكبير» المهندس والباني، أمدَّ هذه الكيانات بشريان الحياة وأضفى عليها الطبيعة المدنية التي حفظت الأمن والحقوق والتعليم والخدمات للجميع دون تمييز، ولم يتحول إلى كيان طائفي فاقد لصفات المجتمع يقايض المراكز بالانتماء الطائفي والعرقي ويفر منه الإنسان بدينه ونفسه وماله.

كانت الشخصية العربية السنية هي من تحمل فاتورة قيام الدولة الحديثة التي عاش فيها الجميع، وكان الثمن هو مفاهيمها الفكرية والتاريخية، عندما قبلت بالعيش على قدم المساواة الثقافية والتاريخية مع شركاء الكيان الجديد (رعايا الأمس)، والقبول باقتسام أوسمة التاريخ مع أقليات لم تضع لبنة واحدة في صرح الحضارة، ولم يكن لها شرف إيصال مشعل الرسالة إلى شبر مربع من المعمورة يرفع فيها اليوم اسم إلله، أو أضافت شبراً مربعاً على خريطة العالم الإسلامي، فضلاً عن أن تحرر شبراً مغتصباً منه، بل على العكس كانت عوناً لكل عادٍ.

لم تكتفِ هذه الشخصية بهذا القدر من إطلاق النار على نفسها، فراحت تشرعن بالثقافة الجديدة لهذه القسمة الضيزى، وتضفي عليها القداسة الوطنية لتصبح (الثقافة) ماءً ملأ فمها هي وحدها دون سواها أعجزها عن النطق وهي ترى عياناً خنجر الطائفية والشعوبية يذبحها من الوريد إلى الوريد، وأعجزها وهي ترى الأقلام الشعوبية تشوّه تاريخها الماضي والمعاصر، وتسرق أوسمته وتجعله مناهج تربوية تنشأ عليها الأجيال الجديدة، وأعجزها مرة ثالثة وهي ترى دولاً تسقط بكاملها في شراك الأقليات الطائفية كما في سورية التي قبضت فيها الأقلية النصيرية (١٠٪) على الحكم تحت لافتة البعث والقومية العربية، والتي تختلف مع الجمهور العربي المسلم في الدين والعروبة والتاريخ الماضي والحاضر، وأعجزها وهي ترى دخول الأقلية النصيرية طوراً إقليمياً وإسقاطها لبنان بيد إيران تحت لافتة الجامعة العربية، وأعجزها عن النطق مرة رابعة وخامسة وعاشرة.

أُريدَ للثقافة الوطنية أن تكون كساءً سميكاً يستر السوءات التاريخية المغلّظة والشذوذات الفكرية والمذهبية للأقليات أملاً في مجتمع يتساوى فيه الجميع كأسنان المشط، لكن الأقليات أصرت على تمزيق الكساء ورميه، وعلى كشف السوءات، وعلى رقصة التعري مع أول قدم أمريكية تطأ تراب الوطن (بالنسبة للعراق)، ومزقته أقلية بلاد الشام مع نجاح الثورة الإيرانية التي تحالفت معها ضد عرب العراق وأخرجت سورية من المدار العربي السني وربطتها بالمدار الفارسي الطائفي وغيرت من بعدها هوية لبنان المجاور.

هكذا ابتدأ مسار بناء الدول وصياغة المجتمعات عند هذه الشخصية، وكان آخر محطاتها «الدولة الوطنية الحديثة» التي تعددت على كامل رقعة نظامها السياسي الزائل، وهي تتفكك اليوم عروة عروة، ويتفكك معها مفهوم الوطن والمواطنة وتتفلت المجتمعات من أيدي بناتها ورعاتها على نحو غير مسبوق.

بقيت نقطتان:

أما الأولى: فهي أن هذه الملفات والحقائق ظلت حبيسة الصدور - مكانها الطبيعي عند هذه الشخصية ما ضمنت الحد الأدنى للمصلحة العامة -. أمَّا وقد بيعت هذه المصلحة في المزاد العلني فقد آن لها أن تخرج.

والأخرى: هي أنها - الملفات - معنيٌّ بها أهل السنة، رغم أنها ستجد بين العقلاء والمؤرخين والمفكرين في أوساط الأقليات - شيعة ونصارى وموارنة وأقباطاً ودروزاً - من ينصفها وقد فعلوا، وإخراجها ليس تضميداً نفسياً (Psychotherapy) للنفوس بطريقة (استحضِرْ ساعة النجاح عند ساعة الكرب)، وإنما هو جرس للخاسر الأكبر في هذه الأزمة الذين هم أهل السنة لمراجعة المسار وإنقاذ مجتمعاتهم ومن أوى إلى خيمتهم؛ فالأزمات محطات مهمة في تاريخ الشعوب لا تفوّت، فيها تراجع القناعات، وتصنع المعجزات، وفيها يُعاد رسم الشخصية الجماعية للمجتمع، وهي فرصة نادرة الحدوث.

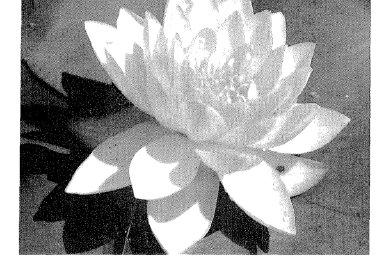
المرأة ضعيفة ولكن!



ماجدة محمد شحاته

في التصنيف الفقهي تُعدُّ المرأة ضمن الضَّعَفَة من فئات المجتمع، والتي لأجلها كان التخفيفُ في الأحكام، والاستثناءُ من القاعدة والانتقال بها من العام إلى الخاص. وربما تكون أحكامها أشـد خصوصية واستثناءً على مستوى نوعها حين تكون في وضعية خاصة توجب اعتبار الضعف هو المناط في التخفيف أو إسقاط التكليف؛ كأن تكون حاملاً أو مرضعاً أو حائضاً أو نفسـاء، وكأن تكون شـاهدة إلا فيما يخص النسوة، أو تكون مسافرة بحسب نوع السفر ومدته، كل هذا تحاول بعض الرؤى الفكرية إسـقاطه مـن اجتهاد الفقهاء، وربما النعي عليهم أنِ اعتُبِرت كذلك.

وفي ظل دعاوى التمييز ضد المرأة، يسـبح بعضهم ضد الفطرة فيحاول إخراج المـرأة عن تلك الوضعية متى انتفى عنها موجب التخفيف أو الضعف، محاولاً إثبات قوة للمرأة تسـاوي قوة الرجل حتى عند تفاضله عنها بقوامة الإنفاق والتكليف والمسـؤولية وقيادة سفين الأسـرة؛ فقد أوجدوا لها موجِباً للتمرد على هـذه القِوامة عندما لا ينفق الرجل وتصبح هـي رافد البيت بما لها من أموال، مُسـقِطين من الذاكرة نماذج من الفُضْلَيات عِشـنَ في كنف الرجال ينفقن بما رُزِقن من سعة، دون أن يكون لذلك أي مردود سلبي على شـعور بمكان الرجل وقِوامته، ولم يبارزنه حُجَّةً تُسقِط هذه القوامة أو تقلل منها مقابل ما يقدمن.



لا أدري مـــا الـــذي تغيّر: أهي المـــرأة التي ظل الإعلام ينفخ فيها من تغريبه؛ مضخماً لديها إحساساً بكرامة وذات فاقا الحد، فصارا غروراً واســتكباراً، أو تحول إلى استغناء بالكليـــة عن الرجل، وكأن القاعدة: كلما كانت المرأة في غنى عن الرجل كلما تحققت لها حرية ومســاواة وكرامة وكيان؟! لِمَ تغدو المعادلـــة هكذا؟ أم هــو الــرجــل تغيّر في نظرته تجاه المـــرأة فلم يعد يراها ذلك الســكن الضعيف الـــذي لا ينـــاوشه أو يهاوشـــه ويشاكسه؛ يركن إليه؛ فإذا الدفء والمودة، وإذا الكلمة الحانية المخففة، وإذا الهمســة الدافئة الملطفة؛ هل تراها صارت على النقيض من وجهة نظره فهي لا تستحق مكانتها؟

كثيـــر من بيوتنـــا الأصيلة لا تزال تنطـــوي على نماذج للزوجـــة - أمِّيَّة أو متعلمة - على فطرتها الســليمة التي لم تُلـــوَّث بدعاوى من هنـــا أو هناك، هذه البيوتـــات لا تزال بداخلها رجولة ومروءة ودفء أسري يحتوي الجميع، وكرامة لـــم تُخدَش قطّ لأي مـــن طرفيها، ولاء وانتماء وإحســـاس بنزوع إلى النصف الآخر عند مواجهة العناء، ولا فرق.. فكلٌّ يأوي إلى رفيقه يَنْشُـــد على صدره الأمنَ والســـكينة، وفي كفه الســخاء والعطاء. وكأني أوقـــن أن اعتبار الضعف في المرأة موجِب لرحمة الرجل ومودتـــه وتكريمه إياها والغيرة عليها، ولســـت أرى في ذلك تنزيـــلاً أو حطاً - كما يزعمون - مـــن قَدْرٍ أو كرامة. وتظل نمـــاذج الفطرة هي مثل القدوة في صحة الســلوك الإنســـاني، بعيداً عن سفسطة وفلسفة فُرِضت أو ســيقت لتثمر نظرةً مغايرة للرجل والـمرأة تعتبر كلاً منهمـــا منافساً وغـــريـــماً لا شريكاً وأليفاً، وشتان بين شعورين يوجِّهان السلوك الزوجي كلاًّ تجاه الآخر!

فحين تُوجِب الشـــراكة وحدةً في الهدف والهم والشعور نجد المنافســـة توجب التنازع والتهافت والعدوانية والتربص، وعلى أقل التقدير تصبح المشاعر خامدة لا تستيقظ إلا على طفرة في الرُّقي الســـلوكي العارض بينهما، والذي لا يتكرر إلا قليلاً.

ولست أدري: أيّ معرّة تصيب المرأة من اعتبارها الطرف الأضعف فـــي حلقة الحياة؟ وإذا كان هـــذا الاعتبار موجِباً لبرِّهـــا والعدل لها والرفق بها والحماية والعناية بكل أمرها؛ فلِمَ نحاول وبقوة دمغَه ودفعه؟

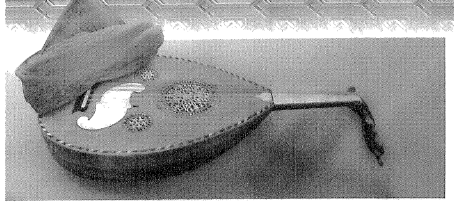
ألا ترى المرأة، بعيداً عن استئســـادٍ إعلامي صنعها عليه ونشَّأها في كنفه، أنها بالفعل هي الضعيفة على الأقل نفسياً؛ حين تغرُّها كلمة دافئة أو همســـة حانية تسلِّم معها قيادَها لرجل يحنو ويترفق، يعطف فيشفق، ويحتويها حباً فيغدق؟

ألا تراها ولا يظهر من نبوغها العقلي أو الفكري شـــيء فتبـــدو أمام عاطفة الرجل امرأةً بـــكل ما تحمل الكلمة من حاجة وركون ونزوع إلى رجل، قد تكون مستعدة لدفع تكاليف هذا الفيض من الدفء والحب والحنان؟

إن عقل المرأة - كما هو عقل الرجل - يتوارى خلف عاطفة تُستجاش ومشـــاعر تُدغدَغ، والفارق بينهما أنها الأقوى في التصديق والأقدر على المعايشـــة والمســاكنة لكل المشـــاعر الدافقـــة في كل وقت وحين، فيظل الرجل في خيالها محوراً لكل تفكيرها ومرتكزاً لانطلاقتهـــا، فعنده تبدأ وإليه تنتهي ومـــا بينهما تفاصيل تتصل به أيضاً، وهي إن أخلصت كانت أقوى دفاعاً وأشد منه التياعاً.

ألا تـــرى أن ذلك رُصِد مـــن ذي قبـل حـــين قيل: (إنـــه لا يأسى على الحب إلا النساء)؟

تســـقط إذنْ من ذاكرتنا مسلَّمات صاغتها الفطرة وجاء بها الوحي بحثاً عن ماهية أخرى لامرأة أخرى غير تلك التي نعنيها، تمتزج لديها ذكورة وأنوثة فلا تكاد تخلُص لأحدهما، وتمضـــي المســـيرة وكلٌّ من الرجل والمرأة يمـــارس دوراً هو خليط غير متباين القســـمات في مفاصلـــة توجب لكل نوع حقه في كرامة ودورٍ إنســـاني يتفق وطبيعةَ التكوين النفسي قبل الخَلْقي.





وَذَرِ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف[*]

www.alabdlltif.net

شاهد بعض ملوك فارس اجتماعاً لبعض المتصوفة، وقد أُحضر فيه من الصور الجميلة والأصوات المطربة ما أُحضر، فقال الملك لشيخهم: يا شيخ! إن كان هذا هو طريق الجنَّة؛ فأين طريق النار؟![1]

لقد عكف فِئام من المتصوفة على سماع المُكاء والتصدية، والمصاحَب بالدفّ والشبابة والمزمار وضرب الأوتار، وإنما حدث هذا السماع بعد القرون المفضَّلة؛ فلما تأخر الزمان وفترت العزائم عن السماع المشروع مما أنزل على الرسول ﷺ؛ استعاضوا عنه بالسماع المحدَث من العقائد والأشعار، والنظر إلى الصور المحرَّمة، وتمادوا في ذلك، حتى آلَ أمرهم إلى إنشاد قصائد الحلول والاتحاد ونحوها من البدع المكفِّرة[2].

ومما استجدَّ في هذا العصر ما يسمى بالأغاني الدينية عند أهل الطرب والمجون؛ فبينما المغني (يتكسّر) بلهوه، ويترنَّم بمجونه على المسارح؛ إذا هو بعينه ينشد (التواشيح الدينية)، ويتواجد في الزوايا والموالد، وبآلات العزف ولحون الغناء نفسها!

وأضحت (الموالد) و (المشاهد) أوكاراً للسماع المحدث وغناء المجون، واختلاط النساء بالرجال ومقارفة الفواحش.. ومن ذلك: ما سطّره المؤرخ الجبرتي في شأن مشهد عبد الوهاب العفيفي (ت ١١٧٢هـ) وما يحصل عنده من طرب وفحش فقال: (ثم إنهم ابتدعوا له موسماً وعيداً في كل سنة يدعون إليه الناس من البلاد، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وأرباب الملاهي والبغايا... ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلاً ونهاراً..)[3].

ومثال آخر: مشهد الإنبابي بمصر؛ فقد ذكر المؤرخون أن فيه من الفساد ما لا يوصف، حتى إن الناس وجدوا حول هذا المشهد أكثر من ألف جرة خمر فارغة، وأما ما حكي عن الزنى واللواط فكثير لا يحصى[4].

ومن أواخر هذه البلايا ما حصل في مولد أحمد البدوي بطنطا مصر آخر عام ١٤٢٨هـ الذي مضى قريباً، من الشرك الصراح، والزعيق والصراخ، ورقص الرجال مع النساء مصحوباً بالمعازف والاختلاط (والاحتضان)[5]!

ورحم الله الشيخ عبد الرحمن الوكيل القائل: (وسلِ الآمِّين تلك الموالدَ عن عربدة الشيطان في باحاتها، وعن الإثم المهتوك في حاناتها، وعن حمم الشهوات التي تتفجر تحت سود ليلاتها، فما ينقضي في مصر أسبوع إلا وتحشد الصوفية أساطير شركها، وعبّاد أوثانها عند مقبرة يسبِّحون بحمد جيفتها، ويحتسون آثام الخمر (والحشيش)، والأجساد التي طرحها الإثم على الإثم فجوراً ومعصية..)[6].

لقد أنكر العلماء السابقون ما وقع عند المتصوفة في عصرهم من الرقص واللهو، والتقرّب إلى الله بذلك؛ فقد سئل الحلواني من علماء الحنفية عمّن سمّوا أنفسهم

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) انظر: الاستقامة: ١/٣١٧، الكلام على مسألة السماع، ص ٣٤٢.

(٢) انظر: الدرء: ٧/٢٩٠، ومجموعة الرسائل الكبرى: ٢/٣٠٢، والاستقامة: ١/٣٠٤.

(٣) تاريخ الجبرتي: ١/٣٠٤؛ باختصار.

(٤) انظر: السيد البدوي، لأحمد منصور، ٣٢٣.

(٥) انظر: مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السادس.

(٦) هذه هي الصوفية، ١٦٠ - ١٦١.

الصوفية، واختصوا بنوع لِبسة، واشتغلوا باللهو والرقص وادّعوا لأنفسهم المنزلة. فقال: أفتروا على الله، أم بهم جنة؟!

وقال القرطبي في كتابه (المُفهِم): (وأما ما ابتدعته الصوفية في ذلك؛ فمن قبيل ما لا يُختلف في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن يُنسب إلى الخير، حتى لقد ظهرتْ من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان، حتى رقصوا بحركات متطابقة، وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقحُ بقوم منهم إلى أن جعلوها من باب القُرَب وصالح الأعمال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة، وقول أهل المَخْرَقة، والله المستعان).

فكيف لو أدرك أولئك العلماء صوفيةَ هذا العصر، والمولعين بما هو أشنع وأقبح من أنواع المجون والفحش؟!

ومع هذا التهتك والتفلُّت عن تحكيم الشرع واتِّباع السُّنَّة، إلا أن أولئك الصوفية أصحاب أمانٍ جامحة ودعاوى عريضة؛ فهم - كما يرون أنفسهم - أهل الذوق والوجد، وأرباب الصفا والحبّ، لكن هذه الدعاوى سرعان ما تتساقط وتزول عند أدنى ابتلاء أو امتحان، (غاية الدعوى مع غاية العجز)، فأين الذوق وحبّ الله - تعالى - عند قوم نقضوا أعظم أسباب ذلك من الاتِّباع والجهاد في سبيل الله؟!

والتنصُّل عن الصراط المستقيم، والانحلال من ربقة الاتِّباع هو ما تمليه النفوس الجاهلة والتي تركن إلى أهوائها، وتستروِح ملذاتها، وتأنف من التسليم والانقياد لأحكام الدين (وذلك أن النفس فيها نوع من الكِبْر، فتحبّ أن تخرج من العبودية والاتِّباع بحسب الإمكان، كما قال أبو عثمان النيسابوري - رحمه الله -: ما ترك أحد شيئاً من السُّنَّة إلا لكِبْر في نفسه)[1].

(وقال ابن عقيل: لما صعبت التكاليف على الجهال والطَّغَام، عَدَلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم)[2].

إن التصوف - بشهادة بعض المعجبين به - تفرّد بالتجويد في الموسيقى والغناء، فكانت مجالس الذكر الصوفي مدارس لتخريج المغنين؛ إذ إن الذكر عندهم يكون وَفْق أنغام محددة،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/٦١٢، والمنهاج: ٥/٣٣٢.

(٢) تلبيس إبليس، ص ٤٥٠.

وآلات موسيقية[3]!

وسماع الصوفية بأصواته ولحونه له تأثيره على تلك النفوس؛ فهو يؤجج المشاعر ويحرك الوجدان، لكن بلا علم ولا كتاب منير (ومعلوم أن النفوس فيها الشهوات كامنة، ولكنها مقهورة مقيدة بقيود الأوامر، فإذا صادفها السماع أحياها وأطلقها من قيودها، وافتكّها من أسرها، وهذا أمر لا ينكره إلا أحد رجلين: إما غليظ كثيف الحجاب، وإما مكابر؛ فمضرة هذا السماع على النفوس أعظم من مضرة حُمَيَّا الكؤوس)[4].

وهذا السماع وما يتفرع عنه من إنشاد متهتك، وصراخ وتواجد، وتواشيح مبتدَعة؛ لا ينفكُّ عن تشهِّي النساء وأشباههنَّ، بل يتجاوزه إلى الاختلاط والعشق والعناق...

والمتأمل في العبادات الشرعية كالصلاة والصيام والاعتكاف والحج، يلحظ أن شأن هذه الشهوات ينافي تلك العبادات؛ ففي الصلاة مُنعت المرأة أن تؤمَّ الرجال، وأن تقف في صفهم، بل تتأخر عن صفوف الرجال، وجعل مرورها بين يدي المصلي قاطعاً لصلاته. ومُنع المحرِم في الحج من النكاح والمباشرة والأسباب الداعية إلى ذلك. وكذلك الاعتكاف نُهي فيه عن مباشرة زوجه، وكذا الصيام؛ كل هذا لتخلو العبادات من التعلق بالنساء وصورهن، ويصير تعلّق القلب كله بالله وحده[5].

كما أن السماع المحدَث دائر بين الكفر والفسوق والعصيان، بل اشتمل على أكثر ما حرّمه الله ورسوله ﷺ؛ فإن الله - تعالى - قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

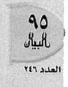
فاشتمل هذا السماع على هذه الأمور التي هي قواعد المحرمات؛ فإن فيه الفواحش الظاهرة والباطنة والإعانة على أسبابها، والإثم، والبغي بغير الحق، والشرك بالله، والقول على الله بلا علم ما اللهُ به عليم؛ فإنه تنوَّع، وتفرَّق أهله فيه، لكل قوم ذوق ومشرب يفارقون به غيرهم، حتى في الأشعار والحركات والأذواق، فوقع فيه الاضطراب والاختلاف، وصار أهله من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون[6].

(٣) انظر: التصوف الإسلامي، لزكي مبارك، ص ١٨٩ ـ ١٩٩.

(٤) الكلام على مسألة السماع، ص ٣٣٢، وانظر: الاستقامة: ١/ ٣٠٦ ـ ٣٧٨.

(٥) انظر: الاستقامة: ١/ ٣١٤، والسماع لابن القيم، ص ٣٤١.

(٦) انظر: الاستقامة: ١/ ٣١٠، والسماع، ص ٣٣٧.





المسلمون الجدد ..

حتـى الآن — رجلا و امرأة ٢٠١

الدروس والمحاضرات والكلمات

المحاضرات	٧٧
الدروس الاسبوعية	٣٦
الكلمات الرسمية	١٧٢٠
الندوات	١
دروس الجاليات	٢٣٤٠
الدورات العلمية	
رجـال	١٠
نسـاء	٢
جاليات	٣

الإصدارات

الكتب	١٢٦٠٣٠٠
الصحائف الدعوية	٣٣٧٠٠٠
المطويات	٢٦٤٤٠٠٠
الأشرطة	
عربي	١٨٢٠٠٠
بعدة لغات	٢٥٠٠٠
مصاحف مرتلة	٤١٠٠

المسابقات

إلا رسول الله	١٧٥٢٠
إنّها ملكة + مسابقات الأطفال	على مستوى بريدة
التوحيد	للجاليات بجميع اللغات

الهدايا

هدية الحاج (كتاب حصن التوحيد)	٥٣٦٠٠٠
هدية العيد	٢٠٠٠٠
هدية المريض (كتاب تحفة المريض)	٥١٠٠٠

رحلات الحج والعمرة

أربع رحلات عمرة وحملتي حج للمسلمين الجدد	٣٩٩

مشاريع متنوعة

مشروع الحقيبة الدعوية	٣١٠٠
مشروع الحقيبة الدعوية العربية	٦٠
مشروع حقيبة الانتظار	١٣٠
مشروع حامل المصاحف	١٣٢
مشروع السواك	٨٥٠٠٠

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالقايرية ببريدة

كن شريكنا في الدعوة

هاتف: ٣٨٣٨٨١١ - ناسوخ: ٣٨٥٨٨١١ القسم النسائي: ٣٨٢١١١٨
ص.ب ١٠٤١١ - بريدة: ٥١٤٣٣ www.islamriver.com
حسابات المكتب: [illegible] مصرف الراجحي